الأقليات العرقية في مصر في القرن التاسع عشر

المؤلف
حلمي أحمد شلبي

الأقليات العرقية فى مصر

فى القرن التاسع عشر

دكتور
حلمى أحمد شلبى
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية آداب المنوفية

طبعة أولى
١٩٩٣



مقدمة

هذه الدراسة تتناول الأقليات العرقية فى مصر فى القرن التاسع عشر . والواقع أنه لم تتدفق على البلاد قبل هذه الحقبة أقليات بهذا الحجم أو هذه الكثافة ومن بقاع شتى فى أرجاء المعمورة . فقد توافدت عناصر من اليونان وجزر البحر المتوسط من مالطه وكريت وقبرص ؛ وعناصر من افريقيا من الحبشة والسودان . وعناصر من آسيا من الديار الشرقية والمقصود بها تركيا وبلاد أرمينيا وبلاد القوقاز وجورجيا . وقبل أن يبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت موجة جديدة غربية من أوربا فى التدفق وأخذت عناصرها فى التزايد ؛ بحيث أصبحت جميع أركان الأرض ممثلة فى مصر ، على حد تعبير بريس دافين ـ أحد المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، الذى يقول : « هناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة ؛ الأبيض ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين والزنجى المنخفض الجبهة الغليظ الشفتين ؛ والعربى والتركى والشركسى والهندى والحبشى ، كل أولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ويتكلمون لغات برج بابل » .

ولا تتطلع هذه الدراسة الى الخوض فى بحث كل هذه العناصر؛ فذلك يصعب تناوله فى دراسة واحدة . وانما سوف تقتصر على تناول فريق عنها فحسب ؛ وأعنى به أقليات الديار الشرقية ، أى الأتراك والشركس والأرمن .

وهذه الأقليات تتميز عن غيرها بأن وجودها فى مصر يرجع الى فترات طويلة سابقة على القرن التاسع عشر . هذا بالاضافة الى انها كانت تمثل أهل الحكم والادارة والمال والثراء لحقب طويلة؛ فهى أقليات عرقية حاكمة ومسيطرة يمثل القرن التاسع عشر الحلقة الأخيرة من حلقات انفرادها بالسلطة والسيطرة بعدما زاحمتها

أقليــات عــرقية أخــرى وفدت من أوربا وتمكنت من زحــزحتها عن مكانتها ، وبعدما تطلعت الأغلبية الى أن تزاحم هى الأخــرى لأول مــرة منذ سنوات طويلة ·

ومن المهم تتبع هذه القضية من الناحية التاريخية والتركيز عليها، باعتبارها تمثل مرحلة انتقــال فى وعى الأغلبية من المصريين ، وبداية نهاية عصــر احتكار الأقلية للحكم وانفرادها بالسلطة والسيطرة · وهو فى الواقع وضــع معكوس فالأقلية كانت محتكرة لكل شىء على حين الأغلبية مقهورة صامتة ·

أما اطلاق تعبير الأقليات العــرقية هنا ؛ فالهدف منه تفادى تقسيم هذه الأقليات على أســاس من الدين أو الطائفة · فالمعاملات بين هذه الأقليات على نحو ما ستكتشف هذه الدراســة قد أثبت أن عوامل الانتماء الدينى أو الطائفى كانت فى العادة تاتى فى مرحلة تالية على المصالح الاقتصادية التى تتراجع أمامها كل الاعتبارات الأخرى · فالتسمية هنا لتوضيح الخلافات الجنسية فحسب ولاينبغى أن يشتم منها أى شىء آخر، فهذه الأقليــات جاءت من بلاد الشــرق من تركيا وأرمنيــا وجورجيا والقوقاز ، وتشابهت ظروفها من حيث نجاحها فى الانفراد بالحــكم والسيطــرة ·

وعلى ذلك فقد انقسمت هذه الدراســة الى فصول ، تتناول أصول هذه الأقليات العــرقية ، ثم تناولنا فى بقيــة أجزائها كل أقليــة من هذه الأقليــات على حده ·

فبالنسبة للأتراك ؛ تناولت الدراســة تكوين الصفوة منهم ، ودور محمد على فى ذلك وهل تاثرت خططه لتكوينها بالتعصب لجنس على جنس أو أقلية على أقلية ؟ ثم كيف تكون ولاء هذه الصفوة ، وكيف ظلت تحافظ على ولائها لمناطق نزوحها أم استبدلته بولاء آخــر ؟ وهل كانت هناك تقاليد فى تكوين هذه الصفوة ، وما الحــال الذى انتهت اليــه بعد وفاة محمد على؛ والظروف التى أحاطت بظهورالمصريين بعد ذلك·

كذلك تناولت الدراسة دور البيروقراطية التركية وما تميزت به ، والحياة الاجتماعية للأقلية التركية عموما ، والقيم الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع التركى فى مصر آنذاك ، كما تناولت علاقة الأتراك بالأوربيين وما ترتب عليها من زحزحة الأتراك عن مكانتهم التى ظلوا يتميزون بها لفترات طويلة .

كما تناولت الدراسة الشركس ، واماكن تركزهم فى مصر ومكانتهم الاجتماعية بها الى جوار الأتراك ، والأبعاديات التى تملكوها ، وعلاقتهم بالأقليات العرقية الأرخرى ، واندماجهم بها وبالأغلبية على السواء ، والأحوال الاجتماعية لهم وانتشارهم فى بيوت الأتراك .

أما الأرمن ، فقد كانوا اقلية متفردة تختلف عن الأتراك والشركس فقد مروا بمراحل ازدهار وتقوقع ، ولعبوا أدوارا هامة فى الحياة فى مصر خصوصا فى بناء الدولة الحديثة . وقارنا بينهم وبين الأتراك والشركس فى كل الأمور . وتناولنا دورهم فى السياسة المصرية . وكيف كانوا أول من استشعر خطورة قدوم الأوربيين الى مصر وتهديدهم لوضع الأقليات العرقية الشرقية عموما ، وكيف قاوموا هذا الخطر ، ودور نوبار فى ذلك بصفة خاصة ؛ كما تناولنا ازدهار أحوالهم الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر .

أما مصادر الدراسة ؛ فتقوم أساسا على الوثائق ، اذ أن المراجع حين تتناول هذا الموضوع غالبا ما تشير اليه دون افاضة . ولا شك انه كانت هناك صعوبات فى جمع وثائق هذا الموضوع ، اذ لا توجد مجموعات وثائقية كاملة تتعرض لهذا الموضوع ، بل انها متناثرة فى مجموعات وثائقية عديدة بذلنا جهدا مضنيا فى الحصول عليها . ومن أهم هذه المجموعات « وثائق تعداد النفوس أعوام ١٨٤٨ و ١٨٧٠ » ، وأهمية هذه الوثائق انها تسجل اسماء الأفراد

وجنسياتهم وأعمالهم · فرحنا نتعقب هذه الأسماء الواردة فى التعداد ضمن الآف الأسماء لنتخلص ما يخص الدراسة ·

ثم تاتى بعد ذلك « وثائق ديوان الخديوى » وهى تحتل مكانة هامة أيضا فى مصادر هذه الدراسة اذ تحتوى على مئات الوثائق التى تتناول شئون عناصر الأقليات العرقية فى مجالات العمل ؛ وتحركاتهم فى مصر او محاولاتهم الخروج منها عند الضرورة والعودة اليها ، وموقف الحكومة منها ·

اما « أوراق المحاكم الشرعية » وهى فى شكل سجلات ؛ فتعتبر مصدرا على قدر كبير من الأهمية ، ففيها تفاصيل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للأقليات ، وقد استفاد هذا البحث منها كثيرا فى فترة الدراسة ·

هذا بالاضافة الى ما عثرنا عليه من وثائق أخرى تخدم الموضوع فى أوراق ديوان المعية السنية ومحافظ الابحاث ومحافظ الذوات ومحافظ بحر برا ووثائق الطوائف والجاليات الأجنبية وملفات الموظفين الاتراك والشركس والأرمن ·

كما اعتمد البحث على مراجع هامة أخرى منها ، كتاب (فصول مختارة من تاريخ الارمن فى مصر) وهو من تاليف (ارداشيس) الأرمنى ويحتوى على عدة أجزاء ومكتوب باللغة الأرمنية · وقد ظللت أتردد على صديقى الأرمنى (ليفون ديرها جوبيان) ؛ طوال عام ١٩٩١ من أجل أن يساعدنى فى قراءة ما ورد فى هذا الكتاب الهام وفى جريدة (الهوسابير) الأرمنية التى تصدر فى القاهرة ·

ولا شك أنه يعود اليه الفضل بما بذله من جهد معى فى قراءة ما جاء فى هذا المصدر الهام · وأنتهز هذه الفرصة لأقدم له كل الشكر والامتنان·

وبعد ؛ فقد بذلت قصارى جهدى للحصول على المصادر الأصلية والمراجع الخاصة بهذه الدراسة وأرجو أن أكون قد وفقت · وعلى الله قصد السبيل ·

شبين الكوم – ديسمبر ١٩٩٢   **دكتور حلمى شلبى**

الفصل الأول

أصول الاقليات العرقية

أصـول الأقليـات العـرقية

أقامت بمصـر فى القرن التاسع عشر أقليات عرقية تنحدر من قوميات متعددة تتحدث بألسنة مختلفة وتدين بعقائد شتى . ونعنى بالأقليات العرقية هنا تلك التى كانت تدين بالولاء لعاصمة الدولة العثمانية استانبول واستقرت فى مصر بعدما تحولت الى ولاية عثمانية منذ الفتح العثمانى .

ولما كانت هذه الأقليات أو العناصـر تنتمى الى أصول عـرقية متعددة ، فانه من الضـرورى تناول هذه الأصول والبيئات التى نزحت منها والمعتقدات التى كانت سائدة بينها .

و مثـل الأتراك أغلبية هذه الأقليات باعتبارهم أصحاب السلطنة الذين توافدت فى ركابهم باقى هـذه الأقليات الشـركسية والأرمنيـة والكردية وغيرها .

أما الأقليـة التركية التى وفدت الى مصـر فى القـرن التـاسع عشر فقد كانت تنتمى الى بلاد الأناضول ؛ وقد استوطنت هذه الأقلية فى بلاد الأناضول قبل نزوحها الى مصـر على هيئـة بطون وقبـائل متفرقة قادمة من آسيا وبخاصة من مدن طرسوس وعين زربه والمصيصة وأطنه ومرعش وملطية وديار بكر(١) .

وشبه جزيرة الأناضول تتكون من العديد من البلدان ؛ وتتجـاور فيها شعوب مختلفـة العـادات ، متعـددة الألسنة ؛ بين أهلهـا تنابذ بالأصول والدين(٢) . وهم صنوف من النـاس منهم البدو والحضـر والفلاحون والتجار والمفـكرون والصناع والدراويش ، تعرضوا لأزمات اقتصادية وحـروب عديدة ، وذاقوا الضنك والهلع فى فترات عـديدة مما جعلهم يرتمون ـ كرد فعـل ـ فى أحضـان الدراويش أى أصحاب الطرق الصوفية . وقد احتفظ بعض هؤلاء ـ بعد توطنهم بلاد الأناضول ونزوحهـم من آسـيا ببقـايا من الديانات القديمـة وتقـاليد الحيـاة

الاجتماعية ، فبالرغم من اسلامهم كانوا لا يزالون يؤمنون ببعض الخرافات ، كما انهم حافظوا على أساليب حياتهم الاجتماعية والقومية الأخرى التى كانت تتجلى فى الأعياد والمناسبات الأخرى وما كان يرافقها من طرد ومن غزو وسلب • وانتشر بينهم ايمان بقوة القضاء والقدر المتجسدة فى العالم والزمان(٣) • معنى هذا أن حياتهم القومية كانت تمضى جنبا الى جنب مع اسلامهم ولم يجدوا غضاضة فى أن يجردوا الجيوش دفاعا عن اسلامهم •

فعناصر البدو منهم خاصة التى نزحت من آسيا واستوطنت بلاد الأناضول ظلوا متعصبين لمعتقداتهم القديمة على الرغم من اسلامهم ، ورجال الدين عندهم من الدراويش وليسوا من المشايخ الدارسين ، وقد أقام هؤلاء البدو فى القرى حول رؤسائهم الدينيين ، وكان اخص ما يميزهم هو المحافظة على التقاليد التركية الآسيوية وعلى اللسان التركى وهؤلاء هم الغلاة من أتراك الأناضول(٤) •

وحقيقة الأمر أن هذه القبائل البدوية التركية كانت تجذبها أواصر القربى أشد من الدين واللسان ، لذا كانوا أتراكا قح ، أى أن قوميتهم كانت التركية ؛ وهم يختلفون عن غيرهم من الحضر والفلاحين والتجار الذين استوطنوا المدن الكبيرة فى الأناضول ويمثلون الطبقات العليا والمتوسطة أو بمعنى آخر يمثلون الأرستقراطية التركية ؛ وهؤلاء انضووا تحت لواء القومية الاسلامية شانهم شان غيرهم من الشعوب الاسلامية، وكانوا ينتمون الى أهل الفتوة ، وأصبحت القومية الاسلامية هى الموجه الوحيد لسياستهم ، ولكن كان بينهم مستشاريهم من المقربين ، الذين لم يحدثوهم بأحاديث الجنة والنار والحور والولدان ولم يشيروا عليهم الا بالجهاد وسبى النساء وجمع الأسلاب ولم يطربوا الا بسير المتقدمين من جبابرة الفرس والعرب والهند واليونان (٥) • وهم لم يفقدوا مطلقا شخصيتهم القومية وكيانهم التركى وحافظوا على تقاليدهم وعاداتهم وسبل معيشتهم السابقة على اعتناقهم للاسلام (٦) •

وينتمى هذا العنصـر الأخير من الاتراك الى مدن عديدة فى بلاد الاناضول وهم العنصـر الذى نزح الى مصـر ونسبوا الى المدن التى نزحوا منها عند مقامهم فى مصـر وهم يأخذون لقب الاناضولى على وجـه العموم أو ينسبون الى احدى مدن بلاد الاناضول ـ التى كانت الركيز أو القاعدة الثابتة للنازحين الى مصر ، فمنهم من ينتمى الى ولاية آيدين ـ وهى احدى ولايات الأناضول ـ ويلقب الواحد منهم بالأدنلى ـ وولاية آيدين ـ كانت تقع بها حوادث كثيرة من اللصوص مثل قطع الطرق وشن الغارات على القـرى ويسلبون كل ما وقعت عليـه أنظارهم(٧) وكان جـزء كبير من القوات العثمانية يتكون من عناصر تلك الولاية ؛ وعرف عنهم نزوعهم الى الهجرة من أراضيهم الى استانبول وانهم كانوا ضمن عناصر أخـرى عـديدة فى بلاد الأناضول ضغطت على عاصمة الدولة العثمانية بهدف الوصول الى موقع أليق(٨) ٠

وتمثـل ولاية قونية أهم وثانى بلاد الأناضول التى نزحت منهـا عناصر عديدة الى مصـر ، ويطلق على أبنائها الوافدين اسم القونيلى٠ وقونيه تمثـل بالاشتراك مع أنقرة ولايتين تحملان اسم واحد « قونيه وانقـرة »(٩) ٠ وهذه المناطق شـأنها شـأن غيرها من بلاد الأناضول بها مساحات جبلية كبيرة ووسائل الاتصال بها مختلفة جدا وتمارس فيها الزراعة وتربية الحيوانات(١٠) ٠ وكانت تكون بحكم تضاريسـها ومناخها وحدات اقتصادية منفصـلة ، اقتصـرت المناطق الجبلية فيها على الرعى ؛ بينما سـادت الزراعة فى البقاع القريبة من الثغور وطرق المواصـلات(١١) ٠

اما ولاية سيواس فهى احدى الولايات الكبيرة فى بلاد الاناضول والتى تضم ارضروم وطرابزون فى شـمال وشرق بـلاد الاناضـول وجنوبها حلب وادنه ، وغربها انقـرة ٠ ونزحت عناصـر من هـذه المناطق الى مصر خصوصا من الارمن والاكراد ، الذين كانوا يمثلون نسبة كبيرة من عدد السكان بهـا (١٢) وتذكر الوثائق فى مناسبات عديدة اسماء هؤلاء النازحين دون القاب وتنسبهم الى مناطق نزوحهم ،

فتشير الى ان هذا الشخص من ولاية سيواس او من ارضروم او طرابزون وهكذا . وكانت هذه الولاية مشهورة بالخيول التى يحتاجها الجيش العثمانى ، حيث كان أهلها يعتنون بتربية واقتناء الخيول (١٣) ويحتفظون فى بيوتهم بالمسدسات والبنادق ، والتلاميذ فى مدارسها يذهبون الى مدارسهم ومعهم الاسلحة من مسدسات وخناجر ينازل بعضهم بها بعضا (١٤) وهذا يدل على طبيعة أصيلة فيهم قائمة على العنف ، وهى منقولة من البيئة التى نزحوا منها فى أواسط آسيا قبل ان يتجهوا الى الاناضول (١٥) .

وتتردد فى الوثائق اسماء مدن واقاليم أخرى من بلاد الاناضول ، الموطن الاصلى للاتراك الذين نزحوا الى مصر ، وهى اورفا ومرعش وعينتاب وقيصرية وملطية وبروصة . وتتردد اسماء هذه المناطق كثيرا ، فنجد اسماء الاورفلى والمرعشلى والعنتابلى والقيصرلى والملطى والبروصلى وهى عناصر كما نرى اناضولية تمثل الاقليات العرقية فى مصر والحريصة على ان تنتسب الى مناطق نزوحها ، ولازالت هذه الاسماء مقرونة الى الآن باسماء بعض العائلات فى مصر .

وقريبا من شواطىء الاناضول توجد بعض الجزر التى نزحت منها الى مصر عناصر ترددت اسماؤها كثيرا فى الوثائق من مناطق قبرص ورودس فنجد فى احيان كثيرة اسماء القبرصلى والرودسلى وغيرهما ، ويتركز هؤلاء فى مدينة الاسكندرية على وجه الخصوص .

اما اكثر العناصر عددا وتتردد اسماؤهم بصورة اكبر من اى عنصر آخر ، فهى العناصر النازحة من استانبول ، عاصمة الدولة العثمانية ويطلق على هذه العناصر الاستانبولية ، واحيانا الاسلامبولية ، وهى كلمة تركية معناها دار الاسلام (١٦) .

ولا عجب ان نزح الى مصر من اهل استانبول اعداد اكبر من اى اعداد اخرى من عناصر الاقليات العرقية ، فمصر منذ تولى محمد على الحكم فيها عام ١٨٠٥ أصبحت لها علاقات متميزة مع استانبول ،

فهى وان كانت قد أصبحت لها شخصيتها شبه المستقلة فانها كانت لاتزال باقية فى حيازتها وضمن أملاكها ، وللعناصر الوافدة اليها من عاصمة الدولة العثمانية مصالح عديدة ترجع الى فترات سابقة على القرن التاسع عشر ، فضلا عن ان حكام مصر من أسرة محمد على هم من اتباع السلطان ورعاياه ، وانه كان على كل حاكم ان يتوجه فى بداية حكمه الى الآستانة لاستلام خلعة توليته بنفسه ، وان يسك النقود ويجبى الضرائب باسم السلطان . وجيشه جزء لا يتجزء من جيوش الامبراطورية ، وولايته تطبق القوانين والمعاهدات العثمانية وتقدم خراجاً سنويا للسلطان (١٧) . هذا جعل استانبول بالنسبة لهؤلاء الحكام كعبة تهفو اليها نفوسهم ، فهم وان كانوا حكاما لمصر فقلوبهم معلقة باستنبول ولهم بها اوثق العلاقات . وتدل الوثائق على ذلك بشكل واضح تماما ، فوثائق ديوان الخديوى مليئة بمئات التوصيات المرسلة من استانبول من كبار الموظفين والوجهاء بها الى حكام مصر فى القرن التاسع عشر لأشخاص من استانبول وافدين الى مصر من أجل فرصة عمل او الالتحاق بدواوين الحكومة المختلفة ، وعن هذا الطريق تزايدت اعداد النازحين من الاتراك الى مصر أكثر من غيرهم من الاقليات العرقية فى مصر ، الذين لم يكن لديهم ادنى معرفة بأحوالها ، ولكنهم استقروا فيها بعد أن طابت لهم سبل الحياة بها .

والاقلية التركية فى مصر - على نحو ما رأينا - تختلف جهات نزوحها من بلاد الاناضول ، الا انهم يتميزون على وجه العموم بصفات جثمانية واحدة ، حيث ارتفاع القامة الى حد ما ، والرأس الضخم ، والعينين متباعدتين عن بعضهما ، والانف قوى ومرتفع ، والشفاه سميكة وبارزة من وجه كبير ، ولون البشرة أبيض والبنية قوية (١٨) .

ولم يطرأ على هذه الصفات او الملامح تغيير . فقد احتفظ الأتراك الآسيويين خصوصا بملامحهم المميزة لجنسهم . اما الاتراك القادمين من استانبول فقد كانوا يمتازون بالبشاشة واللطف ومنهم من

يميلون الى الزهو بأنفسهم الى حد الغرور ، على حين نرى البعض منهم ممن يطلق عليهم الاتراك اليونانيين يمتازون بالعزة واللطف (١٩).

والجدير بالذكر أن فترة محمد على شهدت زيادة ملحوظة فى أعداد الوافدين الى مصر من الاتراك الذين ينتمون الى أصل أرنؤدى أو أوربى ومن الالبانيين عموما . ومن منطقة (قوله) خصوصا ـ موطن رأس محمد على ، فترددت اسماؤهم فى الوثائق كثيرا ، ويسمى الفرد منهم القوالى نسبة الى قوله ، وهؤلاء كانوا اكثر عناصر الاتراك ذهواً وصلفاً . وهم اكثر اتباع محمد على اخلاصا له (٢٠) .

اما البيئة التى نزح منها هؤلاء ، فتتميز بأنها مناطق جبلية . وقوله بصفة خاصة تقع فوق صخرة ، وان السواد الاعظم من أهلها مسلمون ، ويصف (ادوارجوان) هذه البقاع بقوله : « تعيش فى هذه المناطق أمة ما برحت على الفطرة ، وهى فى عاداتها وأخلاقها كالصخر الصلد أو أشد قسوة » . واضاف ان احياء الطقوس القديمة ـ طقوس اله الخمر باكوس ما برحت مرعية بينهم . وانهم يطلق عليهم ـ الجوفندجية ـ وهى كلمة فارسية معناها الوثابون ، لانهم على أهبة دائمة للقتال والقرار والعبث » (٢١) .

وهكذا نرى ان هناك فوارق بين الاتراك الذين نزحوا الى مصر تبعا لاختلاف البيئات التى وفدوا منها من جهات الدولة العثمانية . ولكنهم ارتبطوا بالولاء لاستانبول ، ومزجوا بين ولائهم القديم لعاداتهم وتقاليدهم التى نشاوا عليها فى بيئاتهم الأولى وبين ولائهم الجديد ، وهذا الولاء الجديد لم يكن سوى السعى للمحافظة على بقاء مصر تحت السيادة التركية .

وفى هذا الاطار وفدت عناصر اخرى غير الاتراك من ارجاء الدولة العثمانية الى مصر فى القرن التاسع عشر ، وكانت تحتل مكانة متميزة ايضا ، وهى العناصر الشركسية التى كانت تخدم نفس الاهداف . وهى عناصر نازحة من بلاد القوقاز ، الموطن الاصلى لكل العناصر التى خدمت فى الجيش التركى عموما ، ونزح بعضهم الى مصر .

وبلاد القوقاز طبيعتها جبلية باردة تغطيها الثلوج (٢٢) وهى فى مركزها الجغرافى تشبه قنطرة عظيمة بين آسيا وأوربا ، مما هياها لأن تلعب دوراً تاريخياً فى العلاقات بين الشرق والغرب وجعلها منطقة تتنازع عليها وتتجاذبها تركيا وروسيا وفارس (٢٣) .

وتتكون بلاد القوقاز أو القفقاس من أقوام عديدة ، فيذكر يوسف عزت باشا الشركس أن منهم الجركس والكرج والداغستان (٢٤) . ومنهم عناصر تتردد اسماؤها فى الوثائق التركية التى عثرنا عليها فى ديوان الخديوى فنجد فى عصر محمد على اسماء الشركسى والكرجى والداغستانى (٢٥) وهى عناصر كان لها دور بارز فى مصر فى القرن التاسع عشر .

اما الجركس او الجراكسة ، فان المصادر الشركسية تشير الى ان اسمهم (الاديغة) وهو الاسم القومى للجراكسة ومعناه الانسان الكامل ، وهم المثل الأعلى للعرق الابيض ، وعاداتهم وتقاليدهم تخضع لقوانين البيئة التى نزحوا منها (٢٦) . ويذكر راسم رشدى الشركسى « ان الامة الشركسية تتألف من مجموعة قبائل ولكل قبيلة لهجة خاصة ، وانهم مشهورون بتربية الخيل المعروفة بشدة احتمالها ، وكانوا يصدرونها الى تركيا (٢٧) .

والمعروف ان الشراكسة الذين جاءوا الى مصر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان يطلق عليهم المماليك هلك اكثرهم فى مذبحة القلعة وما بعدها عام ١٨١١ ، وصودرت اموالهم وزوج محمد على نساءهم الى ضباطه وجنوده ، على نحو ما سيجىء ذكره تفصيلا فيما بعد .

وهذا البحث ليس من شأنه الخوض فى تاريخ الفترة السابقة على القرن التاسع عشر ودور الشراكسة فى مصر فى تلك الفترة ، ولكن من الضرورى الاشارة الى ان وجود هذه العناصر فى مصر يرجع الى ازمنة سابقة ، وانهم جاءوا من بلاد القوقاز فى فترات متباعدة وظلوا يتوافدون عليها فى ظروف مختلفة (٢٨) .

وقد حرص هؤلاء الشراكسة طيلة وجودهم فى مصر على الا يختلطوا بأهل البلاد واعتمدوا فى حروبهم وزواجهم على الرقيق المجلوبين فتيانا وفتيات ، اما الغلمان منهم فيدربون منذ نعومة اظفارهم على اعمال الفروسية والحرب والصيد ويعلمون القراءة والكتابة والقرآن وشىء من الدين (٢٩) .

ولم يعرف هؤلاء الشراكسة طريقة للاحتفاظ بنقاء محتدهم سوى اللجوء الى أسواق الرقيق لشراء ما يلزمهم منه بغرض ملء صفوفهم به ، ثم يقومون بتدريبه ، فما أن يبلغ الغلمان الثامنة عشرة حتى يحررهم ساداتهم ويمنحونهم مالا وأرضا وجوارى ، فيتزوجون ويؤسسون بيوتا يملؤنها بالرقيق كساداتهم (٣٠) .

ويذكر راسم رشدى الشركسى « ان الشراكسة فى القوقاز كانوا فى حروب دائمة مع القوميات الاخرى ، وان الشراكسة فى مصر لجأوا الى افتداء بنى جلدتهم بالمال بعد أن يباعوا أسرى فى تركيا ، وفى مصر يتلقون فنون الحرب والسياسة (٣١) .

معنى هذا ان العناصر الشركسية التى وفدت من بلاد القوقاز الى مصر ابتيعت من أسواق الرقيق ، وانها انتقلت اليها فى ظروف قهرية ، وانهم حين نقلوا الى مصر جاءوا بتقاليدهم وعاداتهم فى البيئات التى نزحوا منها . ولاشك ان هذه التقاليد والعادات التى نقلها هؤلاء الشراكسة كانت مغايرة عما هو سائد فى البيئة التى نزحوا إليها ومما لاشك فيه انهم تمسكوا بما كان جاريا فى بيئاتهم الاصلية وجروا عليه فى مصر فى جميع الاحوال (٣٢) .

اما عناصر الكرج ، وهم من بلاد القوقاز ايضا ، فتشير اليهم الوثائق باسم الكرجى . والكرج تقع الى الجنوب من بلاد القفقاس ، وكانت تقع ضمن أملاك تركيا منذ عام ١٧٢٩ وظلت مثار نزاع دائم بين تركيا وروسيا ودارت الحروب بينهما بسببها الى ان خضعت لروسيا عام ١٧٩٢ وأصبحت تابعة لها (٣٣) واحيانا تشير الوثائق اليهم باسم

الجورجى او جورجى نسبة الى جورجيا على اعتبار ان بلاد الكرج هى جورجيا (٣٤) ٠ وتردد بين اسماء عناصر الاقليات العرقية فى مصر فى أحايين كثيرة كلمة - جورجى - ، وانهم كانوا مقربين من الاتراك ومن اتباعهم المخلصين ، وربما كانوا هم والشراكسة الاباظية من اكثر العناصر ولاء للحكم فى مصر فى القرن التاسع عشر ، يدل على ذلك تبوئهم مناصب الجيش والادارة العليا فى ذلك الوقت ٠

ووفد الى مصر فى القرن التاسع عشر عناصر اخرى من بلاد القوقاز ، وهم قوم يطلق عليهم الداغستانيون ، وهم أقرب من حيث الطباع والعادات الى الشراكسة ، ويتميزون عن الشراكسة بتمسكهم بالاسلام ، فضلا عن انهم معروفون بالشجاعة ، وقد قاتلوا معا الروس الذين احتلوا مدينة قارس Kars فى القوقاز فى ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٦ ، وبعد أن تعرضوا للهزائم هاجر بعضهم الى بلاد الشرق الادنى ومنها مصر (٣٥) ٠

وفى الوثائق تتردد اسماء الداغستانى نسبة الى هؤلاء الذين هاجروا فى القرن التاسع عشر منهم الى مصر - وهم معروفون - اى الداغستانيون عند حكام مصر الاتراك بشدة تعلقهم بالاسلام وكثرة ترددهم على الاراضى الحجازية واقامتهم فيها آنئذ ، لذا كانوا يقدمون اليهم التسهيلات حين وفادتهم الى مصر بغرض الاقامة او عبور ارض مصر الى الاراضى الحجازية ، فقد اعطى محمد على عام ١٨٢٩ - على سبيل المثال - هبات واعانات للبعض منهم حين وفدوا الى مصر بعد ان شعر بأنهم فقراء وذوى حاجة فأعطى لاحدهم ويدعى ياسين الداغستانى من الخزينة مائة قرش على سبيل الصدقة (٣٦) ٠ وحين كانت تضيق بهم السبل فى ارض الحجاز كانوا ينزحون الى مصر للاقامة فيها لتوفير وسائل العيش (٣٧) ٠

والجدير بالذكر ان عناصر منهم استوطنت مصر بخلاف النازحين

من ارض الحجاز ، وانهم اندمجوا فى البيئة المصرية ولازالت هناك عائلات فى مصر حتى الآن تحمل لقب الداغستانى .

● ● ●

وتشير الوثائق الى انه كانت توجد فى مصر فى القرن التاسع عشر ايضا عناصر كردية ولكن باعداد قليلة جدا ، وانهم كانوا يتمتعون بمكانة متميزة (٣٨) ومعروف ان الاكراد عناصر ترجع اصولها الى منطقة كردستان . وان هذه المنطقة عبارة عن سلاسل جبلية ، وانهم ينحدرون من قبائل سكنت غرب المنحدرات الشرقية لجبال طوروس وحتى زاغروس (٣٩) .

ولاشك ان الطبيعة الجبلية لكردستان تركت آثارها الواضحة على قبائل الاكراد ، فكانوا فى حالة ترحال دائم خصوصا فى أشهر الصيف ، حيث ترحل القبائل الى المراعى فى الجبال العالية وترجع فى أواخر الخريف الى مساكنها لقضاء فصل الشتاء (٤٠) .

والواقع ان وجود الاكراد فى مصر يرجع الى فترات بعيدة قبل القرن التاسع عشر وانهم قاموا بدور بارز خلال وجودهم بها (٤١) ليس من شأن هذا البحث تناوله وان كانت هناك عناصر كردية باعداد ضئيلة جدا فى القرن التاسع عشر فى مصر لها دور فى الحياة الاجتماعية ، فتشير الوثائق الى اسمائهم وتلقبهم بالكردى نسبة الى مناطق نزوحهم الاصلية ، كما تشير الى ان البعض منهم قد تولى مناصب فى الادارة والجيش ، وان محمد على كان يرحب بهم فى مصر (٤٢) .

● ● ●

والأرمن اقلية عرقية نزحت الى مصر فى القرن التاسع عشر ، وتتميز بانها من اكثر الاقليات العرقية شهرة . وهم النازحون من

ارمينيا او استانبول . وموطنهم الاصلى ارمنستان القديمة ، وهى البلاد الواقعة ما بين نهر قفقاسيا والشمال الغربى لايران والشمال الشرقى لآسيا الصغرى ، وثلثا هذه القطعة داخلان فى حدود ايران وروسيا والثلث الباقى فى املاك الدولة العثمانية (٤٣) .

والواقع ان الارمن اصابوا نجاحا اقتصاديا ملموسا فى ظل الدولة العثمانية وتميزوا بمقدرة فائقة فى المسائل التجارية والحسابية والنفوذ ، مما مكنهم من شغل مناصب مالية فائقة واتيحت لهم فرصا عديدة فى التنقل الى العديد من أقطار الدولة العثمانية ومنها مصر والعمل فى المناصب الحكومية العالية وأعمال التجارة والمحاسبة وغيرها ، على نحو ما سنرى تفصيلا .

وبالرغم من ذلك فان بلاد الأرمن تعرضت كثيرا للحروب والغزوات والكوارث والهجرات ، بسبب موقعها الجغرافى ، مما أدى الى فقدانها لاستقلالها - فى ارمنيا - فى مواجهة الدول المجاورة ، وهى فارس وروسيا والدولة العثمانية (٤٤) .

وربما كان ذلك سببا فى ضعف المفهوم القومى للأرمن ، وان كان ذلك لم يقض على مسالة الارمن ، فقد ظلوا أقلية عرقية فى المناطق التى نزحوا اليها تتوق الى انشاء كيان مستقل ، بخلاف الأقليات الاخرى التى كانت اكثر قابلية للذوبان والاندماج فى الاكثرية الموجودة .

والارمن ، كما هو معروف من العناصر غير الاسلامية التى نزحت الى مصر فى فترات عديدة (٤٥) . واكثر الأرمن الذين نزحوا الى مصر كانوا من الكاثوليك (٤٦) على الرغم من ان السلطات العثمانية كانت تؤيد الأرمن الارثوذكس (٤٧) . وكانت صلاتهم وتبعيتهم الدينية لقيادتهم الدينية للبطريرك الارمنى فى استانبول . وقد منح السلطان عبد العزيز فى عام ١٨٦٣ الأرمن نوعا من الحكم الذاتى جعل المسائل

الارمنية من اختصاص مجلس وطنى عام يجتمع مرة كل ســـنتين فى استانبول برياسة البطريرك الارمنى مع وجود مجلسين صغيرين احدهما للمسائل الدينية وكان اعضاؤه من القساوسة الأرمن ، وآخر للمسائل المدنية واعضاؤه من المدنيين (٤٨) . معنى هذا أن الأرمن فى مصر ، بالرغم من أنه كان لهم هيكل خاص لاقامة شعائرهم الدينية ، الا انهم كانوا يتبعون الرئاسة البطريركية والمجالس المذكورة والتى كانت تمثل جميعا التجسيد لآمال الارمن وطموحاتهم فى الدولة العثمانية .

ولا نجد اقلية عرقية فى مصر حافظت على تقاليدها وعاداتهـا المنقولة من البيئة التى نزحت منها كما حافظت الأقلية الارمنية ، ويعزى ذلك الى أمرين ، الامر الاول ، أن أغلبية الارمن الذين نزحـوا الى مصر كانوا من الذين ينتمون الى العقيدة المسيحية وسط أغلبيـة من المسلمين ، والامر الثانى ، أنهم بخلاف الأقليات العرقية الأخرى . عملوا فى مجالات التجارة واعمال المال ، وهى أمور كانت تقتضى قدرا من حسن المعاملة مع الآخرين واثبات التفوق والحفاظ على الخصوصية ، وكانت هذه الخصوصية قد نقلوها من أماكن نزوحهم ، اذ أنهم كانوا يسيطرون على طرق التجارة العالمية آنئذ ممـا اكسبهم مهارة فائقـة حافظوا عليها بإصرار (٤٩) .

وتعتبر الاقلية الارمنية بذلك أقلية متميزة عن الاقليات العرقيـة الاخرى ، اذ ان اندماجها بالبيئة المصرية كان معدوما تقريباً ، على حين كانت الاقليات الاخرى اكثر قابلية بالرغم من حرصها الظاهر على تكوين ارستقراطية تركية شركسية متميزة من الناحية الطبقية والعرقية .

● ● ●

وهناك اقليات عرقية عثمانية اخرى نزحت الى مصـر فى القرن التاسع عشر بخلاف الاتراك والشراكسة والارمن ، هذه الاقليات

من جــزر البحر المتوسط استوطنت مصر من مناطق كريـــت وقبرص ورودس ، وترددت اسماء من هذه المناطق فى الوثائق • وهى عناصر تركزت فى الاسكندرية بصفة اساسية ومنهـــم الكريتلى او الجريتلـــى والقبرصلى والروديسلى نسبة الى المناطق التى نزحوا منها •

واهمية هذه الجزر تكمن فى تميزها عبر التاريخ بالموقع الاستراتيجى كمعبر للدول من الغرب الى الشرق ومن أوروبا الى افريقيـــا وبالعكس ، لذا كانت موضع نزاع ومنافسة بين الدول ، ومعروف ان هذه الجزر خضعت للحكم التركى ولم تفقد الدولة العثمانية سيطرتها على هذه الجزر الا بعد ان دخلت طور الانهيار لذلك كان سكان هذه الجـــزر ينزحون الى اقطار الدول العثمانية ومن بينها مصر والبعض منهـــم استوطنها ، كما تدل على ذلك وثائق المحكمة الشرعية لمدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر •

وهذه الجزر ، خصوصا رودس كانت تمثل حلقة اتصـــال بين استانبول ومصر ، على حين كانت قبرص ذات أهمية خاصة بالنسبة لمركزها الجغرافى بالقرب من سواحل الشام ومصر • اما كريت فكانت تتميز بموقع هام عند مدخل ارخبيل اليونان وذات أهمية فى طريق استانبول (٥٠) لذلك كان من الطبيعى ان نجد بعض ســكان هذه الجزر ، وهى عناصر قليلة ينزحون الى مصر ، باعتبارها من املاك الدولة العثمانية وكان لهم فيها دور •

• • •

وهناك اقليات اخرى من الاحباش الذين تدفقوا على مصر من بلاد الحبشة ، وتدل الوثائق على ان معظمهم من الجوارى الذين كان لهم وجود مؤثر جدا فى منـــازل وبيوت هذه الاقليات العرقيـــة من الاتراك والشراكسة بصفة خاصة ، ولا نجد منزلا من منازل هـــؤلاء

يخلو من هذه العناصر التى لعبت دوراً مؤثرا جدا فى الحياة الاجتماعية للاقليات العرقية العثمانية .

● ● ●

وتدلنا الوثائق أيضا على أنه كان يوجد اقليات اخرى من الشوام والمغاربة فى مصر فى القرن التاسع عشر ، ولكنها اقليات تختلف عن سابقتها فى انهـا اندمجت فى البيئة المصرية من أول وهلة ولم تجـد ايـة صعوبات فى ذلك .

● ● ●

وهكذا نرى ان الاقليات العرقية العثمانية التى نزحت الى مصر فى القرن التاسع عشر ولعبت دورا ملموسا فيها كانت ترجع الى أصـول عرقية متباينة وبيئات مختلفة ، ولكنها كونت فيما بينها صـفوة من اصحاب المناصب الحربية والادارية والفنية ظلت فى موقع الصدارة فى المجتمع المصرى طوال القرن التاسع عشر تقريبا ، حتى بداية نزوح الاوربيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فبدأ التراجـع التدريجى والبطىء جدا للصدارة التى استحوذت عليها هذه الصفوة .

الهـــوامـش

(١) أحمد السعيد سليمان (دكتور) : التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصـرة ص ١٤ الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول ص ٩٩ القاهرة عام ١٩١١ « المؤلف تعرض للنفى الى بلاد الاناضول فى عام ١٩٠١ وظل بها نحـو سبع سنوات ، وكان يعمل فى ولاية سيواس فترة من الزمن ، واختلط باهالى هذه المناطق » .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٦٠ ترجمـة أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ١٩٤٨ .

(٤) أحمد السعيد سليمان (دكتور) : مرجع سابق ص ١٨ ـ ٢١ .

(٥) ولى الدين يكن : مرجع سابق ص ١٠١ (بلاد الاناضول) .

(٦) حقى درسون يلديز : التطور التاريخى للعلاقات التركية العربية (بحث منشور نـدوة دراسات فى الادب والتاريـخ التركـى المصرى (٢ ـ ٤ مارس ١٩٨٥) دار الفكر العربى بالقاهرة .

(٧) ولى الدين يكن : مرجع سـابق ص ١٠٢ .

(٨) هاملتون جب ، هارولد بوون : المجتمع الاسلامى والغـرب جـ ٢ مترجم ص ٨٦ ـ ٨٧ ، يتحدث هنا بالتفصيل ص ٥٤ ـ ٨٧ عن الروملى والاناضول ، ويشير الى ان الظروف الاقتصادية منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر كانت وراء ظاهرة الهجرة من الاناضول ، وأن أهـالى هذه الولاية كانوا يلجأون الى المدن حيث يحاولوا ان يبنـوا مستقبلهم .

(٩) ولى الدين يكن : مرجع سابق ص ١٠٢ « قونية كانـت امـارة سلجوقية : ضمها العثمانيون الى املاكهم بعد سقوط سلطانها » . اما « انقرة فكانت مقر سلطنة القرمان وضـمها العثمانيـون الى املاكهم ايضاً » انظر ، محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٩ ـ ٤٤ ، وانظر ايضاً ، هـ . جب ، هـ . بوون : مرجع سابق جـ ١ ص ١٢٨ .

(١٠) جب ، هـ ، بوون ، هـ : مرجع سابق جـ ٢ ص ٥٤ .

(١١) محمد انيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشـرق العربـى ١٥١٤ ـ ١٩١٤ ص ٦٤ ـ ٦٥ القاهرة مكتبة الانجلو المصـرية (د . ت) .

(١٢) ولى الدين يكن : مرجع سابق ص ١٠٦ ، كان عدد السكان فى هذه الولاية طبقا لاحصاء ١٣٢٥ هـ ستة عشر مليونا وخمسة وثمانون من المسلمين ، ومنهم الاكراد والمستوطنون من مهاجرى القوقاز (٩٦٨٧٨٦) والباقون من الأرمن واليهود والاقباط ٠

(١٣) نفسه ص ١١٠ ٠

(١٤) نفسه ص ١١٤ ـ ١١٦ ٠

(١٥) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ٠٠ ، الجزء الاول ص ٤٩ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة عام ١٩٨٤ ٠

(١٦) نفسه ص ٦٣ ٠

(١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل ص ٥ ـ ٦ ٠ دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٦٧ ٠

(١٨) حلمى محروس اسماعيل : دراسات فى الحالة الاجتماعية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى ٦٨ (رسالة دكتوراه غير منشورة ٠ آداب القاهرة عام ١٩٧٧) ٠

(١٩) نفسه ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

(٢٠) ادوارد جوان : مصر فى القرن التاسع عشر ص ٢٩٤ ـ ٢٩٨ مترجم ، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م وانظر ايضا ، محمد سليمان : رسائل سائر ص ١٩٤ ، المطبعة السلفية بالقاهرة

(٢١) نفسه ٠

(٢٢) راسم رشدى : شركسى يتحدث عن قومه ص ٦ ٠ القاهرة ١٩٤٧ ، وانظر ايضا ، يوسف عزت باشا (شركسى) ، تاريخ القوقاز ص ١ ترجمة عبد الحميد غالب بك ٠ القاهرة ١٩٣٣ ٠

(٢٣) جمال حمدان (دكتور) : استراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٥١ كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٦٨ ٠

(٢٤) يوسف عزت باشا : مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٥ ٠

(٢٥) نفسه ص ٤٢ ٠

(٢٦) نفسه ص ٥٩ ، ٢٠٠

(٢٧) راسم رشدى : مرجع سابق ص ١٣ ، ١٥ ٠

(٢٨) نفسه ص ٤٠ ـ ٤٦ ٠

(٢٩) محمد رفعت : تاريخ مصر فى الأزمنة الحديثة ص ١٣ ٠

(٣٠) نفسه ص ١٤ ٠

(٣١) راسم رشدى : مرجع سابق ص ٤٢ ٠

(٣٢) يوسف عزت باشا : مرجع سابق ص ٢٠٠ ٠

(٣٣) نفسه ص ٤٢ ـ ٤٧ ٠
(٣٤) راسم رشدى : مرجع سابق ص ١٦ ، هـ جب ، بوون ٠ مرجع سابق جـ ١ ص ٢٠١ ٠
(٣٥) نفسه ص ٣٣ ٠
(٣٦) انظر وثائق ديوان الخديوى ، محفظه رقم (٢) من الجناب العالى الى حبيب افندى ٢٤ شوال هـ / ١٨٢٩م (دار الوثائق القومية) ٠
(٣٧) نفسه ٠
(٣٨) جليلى جليل (كردى) : انتفاضة الاكراد عام ١٨٨٠ ص ١٥ ٠ بيروت عام ١٩٧٩ ٠
(٣٩) نفسه ٠
(٤٠) شرف خان البدليسى : شرفنامه ص ٥٦ مترجم عن الفارسية ترجمة محمد على عونى الجزء الاول القاهرة ١٩٥٨ وانظر ايضا : آنى شابرى ولورانت شابرى : سياسة واقليات فى الشرق الادنى ص ٣٤٣ ترجمة ذوقان قرقوط ٠ القاهرة عام ١٩٩١ ٠
(٤١) اسد رستم (دكتور) : المحفوظات الملكية المصرية ٠ بيان بوثائق الشام ، المجلد الثانى ص ١٩ ، ٢٧٣ وفى وثائق الاقاليم فى مصر ما يدل على ان هناك شخصيات كردية فى القرن التاسع عشر تولت وظائف ادارية عليا مثل وظيفة حاكم خط (اى مجموعة قرى) ٠ انظر وثائق اقليم المنوفية دفاتر الادارة ٠ صادر ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ٠
(٤٢) نفسه ٠
(٤٣) يوسف عزت باشا : مرجع سابق ص ٢٠ ٠
(٤٤) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : مرجع سابق جـ ٣ ، ص ١٥٤٦ ٠
(٤٥) جمعية اصدقاء الثقافة الارمنية : ارمنيا على مر العصور ص ٣ ، مطبعة ماتوسيان ، القاهرة ١٩٤٤ ٠
(٤٦) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر جـ ١ ص ٤٩٣ ترجمة محمد مسعود القاهرة (د ٠ ت) ٠
(٤٧) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق جـ ٣ ص ١٥٤٠ ٠
(٤٨) كارل بروكلمان : مرجع سابق جـ ٣ ص ١١٥ ٠
(٤٩) مروان المدور : الارمن عبر التاريخ ص ٣٨٥ بيروت (د ٠ ت) ٠
(٥٠) محمد فريد بك : مرجع سابق ص ٨١ ، ١١١ ، ١٢٨ ٠

الفصل الثاني

الاتـــــراك

الاتـــــراك

● ● ●

يمثل القرن التاسع عشر الحقبة الاخيرة فى تاريخ الاتراك فى مصر ، وذلك قبل ان يظهر المصريون العنصر الاصلى واغلبية السكان بها . ولفترة طويلة ظل هؤلاء المصـريون بعيدين عن شئون البلاد ، وانفردت الاقليات العرقية التى تسللت الى مصر فى شكل موجات بشرية متلاحقة ، كانـت تأتى ـ على نحو مارأينا فى الفصل السابق ـ من آسيا الوسطى وغيرها ، انفـردت هذه الاقليات العرقية بتصدر الحياة فى مصـر على حـين نجد ان المصريين انصرفوا الى ممارسة شتى انواع الزراعة والصناعة والتجـارة .

والواقع ان هذه الاقليات لم تتمكن من إصابة هذه المكانة الا فى ظروف غير عادية ، هى التهـديدات التى تعرضت لها مصر . فمعروف ان هذه الاقليات اتخذت الجندية مهنة لهـا وكانت هى المهنة الرئيسية فضـلاً عن عـدم وجـود نظام للجندية او للتجنيد من المصريين ، وهو الاتجـاه الذى اتخذه وعـى المصريين . كل تلك العـوامل جعلـت هذه الاقليات وعلى رأسها الاتراك تتبـوأ هذه المنزلة .

والاتراك كانوا يمثلون اكثر الاقليات العرقية عـددا فى مصر ، هذا من ناحية . ومن ناحية اخـرى هم الذين جلبوا الاقليات الاخرى اليها والتى كانت قريبة منهم وساعدتهم فى البقاء والاستمرار . ويبدو واضحا ان توافد الاتراك على مصر قديم يرجع الى ما قبـل بداية الوجود العثمانى بها وان كثيرين منهم قد انصهروا فى البيئة المصرية الاجتماعية عبر قرون عديدة ـ خصوصا الذين اختاروا مهنـاً غـير الجندية ـ وهؤلاء كانوا مضطرين الى ذلك بعدما اصبحوا غير قادرين على مزاولة مهنتهم الاساسية . معنى هذا أن هناك اعدادا كبيرة منهم قد ذابت فى المحيط الواسـع . والثابت أن بـداية تواجدهـم تعـود الى

القرن التاسع الميلادى ، اى ان الاتراك استمروا ما يقرب من احد عشر قرنا ، مما ساعد على تركيز وجودهم واستمراريته ٠

● ● ●

تركزهـم واماكن انتشارهم :

ان الاحصائيات التى توفرت لنا عن عدد الاتراك فى مصر فى القرن التاسع عشر غير دقيقة ، وواضح من مطالعتها انها لا تعبر عن الحقيقة ، فتعداد النفوس وهو اقدم احصاء عن اعداد الاتراك (اعوام ١٨٤٨ ، ١٨٦٠) يدل على أمرين : الاول ، ان اعدادهم كانت تتناقص وتضعف عاما بعد عام ٠ والثانى ، ان اغلب هذه العناصر اقامت فى عواصم المديريات والقاهرة والاسكندرية ، وان اقلية ضئيلة منهم مشتتون فى جميع انحاء البلاد ، ففى كل قرية منهم اثنان أو ثلاث فى العادة وفى كل مدينة اثنى عشر أو عشرون فردا ٠

وفى القاهرة تركزت أغلبية العناصر التركية فى ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر ، فى الاحياء القريبة من القلعة فى عابدين والدرب الاحمر والخليفة وقيسون ٠ ففى الدرب الاحمر كان هناك طبقا لتعداد ١٨٤٨ ما لا يقل عن مائة من المنازل التى يقيم فيها اتراك ، وفى حى قيسون اقام عدد كبير من الشخصيات التركية البارزة فى الحكم والادارة وكبار الضباط امثال سر عسكر المدينة والمحتسب ونخبة من كبار الضباط الاتراك ٠

وقد اقام هؤلاء فى منازل فخمة وقصور خاصة بهم ونشأت الى جانبهم منازل تضم اتباعهم الذين يشغلون مناصب ادنى وهم من عناصر الاتراك الاغوات والنظار والمعاونين وكبار الموظفين فى الدواوين ، وكانوا يمثلون نخبة تضم الى جانب الاتراك مختلف الجنسيات العثمانية سواء من الشراكسة او الاكراد او الارمن ٠

والظاهرة الجديرة بالتنويه هي أن هذه الأقليات العرقية المتعددة التى تضم اغلبية تركية فى هذه الاحياء لم تنفصل عن الوطنيين المصريين من حيث الاقامة ، فقد نشأت الأحياء التركية وسط محيط واسع يضم منازل للوطنيين من مختلف المهن والصناعات ، ولم يجد الاتراك غضاضة فى ذلك ، بالرغم من انهم ياتون على رأس الهرم الاجتماعى ، ولم يخش هؤلاء كونهم أقلية قد تتعرض للذوبان فى وسط الاغلبية الوطنية ، فقد كان هؤلاء يقبلون الاختلاط ويرفضون الذوبان ، بمعنى أنهم كانوا يدركون ان تميز صنعتهم - وهى الحكم والادارة والقتال - كفيلة بان تجعل ذوبانهم عملية مستحيلة ، والدليل على ذلك هو التركيبة السكانية فى احياء القاهرة فى تلك الفترة ، فهناك منازل كانت تضم مزيجاً من الاتراك والوطنيين ، وأخرى قاصرة على الاتراك وحدهم ، وثالثة تضم عناصر خليط من كافة عناصر الإقليات العرقية من الاتراك والشوام والارمن والشراكس والاكراد وربما الاوربيون فى احيان قليلة ، وهناك امثلة عديدة فى وثائق التعداد ، نذكر بعضها للتدليل على ما نقول ، ففى حى عابدين اقام احد كبار الضباط ويدعى حسين اغا ومعه زوجته - (من ابناء الموره) - وأولاده وجاريته فى منزل مملوك لاحدى السيدات التركيات ويضم هذا المنزل ايضا محمود اغا (أحد الضباط) وهو من أبناء الموره ويدعى محمود المورلى واحمد أغا المورلى ويعمل موظفا كبيرا واحد الشوام ويعمل (بائع دخان) واحد اهالى مديرية المنيا (١) ٠

وفى حى قيسون كانت توجد منازل تقيم فيها عناصر تركية بارزة الى جانبها اقليات عرقية من جنسيات مختلفة منهم الارمن والشوام ، ففى سوق السلاح منازل موقوفة يسكنها اغوات بيرون وغلمان الباشا وعساكر اتراك (قواصه) الى جانبهم الخواجه يعقوب (صراف ارمنى) واحد الشوام وأحد الهنود واحد أهالى مكة وعدد آخر من الوطنيين (٢) ٠

اما فى حى درب الجماميز فقد اقامت فى منزل يوسف اغـــا (يوزبـاشى) بـالآلاى المحـافظين عناصـــر خليـــط من الأتـــراك والوطنيين (٣) .

والواقع ان المنازل التى كانت تضم هذه التركيبة الخليط من هذه العناصر كانت قليلة ، على حين كانت المنازل التى تضم عناصر تركية فقـط هـــى الغالبية فى هذه الاحياء ، ولكـن ليس هناك ما يدل على أنهم قد انعزلوا كما ذكرنا من قبل ، فلا توجد فواصل بين الاقليـــة التركية والاغلبية الوطنية تدعو اليها طبيعة دورهم القيادى او كونهم ارستقراطية منعزلة بدليل ما ذكرناه منذ قليل عن اقامة عناصر من الوطنيين فى منـــازل تضم اقليات عرقية من مختلف الاجناس ، والدليل على كثرة اعـــداد المنازل التى تضم عناصر تركية فقط ما جـــاء فى تعداد النفوس عام ١٨٤٨ ففى الاحياء التى يغلب تواجدهم فيها كانت شوارعها تحمل اسماؤهم فى بعض الاحيان او تكون قاصرة على سكانهم فى أحيان اخرى ، ففى حى قيسون كان يوجد درب الاغوات الاتراك وحارة المحتسب وعطفة ديوان الجهادية وعطفة طاهر اغـا ارناؤوط وعطفة اسماعيل بـــك ، وكانت تضم هذه الدروب والحوارى اغلبيـــة تركيـــة (٤) .

والمنازل التى كان يقيم فيها هؤلاء الاتراك وتكون سكناها قاصرة عليهم اما تكون مملوكة لهم او موقوفة واكثر هذه المنازل مملوكة لهم . والبعض منهم كان يمتلك العديد من المنازل فى هذه الاحياء ، وهـــم اما يقيمون فى هذه المنازل او خارجها ، على سبيل المثال المنـــازل العديدة المملوكة لكل من على بك برهان « مدير الجهادية » و حسين بـــك « شماشرجى ولى النعم » فى حين قيسون . وسليمان افنـــدى « ناظر عموم البصمخانات » وعثمان اغا البرديسى فى حى الدرب الأحمـــر (٥) .

وقد أقام عدد كبير من الاتراك فى المنازل الموقوفة ، ومعظم هذه العناصر من فقراء الاتراك حيث كانت هذه المنازل موقوفة لاعمال الخير وللانفاق من ريعها على الحرمين والمساجد الكبرى والاروقة والمكاتب وغيرها ويشرف عليها نظار يقومون بتحصيل الريع ، ومن ابرزهم الشيخ السادات ، الذى كان يعمل ناظرا على عدد كبير من المنازل الموقوفة من كبار الاثرياء فى حى قيسون وحى عابدين (٦) .

وفى الاحياء التركية بالقاهرة ايضا اقام دراويش الاتراك أو الصوفية فى تكية خاصة بهم فى عابدين تسمى « تكية دراويش الاتراك » كانت تضم آنذاك أسماء عديدة منها سليمان افندى بن خليل ، وباكير افندى بن حسين ، وسعد الله افندى وكان عدد من هؤلاء الاتراك قد انقطع فى داخل هذه التكية التى جعلت خلوة للعبادة وملاذا لفقراء الاتراك (٧) وكانت لهم تكية اخرى فى « حى قيسون » تسمى « تكية وقف السليمانية » تضم عددا كبيرا منهم ، من ابرزهم ابراهيم افندى - من اتراك استانبول - وابراهيم اغا وحسين اغا ومحمود اغا واحمد قبطان ومحمد جركس ومصطفى البغدادلى (٨) . والمعروف ان القاهرة كان بها فى ذلك الحين ثمان عشرة تكية موزعة فى كافة انحائها (٩) .

وكان فقراء الاتراك موزعين فى الاحياء التركية فى القاهرة ، وهم اكثر ميلاً للسكنى والاقامة مع الوطنيين ، واغلبهم من النازحين من الموره ، الذين قدموا فى عصر محمد على وعاملهم معاملة حسنة ، ولم يجدوا غضاضة فى العمل بمهن دنيا وخالطوا السكان واقاموا معهم علاقات اجتماعية واسعة ففى ربع رستم افندى - والربع اسم مكان يطلق على عدة منازل - فى حى عابدين ، على سبيل المثال ثمانية وثلاثون شخصا من ابناء الاتراك المورليين والمصريين والشوام ،

اغلبهم من ابناء الموره الذين يعملون فى اعمال متواضعة . كذلك فى ربع حسين بك طبوزاده اقام عـدد من غلمان الباشا (١٠) .

على حين أقام اثرياء الاتراك واغلبهم من القوليين - نسـبة الى قوله - فى منازل خاصة بهم فى نفس الاحياء ولم يقيموا أحيـاء خاصة بهم ، وهم من الذين تولوا مناصب الادارة والحـكم وكبـار الضباط ، وآخرون من اصحاب المعاشات الذين تدرجوا فى الوظائف أو خاضوا الحروب ، وبعض هذه المنازل كانت مهجورة ولكنها مملوكـة لهم ، ففى حى عابدين على سبيل المثال منازل عديدة مملوكة لورثة (محو بك) - وهو من أبرز الشخصيات التركية فى عصر محمـد على واحد قواده البارزين ، وهذه المنازل كانت مهجورة لا يسكنها احد (١١) وبعضها كان يضم جواريهم واتباعهم فقط اثناء غيابهم خارج القاهرة سواء فى عواصم المديريات او الاقاليم لأداء مهام موكولة اليهم من الباشا أو خارج مصر لنفس الغرض (١٢) .

والجدير بالذكر ان معظم هذه المنازل الخاصة باثرياء الاتـراك كانت قد آلت اليهم بعد عام ١٨١١ بمقتضى انعامات الباشا عليهـم ، فاقاموا بها ، بعد أن خلت من أمراء المماليك ، واصبحت ملكاً لهم ، ويذكر على مبارك « ان الباشا قد انعم ببيوت الامراء بما فيها عـلى على خواصه فسكنوها ، وجددوا فرشها مما نهبوه ، والبسوا النسـاء الخواتم مما سـلبوه » (١٣) .

وكان مدير الجهادية وحسين بك طبوزاده ومحو بك وحسين بك - شماشرجى الوالى » وسلمان افندى - ناظر مدرسة العمليات » وجوارى الباشا وأقرب خواصه قد حازوا بالفعل اكثر بيوت هؤلاء الامراء وجعلوها مأوى لهم (١٤) ففى شارع الصليبه من حى قيسون أعـداد كبيرة من منازل هؤلاء . منها منزل للسر عسكر وآخر للباشا « ولى النعـم » وغـيرها (١٥) .

وكانت المنازل الخاصة بأثرياء الاتراك فى اغلب الاحيان مكتظة باتباعهم من مختلف العناصر والعرقيات واكثرهم من غير المصريين بل كانت توجد بعض هذه المنازل التى اختصوا اتباعهم بها يسكنوها ، وهؤلاء الاتباع كانوا يحظون بمكانة اجتماعية مرموقة وكان الكثيرون منهم يمتلكون الجوارى (١٦) ٠

ولا شك ان بيوت الكثيرين من اثرياء هؤلاء الاتراك قد آلت الى هؤلاء الاتباع بعد وفاتهم وبعد ان اصبحوا ورثة لهم ، اذ ان النظام الاجتماعى كان يتيح هذه المزايا للجوارى والاتباع ، فكثير من المنازل فى الأحياء التركية كانت مسكونة بهم ، خصوصا النسوة الشركسيات اللاتى كن ينلن حظوة عند هؤلاء الاتراك ، وهناك امثلة عديدة على ذلك ٠ نذكر منها على سبيل المثال جلفدان هانم فى حى قيسون (١٧) ٠

ولا يكاد يخلو منزل من منازل هؤلاء الاتراك من وجود عناصر الرقيق والجوارى السودانيين والاحباش وفى بعض المنازل كانوا يزيدون عن عدد الاتراك انفسهم ٠ (١٨) وهذا يتمشى مع حقيقة كون هؤلاء الاتراك كانوا فى الغالب يعتبرون أنفسهم متميزين بأداء مهمة ولهم دور قيادى وان حرمانهم من وجود الجو العائلى كان يجعلهم باستمرار يقدمون على جعل بيوتهم مليئة بهذه العناصر المجلوبة من اسواق الرقيق ٠

والملاحظة الجديرة بالتنويه هى ان هؤلاء الاثرياء الاتراك على الرغم من ان اعدادهم كانت قليلة - طبعا - بالقياس للمصريين ، الا انهم حازوا اكثر المنازل وغدوا أصحاب املاك عقارية واسعة فى القاهرة وانهم قاموا بتأجير هذه المنازل للوطنيين (١٩) ٠ وكانوا قد حصلوا على هذه المنازل والعقارات من الباشا فى شكل انعامات او عينوا نظارا على المنازل الموقوفة لأعمال الخير ، ونادرا ما نجد منازل

مملوكة للمصريين فى هذه الاحياء التركية او عناصـــر تركية تقيم فى منازل مملوكة للمصريين (٢٠) . والعكس صحيح اذ ان هذه المنــازل المملوكة للاتراك كانت تضم فى أحيان كثيرة عناصر من الوطنيين الى جانب عناصر من الاقليات العرقية الاخرى (٢١) .

ففى الارباع - جمع ربع - وهى مجموعة المنازل المملوكة لأحــد الاشخاص كما ذكرنا ، كانت تقيم هذه الاقليات المتزجة بالوطنيين ، فربع حسين بك طبوزادة فى باب الخلق الذى كان يضم عام ١٨٤٨ نحو ٥١ شخصا كان بينهم غلمان ولى النعم وجميعهم من « ابناء الموره » فضــلاً عن اكثرية من الوطنيين ، وربع سليمان افندى التركى « ناظــر عموم البصمخانات » فى الدرب الاحمر كان يوجد ٣٣ شخصا اكثرهم من الوطنيين الى جانب عناصر اخرى من الاقليات العرقية (٢٢) .

وعلى هذا النحو يتبين لنــا ان الاقلية التركية من كبار مــلاك العقارات كانت تستحوذ على منازل عديدة فى الاحياء التركية ممــا جعل تأثيرها كبيرا فى القاهرة اذ انها جمعت الى جوار مكانة الصدارة التى تتبوأها لأنها تحتل مراكز القيادة فى الجيش والادارة ، تميزها بالثراء والتملك . ولاشك ان ذلك مما كان يدعم وضعها كأقلية فى مواجهة أغلبية من الوطنيين .

● ● ●

اعـــــدادهم :

وبالرغم من ذلك فقد لوحظ ان عدد هذه الاقليــة التركية آخــذ فى التضاؤل التدريجى فى مصــر فى القرن التاســـع عشــر ، فكثير من منازلهم - خصوصا الذين كانوا يوفدون منهم فى حروب خارجية الى بــلاد العرب والسودان والموره وغيرها تكاد تكون خالية ، فضلا عن ان المناطق التى كانوا ينزحون منها ، والتى تكلمنا عنها فى فصل سابق

لم تعـد ترسل الاعداد الكبيرة منهم كما كان يحدث من قبل ، ولم يبق منهم فى مصر سـوى هذه الاعداد القليلة التى تسجلها المصادر المختلفة المعاصرة وأهمها تعداد عام ١٨٤٨ وتعداد عام ١٨٧٠ والتى تشير الى أن أعدادهم كانت آخـذة فى التناقص دون شك (٢٣) . وتؤيد المصـادر الاخرى هذه الحقيقة فيشير تقرير « جون بورنج » الى ان عـدد الاتراك فى مصر لا يجاوز عشرين ألفا . كما يذكر « البارون دى بوالكمت » الى ان عددهم يتراوح بين عشرين الفا وثلاثين الفـا ، على حين يـذكر « كلوت بـك » أن اعدادهم لا تزيد عن اثنى عشر الفا (٢٤) .

وهذه المعلومات عن عدد الاتراك فى مصر فى القرن التاسـع عشر رغم ما يشوبها من غموض ونقص الا أن جميع المصادر تتفق على حقيقة تناقص اعدادهم بالتدريج بما يشبه دخولهم فى طور الانقراض . ولا شك ان العامل الاساسى وراء ذلك يرجع الى ان هجرتهم الى مصر اخـذت تضيق بشكل ملحوظ ، وتطالعنا وثائق ديـوان الخديوى ـ وهى التى يتضح منها اعـداد النازحين الى مصر ـ فى اواخر عصر محمـد على بهذه الحقيقة فى جلاء فلا نجـد فى هذه الوثائق ما يـدل على تشجيع هذا النزوح بل يتضح العكس اى الحرص على الحـد منه ، فضلا عن لجوء الحاكم الى التخلص من العناصر التى يتبين عدم ولائها أو ارتكابها للاخطاء عن طريق أبعادها اما بتسهيل عودتها الى البـلاد التى نزحوا منها أو نفيها الى خارج البلاد الى مناطق الأناضول (٢٥).

والواقع ان انفصال الاقلية العرقية التركية فى مصر فى القـرن التاسـع عشر عن مصادر جلب الاقليات العرقية وان ترتب عليه تناقص ملحوظ فى اعدادهم الا انـه لم يؤد الى زحزحتهم عن مكان الصدارة وتبوأ المناصب والرتب ولكن بـدا واضحا أن مصـير الاتراك كاقليـة عرقية فى مصر معلق فى خيط رفيع ، وان عملية تناقص اعدادهـم

التى لم يفطنوا الى خطورتها سوف تجعل مسألة وجودهم وزيادة نفوذهم - على الاقل فى المستقبل - مسألة شبه مستحيلة ، خصوصا اذا زاد حضور الوطنيين واقتربوا من تبوأ المناصب فى البلاد - والثابت ان هذه المسألة لم تحظ بأى اهتمام من جانبهم فى مصر منذ عصر محمد على ، على الرغم من انها لم تكن خافية ، فقد كانت الاسر التركية قليلة النسل والبعض منهم لا يعقب ذرية قط ، بالرغم من كونهم يعيشون فى وسط عدد كبير من الحريم ولا يعيش لهم اطفال الا نادرا (٢٦) .

وعدم انتباه الاتراك الى خطورة تناقص اعدادهم وانهم يمثلون اقلية ضئيلة جدا بالقياس الى المصريين امر طبيعى ، طالما لم يحدث تهديد لوضعهم الطبقى . ولم يكن يزعجهم من هذه الناحية سوى فقدانهم للجو الاجتماعى الأسرى المحيط بهم ، فتركيب العائلات التركية من اخلاط تضم العنصر التركى ، بالاضافة الى عناصر أخرى غير معروفة الانساب من مناطق عديدة بسبب ولعهم بالجوارى والاماء ممن لا تعرف اصولهن وعدم اكتراثهم بصلات النسب ، فأسماء الجوارى والاماء لا تنسب الى بيوت آبائهن فهن مجهولات النسب ، ناهيك عن اقبالهم على الزواج فى أحايين كثيرة - وهو مايثبته تركيب هذه العائلات - من اماء لهن أبناء من أزواج آخرين وولعهم باقتناء الاتباع ، كل تلك الأمور كانت تعكس حقيقة احساسهم بالحرمان من الجو الأسرى ولا تعكس احساسهم بأنهم أقلية .

والاسر التركية فى مصر رغم ضآلة اعدادها كان يتبعها آلاف المماليك ، وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر قدروا بنحو ألفين ، معظمهم من الشباب ، يعملون خدما وحراسا ، وكان هناك نحو ثلاثة آلاف من جوارى جورجيا وبلاد الجركس وغيرها (٢٧) . واستمر بقاء

هذه الاعداد عند هذه النسبة أو هذا الحد تقريباً حتى اواخر القـرن التاسع عشـر حيث قدروا بنحــو الفين على نحو ما يدلنا تعداد عام ١٨٧٠ . وقـد حرص الاتراك على اقتنـاء الجوارى والاتباع وصاروا من مستلزمات الحياة الاجتماعية التركية ودعامتها ، افلا يكاد يخلو بيت تركى منهم تقريبا (٢٨) .

وحَسْب الاتراك من هؤلاء الجوارى والاتباع أنهم موضـع ثقتهم وظنوا فيهم الولاء والاخلاص ، فبيوت الاتراك ـ وهى قليلة على نحو ما نعلم ـ كانت تضم من هؤلاء اتباعا أتوا فى سن الطفولة من المناطق التى جلبوا منها وتربوا فى هذه البيوت وكانوا عضدا لهؤلاء الاتراك ، الذين لم يكونوا فى حاجة الى الأغلبية من المصريين لا عن خشية فى الذوبان فيهم أو الاندماج معهم ـ على نحو ما أشرنا ـ ولكن لأنهم ارتضوا بالاندماج مع هذه العناصر المجلوبة وحدها وظلوا متمسكين بذلك .

وهكذا نرى ان الاتراك كانوا اقلية متميزة لا تزيـد عن بضـــعة آلاف ولكنها ظلت تحافظ على خصوصيتها ولا تخشى الذوبان أو الاندماج فى الاغلبية وتقوى نفسها بالتمسك بكونها أقلية يسندها وضع طبقى متمـيز .

تكوين الصفوة التركية :

بدأ خلق وبناء الصفوة التركية فى مصر فى القرن التاسع عشر على يـد محمد على ، فقد احتلت هذه المسألة حـيزا كبيرا من تفكيره ثـم تبعه خلفاؤه فى هـذا المجال ، تلك الصـفوة هى الارستقراطية المتكلمـة باللغة التركية وتتمثل فى اولئك الذين ارتقوا الى المناصب الحربيـــة والادارية والفنية ويستشعرون تميزهم الطبقي .

وهذه الصفوة ذات أصول عرقية متباينة يمثل الاتراك نواتها ، وعلى الرغم انها اتخذت اللغة التركية لسانا لها فانهـا انطبعـت فى سلوكها واسلوب معيشتها بالطابع العثمانى ، لذلك كانت تركية اللسان عثمانية لحمـاً ودماً ٠

والواقع ان أتراك مصر - كما سبق ان ذكرنا - كانوا عدة فـرق ينتمى بعضها الى آسيا وينتمى البعض الآخر الى أوروبا ٠ اما أتراك آسـيا ، فهم الذين يرجعون الى أصل أناضولى ، وهؤلاء احتفظـوا بالصفات المميزة لجنسهم ، فلم يطرأ عليهم تغيير ، ومنهم على ما جاء فى (الجبرتى) ، عناصر الدلاة - وكلمة دلاة جمـع دالى أو دينى - وهى كلمة تركية ، معناها - جـرىء لما عـرف عن هذه الفرقـة من الشجاعة والتهور ٠ وكان معظم رجالها من الاكـراد الذين اتخذهـم السلاطين حرسا خاصا لهم (٢٩) ٠

اما أتراك اوربا ، اى اتراك اليونان ومقدونيا ، فكانوا يمثلون الاغلبية فى مصر ، وهم منقسمون أيضا الى عـدة فـرق ، منهـم « الاسلامبولية » وهم أرقى الطوائف التركية ، ويمكن ان يضـاف اليهم أتراك الروملى وتراقيا ٠ وهناك فرع آخر من الاتراك وهم الارنؤود والالبانيون ، الذين وصفهم « كلوت بك » بأنهم جنس مستقل بذاته وذريته لاتمت الى الاتراك بحبل القرابة ، وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتـال (٣٠) ٠

وهذا الفرع الاخير من أتراك مصر كان يمثل الاغلبية بها ، وهـو الذى تنحدر منه أسرة محمد على ، الذى يعزى اليه انه أول من أهتم بخلق وبنـاء الارستقراطية التركية فى بداية القرن التاسع عشر ، ثـم

سعى خلفاؤه من بعده فى هذا السبيل . وقد عرف عن محمد على انه كان ينتقى رجاله بعناية فائقة ، فهو يجمعهم من العالم العثمانى الواسع آنئذ . فجمع البعض منهم أحداثا صغارا من المماليك والاحرار وسبى المورة او اللاجئين منها ، كما لحق بدولته كبارا تعلقوا به وجذبهم اليها شهرته وتعلق هو بهؤلاء الذين رآهم معتد آماله فى بناء دولته . ولم يتردد فى منحهم اعز ما لديه ويغدق عليهم العطايا والهبات لبلوغ غايته . ولا نبالغ ايضا اذا قلنا انه يعزى اليه ايضا أنه أول من اهتم بوضع تقاليد ومعايير لاختيار الصفوة فى مصر فى القرن التاسع عشر .

وأول ما يلفت الانتباه فى هذا الصدد ان محمد على بدأ من حيث انه لا يجد امامه غير الاقليات العرقية ذات الاصول المتباينة لكى ينتقى منها هذه الصفوة ، على اعتبار أن الأغلبية الوطنية لم تكن نطمح فى ذلك الحين الى تبوأ أية مناصب (٣١) . ويعبر عن ذلك بصراحة للسياسى الفرنسى ـ البارون دى بوالكمت ـ عام ١٨٣٣ بقوله : « اننى صرفت كل عنايتى الى اجتذاب ضباط من الترك ، مما اضطرنى الى أن أغترف من المعين الذى ينهل منه السلطان » (٣٢) .

والواقع ان محمد على حين أراد ان يبنى الصفوة التركية أخذ عن النظم العثمانية الأولى ضرورة ربطها بولى الامر ، ولما كان يريد ان تكون هذه الصفوة فعالة فقد سعى الى ان يحسن ويدقق فى اختيارها ويقدم المزايا لافرادها . ووثائق ديوان الخديوى تثبت ذلك ، وتوضح المحاولة الجادة التى قام بها لصناعة الولاء عند هذه الصفوة من عناصر الاقليات العرقية فى مصر .

واول الصعوبات التى واجهت محمد على فى هذا الصدد ، هى تباين الاجناس التى ينتمى أفراد هذه الصفوة اليها ، وما ينجم عن

هذا التباين من تعصب أدى الى خلق البغضاء والحزازات بينهما ٠ ولكى يقضى على ذلك قام بمحاولة ايجاد رباط مشترك بين هذه الاقليات عن طريق ربطها به شخصيا ، فاهتم بأدق تفاصيل حياة افرادها ففى عام ١٨٣٧ مثلاً طلب الى مامور ديوانه موافاته بعدد ووصف البيوت التى اشتراها لكبار قادة الجيش من الاميرالايات والقائمقاميات والبكباشية ، وتولى بنفسه إختيار زوجات لهم من بين معتوقاته (٣٣) ٠ واختيار محمد على على زوجات هذه الصفوة من بنات قصيرة وجواريه مدا يسهل عليه كثيرا صهرها وربطها به ربطا وثيقا ويضمن ولائها له ، فضلا عن انه بذلك خلق نظاما ابويا - ان صح التعبير - يتماشى مع طبيعة تباين هذه الاقليات وحقيقة انها تفتقد الى اية جذور محلية فى مصر ٠ ولكن هذه العلاقة الابوية كانت تقتضيه أن يأخذهم باللين احيانا وبالغلظة احيانا اخرى ٠ ففى مراسلاته الى مامور ديوانه يستخدم كلمات التاديب ضد المقصرين او المذنبين ولا يتردد مثلا فى عام ١٨٣٠ أن يطلب اليه ان يرسل ثمانية من كبار ضباطه الى ليمان الاسكندرية تاديبا وتربية لهم (٣٤)

وهؤلاء هم الذين انتقاهم محمد على من المماليك او الغلمان الصغار أخذهم منذ نعومة أظفارهم وتربوا فى كنفه ، وهم الذين حرموا لذة الجو الاجتماعى العائلى ونقلوا بغتة من بيئاتهم التى نشأوا فيها الى وسط اجتماعى لا تلحمهم باهله اية قرابة فأراد أن يعوضهم عن هذا الحرمان ٠

أما الاتراك الذين لحقوا بخدمته كبارا وهم الذين انجذبوا الى شهرته فقد كانوا يعملون فى فلكه ، وكان يعتبرهم ملك يمينه ، إذ إعتلوا مناصبهم بعد ترشيحه لهم ، واحتلوا مكانة متميزة عنده ، وهؤلاء فتحت امامهم ابواب الارستقراطية علي مصراعيها ولم يعاملهم

على أساس معاملة السيد للمسود بل جعلهم شركاء له وربط نجاحه بنجاحهم واستجلبهم بنفسه من ارجاء العالم العثمانى وغيره ، ولم يشترط الاسلام فيهم ، فقد جرى على استخدام غير المسلمين عند الحاجة ، ففى عام ١٨٢٤ مثلا استقدم من « جزيرة طاشيوز » فريقا من هؤلاء من الذين يعملون بتربية النحل للافادة بخبرتهم واجزل لهم العطاء (٣٥) وفى عام ١٨٣٢ وافق على جلب فريق من العسكريين من « بولونيا » للانخراط فى القيادة العسكرية ومنحهم مرتبات عالية وطلب اليهم جلب اسرهم معهم ووفر لهم الاقامة والاستقرار فى مصر (٣٦)

لكن محمد على فى سبيل تكوين الصفوة ، وهى ليست من اصحاب السيف فحسب كما راينا بل كانت تضم عناصر فنية لمواجهة التطورات الجديدة وتعقيداتها ، لا يتردد فى جمع افراد هذه الصفوة ويسدى اليها النصح الابوى ، اذا ما خرجت على الطريق المرسوم لها ، يقول فى خطابه اليهم عام ١٨٤٧ : « ما كنت لاسمح لنفسى ان تتحدث بما أودعته فى التقرير الآتى بيانه .. الا ان احوالكم وسلوككم اضطرانى الى هذا ، واضاف : « يعلم الناس كلهم أن تربة مصر صالحة للعمار والتقدم جدا ، اذا ما وجد الاتفاق والاتحاد فى الآراء والثبات فى العمل والاستقامة فى الافكار ، غير ان اختلاف القلوب يحول دون تحقيق هذه الامنية ، وانه يتراءى لى ويلوح - من سير الامور - ان خطتى وآرائى فى واد وخطط وآراء افراد أسرتى الذينيتولون الامور العامة وغيرهم من رجالى وعمالى الاخصاء فى واد آخر » (٣٧) .

والحق ان محمد على كان يرمى الى جعل أفراد اسرته نواة هذه الصفوة التركية ، وهذا امر طبيعى ، اذا ما ادركنا انه قرر ان يكون أبا لقواده ورجاله الآخرين ، ولكنه كان يدرك - على نحو ما رأينا - مدى الصعوبات التى سوف تواجهه من جراء ذلك ، لذلك كان قاسيا معهم كل القسوة وكان بذلك يريد أن يضرب المثل بهم أمام عناصر الاقليات

الاخرى ويلومهم على تقاعسهم وتضارب افكارهم فيقول فى خطابه اليهم عام ١٨٤٧ : « انه لا يجوز ان نكون فى وطن واحد وان يكون لنـــا مع ذلك آراء مختلفة وافكار متضاربة فى اعلاء شان ذلك الوطن الواحـــد ، والا فــلا يؤمل شيء من الرقى » (٣٨) .

والواقع ان محمد على لم يكن يقصد باختلاف الصفوة التركية معـــه فى الرأى أن يقضى على أسلوبهم المستقل فى التفكير وان يصبح حاكمـا مطلقا ولكنه كان يرى ضرورة ان تتخلص هذه الصفوة من تمسكها المطلق بمصالحها الذاتية وتبتعد عن أنانيتها من أجل المصلحة العامة ، وكان يرى انه لكى يتم ذلك يكون من خلال تكوين مجالس مشورة لكل شـــان من من الشئون العامة ، لذلك نشأت فى عهده عدة مجالس لا تقتصر مهمتها على الادارة فحسب ، بل كانت هيئات لها غرض آخر هو تكوين الصفوة من الرجال وتشجيعهم على التفكير المستقل » (٣٩) .

ولا شك ان هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها محمد عــلى تــدل على حنكته وبراعته وادراكه لاهمية أن يصبح كل فــرد فى هذه الصفوة زعيماً فى ذاته ويكون هو على رأس هؤلاء الزعماء ، كما تدل على حقيقة إدراكه لتباين أصول هذه الصفوة ألتى جمع أفرادها من مناطق شــتى ، ففى كل أوامره ما يدل على استيعاب لهذه الحقيقة ، فكان المعيار الوحيد الذى يحتكم اليه فى قبول أفراد هذه الصفوة هو نجاحهم فى تحقيق المهام الموكلة إليهم ، فلا يتردد فى اقصاء أى فرد منهم واحلال غـــيره ، دون النظر الى عرقيتــه ، اذا فشـــل فى آداء مهمتـــه ، فقـــد عـــزل طاغــلى أوغلى عام ١٨٣٦ - مثلا - وهو زعيم الجنـد غـير النظامية وأحــل غيره محله حين فشل فى آداء مهمته (٤٠) .

لم تكن خططه اذن تتأثر بالتعصب لجنس على جنس او أقلية عرقية من هذه الاقليات الموجودة فى مصر آنئذ على غيرها ، وانتفى عنده عنصر الوطن كمعيار وحيد لتقدير كفاية افراد هذه الاقليات العرقية ، بمعنى ان يكون مولد اى فرد فى وطن بعينه يقضى بحرمانه او حصوله على عمل ما ، وبذلك تصدى لمسألة الاقليات العرقية وما تثيره من بغضاء وحزازات بأن حدد - خدمة الوطن الذى تقيم عليه هذه العناصر - قبلة أمام الصفوة التركية ، فيضع شروطا لتولى المناصب العليا التى تستحوذ عليها هذه الصفوة لا يكون الجنس والانتماء لعرقية من بينها ، ففى مناسبة تعيين « الكولونيل نادر بك » عام ١٨٣٢ قائدا لتدريب السوارى (الفرسان) ، يتضح من مستندات نظارة الجهادية الدقة المتناهية والعناية الفائقة فى الاختيار دون النظر لاعتبار العرقية - او العنصرية فلا يعتنى بالنظر الا فى الخبرة والدراية والكفاية التى تثبتها المناورات الحربية ومعرفة اللغة التركية ، يقول تقرير نظارة الجهادية : « انه صار الابقاء على الكولونيل نادر لكونه قد أظهر مهارته اثناء الحرب وانه قد ترقى فى اثناء الحرب بين الروس وبولونيا الى رتبة ودرجة ميرميران وقبلها كان برتبة يوزباشى » (٤١) ·

وبالرغم من أنه نجح فى الحد من الحزازات والانقسامات الناجمة عن تباين الاجناس وتعدد العرقيات التى تتكون منها هذه الصفوة عن طريق المساواة بينها ، الا انه لم ينجح قط فى القضاء على نزعاتها القديمة الموروثة والتى انتقلت خلال السنوات الطويلة من الحكم التركى والتى تتمثل فى المدارة والمماشاة للحكم حتى اذا استشعروا القوة نزعوا الى الثورة والشغب · وربما كانت تلك صفة لازمة للاقليات الحاكمة على وجه العموم - والواقع ان محمد على كان يعى ذلك ، فلا يكاد يرى أن هناك خطرا يتهدد خططه حتى يبادر الى التهديد والوعيد وضرورة التزام العهود ، ففى كل اوامره الى القادة - وهم اهل الصفوة - ما يدل

على النصح والترغيب والترهيب وضرب الامثال ، واذا اقتضى الامر التنكيل وظل نوع العلاقة التى تربطه بهذه الصفوة من اصحاب المناصب العليا الحربية والادارية والفنية مرهونا بمدى نجاحه فى اختراع القيود ليبقى كل فرد من ابناء هذه الصفوة عند الحدود التى رسمها له ، فلا يسمح مثلا بان يطلب أحد عملاً غير الذى حدده له ، ولا يقبل منهم أدنى تراخ فى تحقيق الاهداف . ففى عام ١٨٣٦ حين طلب احد كبار الضباط الاتراك ويدعى « اسماعيل افندى » الا يسافر الى اليمن ويلتمس تعيينه مترجما فى ديوان الجهادية ، فإنه يأمر باستدعائه الى ديوان الجهادية وان يوقع عليه الجزاء ويضرب خمسمائة عصا ويسلم الى اليمن فورا (٤٢) . كما يرسل الى مأمور ديوانه بأن يختار رجلاً ذو بأس لمراقبة المراكب التى تنقل الغلال من اقاليم الصعيد وان ينزل بالمسئولين - من رجال الادارة - فى حالة تأخير وصول هذه الغلال العقاب الصارم فورا (٤٣) .

ولا شك ان الخصال التى كانت تتميز بها هذه الصفوة - والتى كان من بينها النزوع الى الثورة والشغب - جعلت محمد على يدقق الى حد كبير حين كان يقع اختياره على فرد منها لكى يضمه الى حظيرته فكان يضع القادة الذين جلبهم من مواطنهم تحت الاختبار ، وفى بعض الاحايين كان يعيدهم الى اماكن نزوحهم اذا تبين له عجزهم عن التحرك فى اتجاه خططه واهدافه ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ، نذكر منها الأوامر الصادرة فى عام ١٨٣١ برفت محمد نجيب الاستانلى واعادتهم الى الآستانة لهذا السبب ، وذلك بعد صرف مستحقاته المالية (٤٤) . ولكنه حين كان يتأكد من رجوع أحدهم عن عناده يأمر بإعادته الى منصبه ، ففى عام ١٨٣٧ أعاد نورى بك الى منصبه « بعد أن جاء الى مصر تائباً ومتعهدا بأداء الخدمة وبالصداقة وفي دائرة رضا جنابه العالي » (٤٥) .

والواقع ان محمد على فى اطار تكوينه هذه الصفوة ، انشغل بمسالة على درجة كبيرة من الأهمية هى تشبث عناصر هذه الصفوة بتقديم ولائها للافراد ، وبكلمات اخرى ان الفرد فى هذه الصفوة درج على العمل فى اطار الولاء لفرد أقوى لا لنظام او دولة ، وهى امور متوارثة ، فقبل عهده كان شائعا التفاف الجنود مثلا حول البكوات المماليك والاتراك والالبانيين دون ان يكون هناك ما يكبح جماحهم أو يلزمهم حدود النظام ، وقس على ذلك اوجه النشاط الاخرى ، فبنى على ذلك اعطاء الولاء والتبعية للافراد لا لنظام بعينه · وقد حاول الباشا ان يخفف من هذه النزعة القديمة ، ومر فى ذلك بمرحلتين أساسيتين : الاولى هى التى تمكن فى نهايتها من القضاء على هؤلاء البكوات القدامى عام ١٨١١ بمذبحة القلعة الشهيرة ، والثانية ، هى التى حاول عن طريقها صهر هذه العناصر فى شخصه ، ولئن كان قد نجح فى المرحلة الاولى فى التخلص من البكوات المماليك ، فانه ظل يعتمد بعد ذلك فى بناء الصفوة التركية على عناصر من المماليك التى كان يستجلبها من مواطن رأسها ، ولكنه لم يكن يقبلها قبل ان يخضعها لاختباره ويتاكد من انها لن تكون عقبة امامه · يذكر الجنرال (فيجان) فى مجال حديثه عن هؤلاء « انه بدأ بأعداد ضباط اختارهم طوعا أو كرها من بين أفراد أسرته ومماليكه ثم جاء لهم بالمعلمين والمدربين » (٤٦) لذلك ظل هناك حتى عام ١٨٢٥ حوالى ثمانية آلاف من الآسيويين منهم يؤلفون جموعا لا نظام لها ، كل منها خمسمائة رجل وعلى رأس كل جماعة منهم قائد برتبة بك تجدد له مدة التحاقه بخدمة الباشا ، ولكل من تلك الجماعات امتيازاتها المستنده الى مالها من طول الاستعمال ، تؤمر فتطيع بشرط ان يسار بها الى النصر (٤٧) · ويذكر بوابيه ـ احد الجنرالات الفرنسيين المعاصرين ـ عام ١٨٢٥ ايضا ، « ان كل واحد من هؤلاء كان ذو مكانة بمصر وله فى بيته

من الارقـــاء البيض الذين يركبون الجيـــاد على غـــرار المماليـــك الاقدمين » (٤٨) ٠

والحق ان محمد على لم يكن يطمح الى القضاء على تشبث هذه العناصر بهذه النزعة الموروثة فى تقديم تبعيتها وولائها للاشخاص على وجه العموم ، بل كان يرى ضرورة بقائها لكى تكون ساعده الأيمـــن فى تحقيق اهدافه ويشترط ان لا تشـــرد عن جادة الطاعة والانقيـــاد ٠ معنى هذا انه كان مضطرا الى الابقـــاء على ظاهرة تكوين ولاء هذه الصفوة حول الاشخاص على ان يكون هو الراعى ، لهذا افتقدت هذه الصفوة التركية المملوكة ما يسمى بالعقل الجمعى وسادت بينها عقلية الاتباع ، مما جعلها فى النهاية تفتقد الى الوحدة وظل محمـد عـلى يمثل بالنسبة لهـــا القمة التى تحسم عندها كافة الأمور ٠ وبالتالى حلت فكرة الراعى الصالح او ما اطلقنا عليه النظام الابوى ، واصبح الوصول الى موقع الصفوة يعتمد على الاسلوب الشخصى والعلاقات بين الراعى وتابعيه من المماليك والاتـــراك ٠ ولا يمرون من خـــلال قنوات محددة تحكم عملية وصولهم الى المناصب العليا ٠ والدليل على ذلك وثائق ديوان الخديوى التى تبين فى جلاء ان كافة عناصر هذه الصفوة من الاقليات العرقية التركية المملوكة حصلت على مناصبها بعد موافقة الباشا شخصيا (٤٩) ٠

وقد نجـــأ محمد على ايضا فى سياق بناء هــذه الصـــفوة الى العناية بتعليم وتدريب أفرادها فلم يبخل عليهم بشىء فى سبيل ذلك ، لأنه كان يرى ان الولاء الشخصى له لابـــد ان يدعمه التجربة والدراية وضرب المثل بنواة هذه الصفوة من افراد أسـرته ٠ وضم اليهم من رأى

فيهم نجابة ، وكانت لهفته على تتبع أخبار أفرادها ظـاهر للعيـان ، فيرسل فى التشديد بالعناية بهم وضرورة السهر من اجـل تثقيفهـم وتربيتهم وانزلهم فى أعلى مكانة • ففى عـام ١٨٣٤ أرسل تكليفـا الى (أرتين افندى) بالبحث والتحرى عن الكتب اللازمة لتعليم نجـله سـعيد باشا وان يرسلها فوراً الى مصر مع الكتب التى تـم ترجمتها • وكان معظم هذه الكتب يتناول كل ما لـه علاقة بأصول التدريب فى الجيش والادارة (٥٠) • واعتنى بمدرسة الخانكة التى كانت تضـم الامراء والافندية الاتراك وكفل كل الذين سافروا من « أولاد الذوات » الى اوربا مع ابناء العائلة الخديوية فأغـدق عليهـم الكثير من انعاماته (٥١) •

وفى عامى ١٨٣٧ و ١٨٣٨ قام باكبر اجراء يستهدف شراء إخلاصهم المطلق لـه ، وذلك عن طريق اجزال العطاء لهم بالارزاق السخية فى صورة منح ـ اراضى الرزق ـ أى المعفاة من الضرائب ـ وتحتوى وثائق ديوان الخديوى تفاصيل كثيرة عن أوامر صادرة منه شخصيا بالانعام على شخصيات من هذه الصفوة من أصحاب المناصب الحربية والادارية والمالية بأطيـان زراعيـة تتراوح مسـاحاتها بين ٥٠ و ٣٠٠٠ فـدان للفـرد الواحد (٥٢) فاعطى بذلك لهذه الصفوة ضمانا من الثروة المادية وجعل ملكية الارض تمثل أساسا من الاسس التى تساهم فى بناء وتكوين هذه الصفوة •

أمـر آخر لجـأ اليه محمد على فى تكوين هذه الصفوة هو أنـه الى جانب اخضاعها لأختيـاره الشخصى فإنه تـرك أيضـا لأعلى الشخصيات المقربة اليه فحص افراد هذه الصفوة والتدقيق فى ذلـك ، وأسند هذه المهمة الى اكفـأ الشخصيات فى عهده أمثال حبيب افندى وعبـدى بك ومختار بك (٥٣) وهؤلاء جمعوا بين كونهم محل ثقته أنهم ذوى كفاءة عالية ، فعبدى بك ومختار بك مثـلا كانا عـلى رأس

النابغين من طلاب البعثة الاولى الى الخارج (١٨٢٧ - ١٨٣٣) وتولى كليهما متعاقبين رئاسة مجلس الحكومة (٥٣) والواقع أن هـذا الاسلوب جعل محمد على ينجح فى بسط يـده على جميع أفراد هذه الصفوة ، فقد كانت هذه الشخصيات المقربة اليه عقد الواسطة بينه وبين افـراد الصفوة البعيدين عنه ، مما جعله فى النهاية قادراً على حشـد هذه الصفوة لتنفيذ الاغراض التى يرمى اليهـا ·

والامر الذى لاشك فيه ان هذه الصفوة التركية بالرغم من اختلاف نوعياتها العرقية أو الدينية وكونها تبدو غير متجانسة ، أنها تمثـل كتلة غير متمايزة ظهرت فى شكل شلل متغيرة وتجمعها قائم على أساس المهنة وليس على أساس الجنس او الدين · توضيح ذلك انه كانـت توجد بين هذه الصفوة وابناء البلاد فواصل شديدة ولكنها كانت من طبيعة الفواصل التى تقوم بين الصناع والزراع واصحاب المهن الحـرة من ناحية واهل الدولة - اى رجال الصفوة من ناحية أخـرى · ولمـا كان أصحاب هذه الصفوة مهنتهم الحكم وصناعة السلاح فان هـذه المهنة تثير فيمن يشتغل بها عـادة روح الأنفة والاستعلاء والاستهانـة بالغير · والحق ان محمد على كان يشجع ذلك لا عن تعصـب لهذه الصفوة ولكن لانه كان يرى ان التركى أصلح للحرب والقيـادة ، اذ يشعر بانه انما خلق ليحكم ، ويحس ابن العرب فى حضرته ان التركى احـق بالقيـادة (٥٥) ·

والواقع أن ذلك كان يجعله موصولا دائما برضاء استانبول عليه ، فالرجل كان يعرف انه من كبار موظفى السلطنة ، وانه بامكانه عن طريق هذه الصفوة أن يصل الى اعلى مناصب السلطنة ، لذلك جعـل من مصر ملتقى لأبرز رجالات الحكم فى استانبول وكان كثير الضيافة

لهم وينزلهم منزلا كريماً مما جعل نجمه يرتفع فى سماء استانبول وجعل مصر تتحول الى حصن متميز يجتذب اليه عناصر من خيرة رجال الاتراك الذين كونوا هذه الصفوة (٥٦) ٠

صحيح انه قاد برجال هذه الصفوة حروبه فى أراضى الشام عام ١٨٣٢ وظل يتوسع الى ان قارب استانبول ذاتها ، الا انه لم يتزحزح قط عن ايمانه بضرورة توثيق العلاقة بين الصفوة التركية التى كان يكونها فى مصر وجذورها الضاربة فى استانبول ، فقد كان من المعروف ان الأمراء الاتراك فى مصر يطمحون للوصول الى أرفع المراكز فى استانبول بعد ان يصبحوا اثرياء فى مصر ٠

وهكذا نرى ان الصفوة التركية فى مصر جمعت بين ولائين متساويين هما : ولاؤها لمحمد على من ناحية وولاؤها لاستانبول من ناحية اخرى ٠ والولاء الاول كان من النوع الذى يربط بين أصحاب المصلحة الواحدة ٠ اما الولاء الثانى فكان من نوع الولاء للوطن الاصلى وهذا يفسر لنا لماذا لم تقطع الصفوة التركية فى مصر علاقاتها بتركيا طوال عصر محمد على وبعده ٠

وازداد اتجاه الصفوة التركية فى مصر الى توثيق علاقاتها باستنبول فى فترة حكم عباس الاول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) بالرغم من ان تسوية لندن فى يوليو عام ١٨٤٠ والاتفاقيات التى اعقبتها حددت وضع مصر وميزتها بأن جعلت الحكم فيها وراثياً فى اسرة محمد على ، وكان ذلك مما يشجع هذه الصفوة على توهين علاقاتها باستانبول ٠ ولكن فيما يبدو أن سياسة الحذر من أوربا التى أمعن عباس الأول فى اتخاذها جعلت هذه الصفوة ترى انه لزاما عليها ان تحتمى بجذورها الاصلية فى تركيا ولم تتخل عن صفاتها التى تكونت فى عهد محمد على ، وهى صفات كانت تجعلها عثمانية لحما ودما ٠ فقد كان عباس

الاول يؤمن بأن مصر ليست سوى ولاية صغيرة تابعة للدولة العثمانية (٥٧) ٠

وهذه النظرة هى التى ميزت عباس الأول بتاثير من تربيته العثمانية ، اذ المعروف عنه أنه الوحيد من ابناء محمد على واحفاده الذى لم يتنق تعليماً عصرياً ولم يتم بزيارة أوربا ٠ بل كانت استانبول معقل تكوينه ، لذلك بادر بالذهاب اليها فى ديسمبر عام ١٨٤٨ فور توليه الحكم ليتسلم فرمان وخلعة التولية من الباب العالى بصفته الشخصية (٥٨) ٠

ولاشك أن ذلك انعكس على اسلوب تكوين الصفوة التركية فى عصره فالرجل جعل استانبول مصدر كل شىء وأعلى من مكانتها ، اى انه اتخذ موقفا منحازا ، على حين تراجعت العناصر التى تلقت تعليمها فى أوربا من ابناء هذه الصفوة الى حد ما عن مكانتها ٠ ودب خلاف بين انصار كلا التيارين فى الصفوة التركية ٠ وهما التياران اللذان أسفر عنهما كفاح محمد على باشا طيلة سنوات حكمه ، التيار الاول الذى يمكن ان نطلق عليه التيار العثمانى ، الذى يتزعمه عباس الاول ٠ والتيار الثانى الذى يمكن ان نطلق عليه التيار المتأثر بأوربا بفعل تكوينه الثقافى ٠

وهكذا اخذت تقاليد تكوين الصفوة التى سعى الى تثبيتها محمد على فى الانهيار وحلت محلها اسباب الصراع بين العناصر التى سعى محمد على الى جعلها تدور فى فلكه ، ودب الخلاف لاول مرة داخل نواة الصفوة التركية وهى أسرة محمد على ذاتها ٠ ففرع ابراهيم باشا كان يأمل فى استبدال الحكم لصالحه وتعلقت آماله بالأمير أحمد اكبر ابناء هذا الفرع ، فضلا عن انه قيل وقتئذ ان عباس ذاته استولى على الجزء الاكبر من ثروة محمد على الخاصة

وعلى مجوهرات بناته مما دفع اعضاء الاسرة الحاكمة فى مصر الى الشكوى الى استانبول (٥٩) ٠

وكان داخل افراد الاسرة الحاكمة - نواة الصفوة التركية ذاتها - كلا التيارين فهناك أمراء ذوى نزعة الى الغرب خصوصا فرنسا ، كانوا يؤازرون اغلبية عناصر الصفوة التركية من الموظفين الاتراك الذين تعرضوا للفصل من الخدمة فى الحكومة فى عهد عباس الأول ، وبعد ان اثارتهم اجراءاته ٠ وهناك امراء عثمانيون كانوا يؤازرون عباس الأول فى اجراءاته وفى نظرته الى استانبول (٦٠) ٠

والواقع ان تاريخ هذه الاسرة من ابناء محمد على حتى قبيل سقوط اسماعيل فى عام ١٨٧٩ هو تاريخ جهود افرادها من اجل تثبيت أقدامهم ومحاولة كل فرع من فروعها الاستحواذ على حق الوراثة ٠ فقد عزز عباس مساعدته لتركيا فى حرب القرم وخطب ابنة السلطان عبد المجيد لابنه الهامى ، كما طلب من الباب العالى ان يمنحه لقب « العزيز » واتسعت آماله فى تعديل نظام او وراثة العرش فى مصر لمصلحة ابنه الهامى ٠ وكذلك فعل سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) الذى كان يطمح الى تعديل نظام وراثة العرش لمصلحة ابنه طوسون (٦١) ٠

انفرط اذن عقد تقاليد تكوين الصفوة التركية الذى صنعه محمد على فى عهد خلفائه ، فلم يكن أحد منهم يدانيه كفاءة ومقدرة فاحاط بكل من عباس وسعيد نفر من المؤيدين أخذوا مكانة أعلى مما كانت عليه أقرانهم من الاتراك السابقين فى المرحلة الاولى من تكوين الصفوة ٠ ولم يكن ذلك لأنهم يتمتعون بمزايا أفضل من سابقيهم ولكنها - فيما يبدو - أطوار اى نخبة بجوار حاكم قوى يتضخم دورها حين تجد الفرصة - بتأثير من ضعف أسلافه - وهى التى سنحت

فى أعقاب وفاة محمد على وربما لأن ارتباط هذه الصفوة الوثيق بـه شخصيا لم يعـد هناك ما يماثله فى عهـد خلفائه (٦٢) ٠ ولكن هذه الصفوة اكتسبت ميزة هى نجاحها فى أن تتكيف مع الاوضاع فى كلا العهدين وان تقيم تحالفها على أساس شخصى ـ كما كان فى عصر محمد على ، مع فارق اساسى هو ان تحالفاتها فى عصر محمد على كانت تقوم على اساس الدوران فى فلكه (علاقة الأب بابنائه) ، على حين أدت هذه التحالفات فى الحالة الثانية الى الانقسام وتميزت بعـدم الاستقرار حيث لم تعد هناك عـلاقة من نفس نوع عـلاقة محمد على بافراد هذه النخبة ومع ذلك ظلت خاصية تبعيـة هذه النخبة للحاكم مستمرة ولكن فى شكل جديد : ففى كل مرة كـان يحشد سواء عباس او سعيد وراءه الاتباع من افراد هذه الصفوة بغية الاحتفاظ بالحكم فى الفرع الذى ينحدر منه فى أسرة محمد على بغض النظر عما قررته تسوية لنـدن فى هذا الصدد ، كما اشرنا منذ قليل ، وغدت مسألة الاحتفاظ بالحكم هى المحور الذى تدور حوله طموحات الفرقاء فى هذه الصفوة ٠ ولم يكن ظهور « الصفوة الوطنية » فى عصر سعيد باشا اذن صدفة ، ففد وفرت لهـا الانقسـامات وعـدم الاستقرار فى تكوين الصفوة التركيـة فرصـة التسرب من كل ثغـرة ، وشجع على ذلك اتجاهات سعيد باشا ذاته ، فقد اتخذ كما يقـول صبحى وحيده : « لهجة قومية لا عهد لأحد من الحكام بها فى مصر من قبـل » (٦٣) ٠

هذا بالاضافة الى ان « الصفوة الوطنية » التى أخـذت فـى الظهور بشكل اكبر فى عصر سعيد باشا ، ثم بعد ذلك فى عصـر اسماعيل وتوفيق لم تشكل نسيجاً فى الصفوة التركية قـط ولكنها كانت تعبيرا عن واقع جديد هو بداية تضاؤل الدور الذى تلعبه الصـفوة التركية على الأقل من الناحية الظـاهرية فقـد كان الاتراك لا زالوا يهيمنون ولهم مهابة نافذة عند الوطنيين ، الا ان ما ينبغى التنويه

اليه هو أن الصفوة الوطنية حملت فى ثنايا ومراحل وتضاعيف تكوينها نفس السمات التى ميزت الصفوة التركية من انقسام وعدم استقرار وتابعية ، بمعنى أن يعمل الفرد فيها فى خدمة فرد آخر اقوى ، وكذلك التشبث بالاتجاه الفردى ، فلم تتكون من بينها جماعات منظمة ، وترسخ الولاء الأسرى أو العائلى للافراد من هذه الصفوة الجديدة (٦٤) وربما كان ذلك وراء بقاء الصفوة التركية حتى فترة متاخرة من القرن التاسع عشر تحتل مكانة قوية ، بالرغم من أنها على - نحو ما رأينا كانت تواجه منذ نهاية عصر محمدعلى مشاكل كثيرة بغياب محمد على صاحب الفضل فى بنائها . والذى ميز الصفوة الوطنية عن مثيلاتها التركية هو ان الاولى كانت ذات جذور محلية ضاربة ، على حين كانت الثانية تفتقد هذه الخاصية ، مما جعل الأولى بالرغم من حملها نفس السمات التى تحملها الثانية الا أنها بحكم ارتكازها على أصولها الوطنية البحتة تتمكن من فتح ثقب فى جدار الثانية ، ولو انها ظلت تمثل أقلية هى الأخرى بالنسبة للأغلبية ، فهى عبارة عن مجموعة من الأسر والعائلات التى احتكرت المناصب العليا الحربية والادارية والفنية التى اتاحتها فرصة ظهورها الى جانب الصفوة التركية . والواقع ان هذه القلة من الأسر والعائلات هى التى أخذت تمارس نفس الهيمنة التى كانت تمارسها الصفوة التركية بعد أن تضاءل دور الأخيرة فى بداية القرن العشرين . وتوثقت العائلات والروابط بين هذه الأسر - بعد أن حاولت فى بداية تكوينها أن تقترب من الصفوة التركية عن طريق المصاهرة الأسرية . وظل دور الاسرة بذلك هو أساس الصعود الى سلم الصفوة كبديل عن التقاليد التى سعى محمد على لتأصيلها من أجل خلق وبناء صفوة تركية اللسان عثمانية لحما ودما التى تناولناها تفصيلا .

البيروقراطية التركيـة :

تكون الجهاز الحكومى الوظيفى البيروقراطى فى مصـــر فى القرن التاسع عشر من عناصر الصفوة التركية وتمتع افراده بنفـس المكانة الرفيعة ، بمعنى أن الموظفين الاتراك كانوا يمثلون أحد أجنحة الصفوة التركية الذين احتكروا الوظائف العليا ، ممـا جعـل الترتيب الوظيفى ـ قبل كل شىء ـ تركيا سواء فى مصطلحاته أو فى أشخاصه الممثلين لـه (٦٥) ٠

وقد مارس الموظفون الاتراك فى مصر فى الدواوين التى التحقوا بهـا نفس الاساليب التى مارسها رجال الحكم والادارة ، بمعنى أنهم مارسوا دورهم كموظفين بمفهوم رجال السلطة والحكم وهو دور قائم على التسلط ٠ ومع قلة خبرتهم وكفاءتهم الا أنهم اعتلوا أرفع المناصب الوظيفية فى الدواوين على الرغم من أن الأقباط كانوا يتميزون عنهـم بالكفاءة ومع ذلك لم يتعد ترقيهم فى الجهاز الوظيفى حدودا معينة مما جعل هذه الفترة تشهد تزايد نفوذ الأقلية العرقية فى الجهاز الوظيفى على الأغلبية من الاقباط ، وبالتالى انفراد اللغة التركية بالصدارة فى الدواوين الحكومية بحيث اصبحت لغة الجهاز الوظيفى البيروقراطى كله كمـــا أصبحت لغة الادارة العامة فى مصـــر فى القرن التاســـع عشر (٦٦) ٠

على ان أهم ما يلفت الانتباه هـــو اســـتمرار نفس الاساليب البيروقراطية المتوارثة فى أوساط فئة الموظفين الاتراك ، وهم الذين تميزوا بالقدرة الفائقة على اخضاع مرؤسيهم بالقسوة والشدة والكبرياء والغـرور ، معنى هذا ان البيروقراطية التركية فى القرن التاســـع عشر كانت متاثرة بالطرق السائدة فى الجهاز الوظيفى فى مصـــر قبلهم والتى تمتد الى أزمنة بعيـدة ، والتى تعبر عن حقيقـة أساسـية

فى تاريخ البيروقراطية فى مصر بان الجهاز الوظيفى دائمـا آداة طيعـة فى يـد الحكومات المتعـاقبة أكثـر من أى شىء آخـر فقـد ارتكزت علاقة محمد على - مثلا - بهذا الجهاز على أساس الترغيب والترهيب كوسيلة بينهما ، فلا يكاد يخلو أمر من أوامر الباشـا الى أحـد النظار الاتراك - وهم رؤساء الدواوين والمصالح المختلفة - من التهديد والوعيد فى حالة حدوث أى تقصير او الأمل والرجـاء فى حالة تنفيذ الاوامر على وجه الدقة ، فيذكر محمد على فى أحـد أوامـره الى أمين جمرك مصر عام ١٨٣٤ « أننى لا أخشى أن يعـدم احـد المنسوبين الى عائلتى فى سبيل اسعاد مصر » . كما يذكر فى أحد أوامره الى عثمان بك عام ١٨٤٣ « اننى سوف أنزل العقاب بأقرب الناس الى اذا خرجوا عن مقتضيات أعمالهم الوظيفية (٦٧) .

وبالاضافة الى ان الموظفين الاتراك فى الدواوين والمصالح انئذ - وان كانوا ينتمون الى أهل الصفوة - الا انهم اتصفوا أيضا بكل صفات الموظف الحكومى التقليدى مع بعض الاختلافات ، فقد وصف (جون باورنج) الكاتب الانجليزى المعاصر تقاليد البيروقراطية فى الدواوين عـام ١٨٣٩ ، بقوله : « ان الأعمال العامة فى مصر كما هى فى بلاد الشرق تؤدى فى « ديوان » أو مجلس يرأسه موظف كبير فتفتح الرسائل وتقرأ وتملى الاجابات على الكتبة المحيطين بالرئيس - وهم بلا استثناء من الاقباط - وفى بعض الاحيان يحدث نقاش وتؤخذ آراء الحاضرين فى الاعتبار ولكن يعطى الاعتبار الاول لرأى الرئيس فى كل مـرة بلا استثنـاء . ويسود نوع من العلانية هذه المناقشـات ويواظـب المستمعون والمشاهدون على الحضور ولو أن كثيرا منهم لا يهتمـون بالموضوعات التى تبحث » (٦٨) .

ووجه اختلاف البيروقراطية التركية فى مصر عن سـابقتها آنئـذ يتمثل في أنها قد تسلط عليها الشعور بالتميز العرقى وسـاد بين

أفرادها اعتقاد مؤداه انهم سادة وأنهم أرقى الأجناس وأن على الآخرين اطاعتهم وخدمتهم وكفالة أسباب الترف لهم ، فمارسوا أعمالهم الوظيفية فى الدواوين الحكومية بهذا الاسلوب الذى خلق بينهم وبين مرؤسيهم الاقباط المصريين جفوة واقام ساترا أحال بينهم وبين استعدادهم للتطور فى مجال الوظائف فكان كل مايعنيهم التملق لمن هم اكبر منهم مكانة وابداء الكبرياء لمن هم دونهم ، لذلك ظلوا يمارسون اعمالهم الوظيفية بشكل مظهرى بحت ، فمما يلاحظ على الموظف التركى فى ديوانه ايهام مرؤسيه بالجد والعظمة فلا يتكلم الا قليلا ويتظاهر بعدم فهم الرسالات الواردة اليه من الوالى بغرض التهرب من الاتهام بالتقصير • والواقع ان ذلك لم يكن سوى صدى للأمية التى كانت منتشرة بين صفوف الموظفين الاتراك ، اذ كان من المعروف أن هناك تسامح فى تعيين الجهلة والاميين من الاتراك فى شتى الوظائف ، حتى الرئيسية المرموقة منها ، ويذكر الامير عمر طوسون « انه لم يكن من بين ضباط « برنجى الآى سوارى غارديا - ومعناها الالاى اول من الحرس الخيالة - فى عام ١٨٤٨ من يعرف القراءة والكتابة ، فقد كانوا جميعا من الاتراك الأميين » (٦٩) • ولم يكن ذلك ايضا سوى ترجيح لفكرة أهل الثقة على أهل الخبرة التى ظلت موجودة طوال القرن التاسع عشر ، ومما يدل على ذلك انه لم تكن تعرف حدود للتخصص الوظيفى سواء فى مجال الوظائف المدنية أو الحربية ولم تكن هناك قاعدة مطردة فى هذا الشأن فكثيرا ما استخدمت الحكومات أشخاصا فى غير الوظائف التى تناسب معلوماتهم ومن الامثلة على ذلك ان يعمل الطبيب كاتبا والمهندس يعين مفتشا • وهكذا (٧٠) •

وكان ذلك تعبيرا عن حقيقة أساسية هى أن محمد على يسعى جاهدا الى إرساء قاعدة هامة هى ضرورة الولاء والطاعة له شخصيا ، فكان يلزم موظفيه الاتراك بالمحافظة على مراسم العبودية له ، والا

استحلوا نقمته ، فقد جاء فى قانون « الدياستنامة » الصادر فى ربيع الاول سنة ١٢٥٣هـ / يوليو ١٨٣٧م : « فاذا كان المستخدمون بالمصالح الاميرية من كبار وصغار لم يوفوا حكم اللوايح والقوانين كما هو واجب عليهم ، أو يفعلوا شيئا مخالفا للشرف الانسانى أو لشروط العبودية ، فيلزم أن يجازوا بجزاهم اللايق بهم ، لأجل أن يكون تأديبا وعبرة لغيرهم » (٧١) ٠

وهذا يبين التاثير الكبير للحاكم على الجهاز الوظيفى وأن المكانة التى يتمتع بها هذا الجهاز مستمدة من السلطة السياسية للحاكم ، بمعنى أن الحكومة فى مصر فى القرن التاسع عشر كانت هى المصدر الاكبر للبيرقراطية التركية ، لذلك جاءت الوظائف العليا فى الدواوين متمشية مع هذه الحقيقة ، فكبار الموظفين من الاتراك كانوا ينتمون الى طبقة اجتماعية اقتصادية عالية فى الغالب ، وهناك أسماء تركية بارزة فى عصر محمد على وخلفائه من الموظفين ، منها : حبيب أفندى وزكى أفندى وسامى بك وأحمد باشا المنكلى وغيرهم (٧٢) ٠

فضلا عن أن هذا الوضع الذى تميز به الجهاز البيروقراطى جعل مكانة الموظف الاقتصادية ترتفع باستمرار بخلاف ما كان عليه الحال فى الغرب ، فالموظف فى الغرب يستمد قوته من قوة اقتصادية خاصة لا تكون فى العادة مستندة على الحكومة على حين نجد ان الموظف التركى كان يستمد قوته من طبيعة صلته المباشرة بالحكم ذاته ، فالموظفون الاتراك - عبيد - وعليهم المحافظة على واجب العبودية ، وهى العبودية المستمدة من السلطة الابوية - التى اشرنا اليها قبلا بالتفصيل حين كنا نتكلم عن الصفوة - ومما يدل على ذلك كافة الرسائل الديوانية الى (ديوان الخديوى) الذى هو أعلى سلطة ديوانية وظيفية آنئذ ، فلا تكاد تخلو رسالة من استعمال الفاظ تدل على سيادة هذه الروح بين الموظفين الاتراك فى الدواوين المختلفة (٧٣) ٠

وترتب على هذا الوضع وهذه المكانة المتميزة التى يتمتع بهـــا الموظف التركى أن اصبح هو ذاته تعبيرا عن الحكومة امام الاهالى اكثر مما هو تعبير عن قوة اقتصادية خاصة ، والواقع انه استغل هذا الوضع لصالحه بسبب انتشار الجهل وعدم الثقة بالنفس بين الاهالى ، فتحولت الوظائف عند الاتراك الى وسيلة للثراء كما هى آداة حكومية طيعـة فى ذات الوقت ، فقد حصل كبار الموظفين الاتراك فى عام ١٨٣٧ فى أكبر حركة لتوزيع الاطيان من جانب الباشا على كبار معاونيه وحاشيته على انعامات شملت مساحات واسعة من الاطيان الزراعية فى مديريات مصر فى الوجهين القبلى والبحـرى (٧٤) ٠

ويذكر « مورو بيرجر » أنه تبعا لذلك لم تكن هناك علاقة واضحة بين الأهالى والحكومة طالما أن الآداة الحكومية أو الجهـاز الوظيفى متأثر بشخصية الحاكم ، اذ النظام الوظيفى افتقد ما يسمى السلطة القانونية ، واعتمد على السـلطة التقليدية بحيث أن واجبات الموظفين يحددها الرئيس فى الديوان الذى يعتبر هؤلاء الموظفين اتباعا لــه ، كذلك لا تحدد واجبات الموظفين تحديدا ثابتا وتربط بالوظـائف وان الاختبار والترقية للوظائف يتم تبعاً لرضا الرئيس وهكذا (٧٥) ٠

وهؤلاء الرؤساء الذين اعتلوا دواوين الحكومة كانوا معروفـين لدى الباشا تماما ومن أتباعه المخلصين وكانوا أدواته للوصول الى كل مستويات الادارة فى مصر ٠ وهم فى العادة من أقربائه ومن العناصر التركية عموما الوافدة الى مصر جرياً وراء المناصب وهم الذين أبدوا كثيرا من الولاء والطاعة ، فكانوا يعرضون عليه كل الامور بحيـــث لم يخرج أى مشروع الى حيز الوجود الا بعد أشراف الباشا الشخصى عليــه ، وكان هذا بالطبع يلقى من الباشا كل الرضا لأنه يهدف الى الإحتيفاظ في يديه بالرقابة الكاملة علي كل التفصيلات (٧٦) ٠

وفى اواخر عصر محمد على ، وبعد ان تبين له ان هذه العناصر التركية فى دواوين الحكومة قد أصبحت فاسدة ، اضطر الى اتاحة الفرصة للمصريين لشغل الوظائف بعد أن كان مضطراً الى استخدام هؤلاء الاتراك على الرغم من عيوبهم نظرا لعدم وجود من يصلح لهذه الوظائف من المصريين (٧٧) . وكان هؤلاء المصريون من العناصر التى اوفدها ضمن البعثات الى اوروبا ، ومن خريجى المدرسة التى انشاها عام ١٨٢٩ لتدريب الموظفين (٧٨) .

وبالرغم من ذلك فقد ظل عدد المصريين فى الجهاز البيروقراطى محدودا حيث كانت الاغلبية من الاتراك مما جعل الدواوين الحكومية مصطبغة بالصبغة التركية فكانت اللغة التركية هى لغة الدواوين الاساسية ، فهى على حد قول الدكتور جمال الدين الشيال « لغة الوالى الأصلية ، فلا عجب اذن ان انتشرت وأصبحت اللغة الاولى يتقنها ويكتب بها رجال الحكومة والجيش والصفوة من المصريين » (٧٩). فى نفس الوقت الذى أنحصرت فيه اللغة العربية فى نطاق معاملات الجباية وشئون القضاء لأنها ذات صلة بسواد المصريين (٨٠) .

ولم يكن غريبا اذن ان اصطبغت الحياة الوظيفية بالصفة التركية الخالصة ، فالقاب او رتب الوظائف كانت تركية معنى ومبنى ، سواء أكانت هذه الالقاب أو الرتب مدنية أو عسكرية ، والامثلة على ذلك كثيرا ، نذكر منها للتدليل على ما نقول لقب « افندى » الذى تبدأ به الالقاب المدنية عند الاتراك ، ومعناه السيد وهى كلمة يونانية الأصل من Aphthént - Ces بمعنى سيد ، ولقب « باشا » وهو لقب عثمانى كان يطلق على كبار الموظفين المدنيين او العسكريين على السواء (٨١) .

وهذه الامثلة مجرد نماذج قليلة توضح الاثر الذى تركته اللغة

التركية على الحياة الوظيفية فى مصر فى القرن التاسع عشر باعتبار أنها لغة الصفوة التركية البيروقراطية آنذاك ، وظهر ما يسمى بالازدواج اللغوى بينها وبين اللغة العربية فى أواخر عصر محمد على وطوال حكم خلفائه ، هذا الازدواج الذى انعكس على لغة الدواوين والمعاملات الوظيفية ، فمعظم الرسائل الديوانية مكتوبة باللغة التركية . ونشأت الأقلام الوظيفية ذات طبيعية إزدواجية ، فهناك القلم التركى والقلم العربى . ولم يكن هناك من سبيل الى تنحية أى منهما طالما هى لازمة فى المعاملات الوظيفية ، باعتبارهما لغتى الدواوين الوظيفية اللازمة سواء بالنسبة للبيروقراطية التركية أو بالنسبة للموظفين المصريين الذين أخذوا فى الظهور فى دواوين الحكومة منذ أواخر عصر محمد على ، فلا عجب اذن أن أصبحت اللغتين العربية والتركية معاً لغتا المدارس (٨٢) . فضلاً عن أنه فداندغمت الفاظاً ديوانية مستخدمة فى اللغة العربية أصولها تركية عثمانية مثل كلمة - اورنيك » بمعنى نموذج او مثال ، وكلمة « تمغة » التى دخلت اللغة العربية بنفس المعنى ، وكلمة « سركى » بمعنى سند وغيرها (٨٣) .

والواقع ان استخدام التركية فى الدواوين الحكومية فى مصر فى القرن التاسع عشر على نطاق واسع نسبيا كان مرتبطاً بوضع الاتراك الطبقى على نحو ما أشرنا ، لذلك حافظت عناصر البيروقراطية التركية على استخدامها لهذه اللغة ورأوا أن احتكارهم للمناصب سوف يجعل من العسير على غيرهم - أقصد المصريين - الوصول الى هذه المناصب ، فكان من العسير على الموظف المصرى ان يسمح له حتى بمجرد توصيل رسالة الى موظف تركى كبير (٨٤) .

وكانت البيروقراطية التركية تؤثر إستخدامها عناصر من الاقليات العرقية الاخرى فى مصر على المصريين من الشراكسة والارمن

واليونانيين ، وهؤلاء ممن إسترقهم السادة الاتراك وولوهم أعلى المناصب ومنحوهم أعلى الرتب . ولعل ذلك كان من أسباب سعادة أولئك الارقاء ورضاهم فى عبوديتهم هذه . ولهذا لم يكن هؤلاء المماليك الأرقاء يشعرون فى أنفسهم باى خزى أو عار فى عبوديتهم ، بل بالعكس من ذلك كانوا يشعرون بولايتهم لهذا او ذاك من السادة الاتراك الذين اعتلوا أرقى المناصب الوظيفية فى مصر (٨٥) .

وتبعا لذلك نشأ ما يسمى تكاتف الاتراك الشديد فى محاولة تهدف الى الحيلولة دون إقتحام الوظائف الحكومية من غير الاتراك وعناصر الاقليات العرقية الاخرى ، خصوصاً الوظائف الكبرى ، وفى المرحلة التى اعقبت محمد على التى تخلص فيها خلفاؤه من كبار الموظفين لم يكن من السهل على غيرهم ان يشغلوا وظائفهم الشاغرة . وآثر سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) ان يدير الاعمال بنفسه (٨٦) .

وفى عصر اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) كانت نفس الطرق التى تتبعها البيروقراطية التركية لازالت سائدة ، وانشغل اسماعيل بالمشاكل المالية العديدة فظلت الأمور كما هى الى حد أنه فى عام ١٨٨٣ كان من النادر ان نجد عناصر من المصريين يشغلون الوظائف العليا . وكانت فرصة الاوربيين أوفر ، فقد نجحوا فى زحزحة عناصر البيروقراطية التركية عن مكانتها التقليدية بعد اذ تبين الفارق الشاسع بين كليهما ، فعلى حين كانت العناصر الاوربية تحمل المؤهلات العلمية والفنية والثقافية كانت البيروقراطية التركية محرومة منها . مما جعل البيروقراطية فى الدواوين والمصالح الحكومية تسعى الى تقليد الأوربيين ، ولكن كان التقليد رديئاً (٨٧) .

ولم تجد البيروقراطية التركية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر بد من التسليم بتفوق الاوربيين عليهم فى النهاية ، وكان ذلك بداية تاقلم الاتراك بالحضارة الأوروبية الذى واكبه حلول المصريين فى

الوظائف بدرجة أكبر من ذى قبل ، وفى نفس الوقت بداية النهاية بالنسبة للبيروقراطية التركية فى مصر ٠

الحياة الاجتماعية :

امتازت الاقلية التركية بسبب الموقع الذى كانت تحتله من السلطة فى مصر فى القرن التاسع عشر على غيرها من الاقليات العرقية الاخرى ، فضلاً عن الاغلبية من المصريين فى مجالات الحياة المختلفة ٠ ولما كان الاتراك قد تميزوا - فى النواحى العسكرية بسبب نشأتهم الاولى - على غيرهم من الاقليات ، فقد اصبحت هذه الميزة تمثل قانونهم الاوحد فى السياسة والمجتمع ٠ وتبين وثائق المحاكم الشرعية فى القرن التاسع عشر طبيعة الدور الذى لعبه الاتراك كأقلية عرقية فى الحياة الاجتماعية فى مصر ، فيتضع ان هذه الاقلية التى لم يكن لها جذور محلية فى المجتمع المصرى والتى كان افرادها محرومين من الاسرة والوطن كانت تحاول جاهدة أن تبقى على تميزها الاجتماعى باعتبارها تمثل الصفوة الحاكمة ، وفى سبيل ذلك لم تتورع عن استخدام كل الطرق دون أى وازع ، فضلا عن انها حاولت أن توصد باب التدرج الاجتماعى وقصرت ولوجه على العناصر التى استجلبتها من اصقاع آسيا وغيرها وسوف يتضح لنا ذلك بالتفصيل الآن ٠

● الجوارى والرقيق :

كان اقتناء الاتراك للجوارى والرقيق قد استقر بالنسبة للموسرين أو غير الموسرين منهم فى مصر ٠ وأصبح الاسترقاق بصفة عامة وسيلة للاندراج فى سلك أعضاء الاسرة التركية ٠ فالاقلية التركية عموماً كانت محرومة - كما رأينا من قبل - من الأسرة والوطن لذا كان نظام الجوارى والرق بديلاً أو عوضا عن نظام الأسرة ٠ وكثيرا ما كان هذا النظام يبلغ بأصحابه أعلى المراتب فى السلم الاجتماعى وفى

نفس الوقت انحدرت الاغلبية من المصريين الى درك أسفل من ذلك فلم يكن يسمح لها بمجرد الاقتراب من هذه الأقلية المتميزة ٠

ولم يكن أحد يجرؤ على المساس بهذا النظام الاجتماعى ، لأنه أصبحت له قواعد ثابتة (٨٨) ٠ وكان بمصر فريقان من الجوارى والرقيق ٠ فريق أبيض والآخر أسود ، اما الفريق الأول ، فهم الذين أسروا فى الحروب أو باعهم آباؤهم ببلاد الجركس ، حيث درج القوقازيون منذ زمان بعيد على توريد النساء الى دور الاتراك وغيرهم فى بلاد الشرق ومنها مصر ٠ أما الفريق الثانى ، فهم من الأحباش والسودانيين الذين أسروا فى الحروب التى كانت تنشب فى هذه المناطق (٨٩) ٠

ولا يعنينا الخوض فى تجارة الجوارى والرقيق ومناطق جلبهم والاسواق التى يباعون فيها فى مصر فى القرن التاسع عشر ، بل يعنينا تتبع الدور الذى لعبه هذا الفريق أو ذاك والمكانة الاجتماعية التى كان يتمتع بها فى المجتمع المصرى حتى اواخر القرن التاسع عشر ٠ وهو دور على جانب كبير من الأهمية كما سنرى ٠ فبالنسبة للرقيق نجد أنه من المعروف ان مصر ظلت ما يقرب من ستمائة عام تحكم بواسطة صفوة مختارة من العسكريين المماليك من ذوى البشرة البيضاء ، وهم انفسهم الذين كانوا يعيشون فى مطلع القرن التاسع عشر والذين كانوا لا يزالون يحكمونها بشكل جزئى ٠ وبالرغم من أنهم تعرضوا لمذبحة مروعة عام ١٨١١ الا أنهم ظلوا متواجدين بشكل أو آخر طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر فكانوا ينشأون صغارا فى بيوت الاتراك الأثرياء ويتدرجون فى المراتب الى أن يحتلوا مراكز مرموقة فى الجيش والادارة ، ولم نكن نلحظ من خلال احصائيات (تعداد النفوس) فى عام ١٨٤٨ زيادة فى اعدادهم بل لاحظنا تناقصا تدريجيا فى هذه الأعداد (٩٠) ٠ ويعزى ذلك الى امر هام هو ان التوسع

الروسى فى مناطق جورجيا والقوقاز عموما أدى الى التقليل من طلبهم فتناقصت اعدادهم (٩١) . وأكثر أعداد هؤلاء المماليك كانوا فى بيوت أسرة محمد على الحاكمة بصفة خاصة ، فتدل وثائق الديوان الخديوى على انهم كانوا مزاملين لأطفال أسرة محمد على ويتمتعون بمزايا تماثل مزاياهم ، ففى رسالة من محمد على الى مأمور الديوان فى غرة رجب ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م جاء أن هؤلاء المماليك يتلقون مع أنجال الامراء الدروس ، وانهم يزاملون أطفال البكوات والباشوات الاغنياء الاتراك فى اللعب (٩١) .

واثناء حملة ابراهيم باشا (١٨٢٥ - ١٨٢٨) فى بلاد اليونان وفد على مصر عدد من هؤلاء الرقيق - ذكورا واناثا - من أهالى الموره ، الذين انضموا الى تلك الاعداد القليلة من المماليك وحظوا بمنزلة ومكانة متميزة خصوصا كبراءهم ، فأمر الباشا بانزالهم فى القصور وطلب الى (مأمور الديوان الخديوى) صرف التعيينات المناسبة لهم (٩٢) واستطاع هؤلاء ان يكونوا فريقاً من المماليك كان يطلق عليهم (حزب المورلى) وصل الى أرقى المناصب الادارية والعسكرية فى مصر (٩٣) . ويذكر كلوت بك - احد المعاصرين انهم كانوا فى نعمة سابغة وخيرا جزيلا (٩٤) . مما جعلهم لا يأبهون بالعودة الى أوطانهم (٩٥) .

والواقع ان افراد هذا الفريق من أهالى المورة كانوا اكثر الاقليات العرقية فى مصر فى القرن التاسع عشر صيتاً وشهرة ولعبوا دوراً هاما فى الحياة الاجتماعية . وعند منتصف القرن التاسع عشر كان قد تم تحرير أغلبهم ، بعد أن تزاوجوا مع غيرهم من عناصر الاقليات العرقية التركية والشركسية وارتبطوا معهم بأوثق الروابط ، فبيوت العديد من اثرياء الترك آنئذ كانت تضم أعدادا كبيرة من هذا الخليط الممتزج من الاقليات العرقية الذين كان يجمعهم الولاء لسادتهم

الاتراك ، ففى منزل ابراهيم أفنـدى زكى بالاسكندرية عـــام ١٨٥٧ مثـــلا ، تزوجت معتوقته جلفدان الشركسية من أحد ابناء الموره ويدعى سليم اغـا ابن عبد الله ، ووهبها سيدها أرضا زراعيــة واســعة فى (ناحية جرادات) بالبحيرة (٩٦) .

وفى قصور أسرة محمد على فى الاسكندرية ترعرعــت اناث من الشركسيات اللائى كن يحظين بمكانة اجتماعيـــة راقيـــة وهـــن من معتوقات المرحوم محرم باشـا ـ صـهر محمـد على والذى توفى فى ٢٥ ديسـمبر ١٨٤٧ ـ محافظ الاسـكندرية التركى ومتزوجات من أغـــوات من أبناء الموره وأبرزهن جلفدان المتزوجة من سليم افندى المورلى ، وشمس جهان المتزوجة من يونس أغـا الازميرلى ، ولبى حوس المتزوجة من خليل اغـا بوشـــناق الكردى ، وعائشــة المتزوجــة من سعيد اغـا المورلى ، وزيبـا المتزوجة من على اغـا . وكن يتقاضين مرتبات ثابتة من ديوان المالية هبة لهن من سيدهن (٩٧) . فضـــلا عن الاطيـــان الزراعية التى اوقفت عليهن (٩٧) .

ومن المعروف أن الباشا كان يرشح بين الحين والآخر عدداً من كبار رجال حاشيته الاتراك من الضباط ورجال الادارة الذين يثـق فيهم ولهم عنده مكانة وحظوة لكى يزوجهم من جوارى قصـــوره وقصـــور عائلته من الشركسيات اللاتىيتم تحريرهن (٩٨) . ولم يكن ذلك سوى امتداد لما يجرى فى الآستانة فى قصور السلاطين العثمانيين . ولا نبالغ اذ قلنا ان بيـوت الاتراك فى مصر فى القرن التاسع عشر كانت تماثل من حيث شكل ونمط الحياة فيها بيوت اتراك استانبول من حيث الرغبة فى اقتناء الجوارى من الشركسيات البيض أو الحبشيات السود . هذه الرغبة التى تملكت عقولْ وقلوب رجال الطبقة الحاكمة التركية فضلا عن صغار الاتراك ، الذين كانوا يتمسكون بنفس العادات والتقاليد التى

يمارسها كبارهم ، فالمرأة التركية مثلا ، كانت على وجه العموم تنفر من أعمال الخدمة المنزلية وتتركها للجوارى (٩٩) ٠

والواقع أن الاقلية العرقية التركية فى مصر لم تقطع صلتها باستانبول قط ، فقد كانت تمثل الحبل السرى بينها وبين مناطق نزوحها الاصلية فكان طريق استانبول الاسكندرية المائى على درجة عالية من الأهمية والحيوية فهو مجهز بالسفن والخيل ومكفول له كل أسباب الأمن فصار آداة جذب لكل الراغبين من البلاد الواقعة بين الاناضول عموما واستانبول خصوصا الى الاسكندرية ، بل كانت مصر آنئذ تمثل المعبر الى بلاد الحجاز من كل ارجاء الدولة العثمانية لآداء فريضة الحج المقدسة ، وفى القاهرة كانت توجد أماكن خاصة ياوى إليها المسافرون الى الحجاز من استانبول وغيرها من بلاد الدولة العثمانية ٠ كما تحولت قصور محمد على الى أماكن لاستضافة شخصيات استانبول البارزة الذين كانت توفر لهم كل اسباب الراحة ، وكثيرا ما كان يصطحب هذه الشخصيات البارزة اتباعهم من الجوارى والرقيق (١٠٠) ٠

ولا شك ان هذه الطائفة من الجوارى والرقيق فى قصور ومنازل الاتراك بما حصلت عليه من مكانة اجتماعية لم تتناقص اعدادها بل على العكس كانت تتزايد بسبب هذه المكانة ، فقد كان الرق وسيلة للحظوة والمكانة ٠ لذلك لم يكن غريبا أن يبادر أهالى القوقاز مثلا الى بيع أبنائهم وبناتهم عن طيب خاطر ٠ وقد كتبت جريدة الجوائب فى يونيو عام ١٨٦٨ تقول : ان الجراكسة كانوا يغيرون على اعدائهم ويسبون منهم ، ثم اختلط السبى بذراريهم وكانوا يبيعونهم ، وانه كان لديهم يقين بانهم اذا باعوا ذريتهم فى إحدى ممالك دار الخلافة فإن ذلك سوف يكون سبيلاً للثروة والوجاهة ، حتى ان بناتهم كن يلتمسن من آبائهن بالحاح أن يبيعوهن حيث سيجدن أبواب الحظ والرفاهية فيلبسن الديباج ويتحلين بالماس والزمرد » (١٠١) ٠

والجـدير بالذكر أن الجوارى اللاتى يصبحن حـرائر كـن يرفضن عتقهن ، ويفضلن عليه البقاء فى قصور الاتراك ، فهـن لا يعرفن لهن مـأوى سوى هذه القصور ، فكن يؤثرن عيشة الأسر الا اذا اضطـرها سيدها التركى الى ذلك . ولا يضطر السيد التركى الى ذلك الا فى حالات ثلاث هى : الاولى ان تعلق منه ، اى تحمل منه أو يكون قد مضـى عليها سبع سنين فى خدمته أو يعتقها لوفاء نذر عليـه . وفى اكثـر الاحيان كن يتزوجن من احد الرقيق المملوكين للسيد التركى . وتحتوى وثائق المحاكم الشرعية خلال القرن التاسع عشـر على حالات زواج عديدة كانت تتم بين الجوارى والرقيق بعد ان يتم عتقهـم من قبـل الاتراك وكان اغلبهم من الشراكسة والاحباش (١٠٢) .

ولئن درج الاتراك فى مصر خلال القرن التاسع عشر على الزواج من تركيات من بنى جلدتهم بسبب حرصهم على ألا تختلط ذراريهـم بالاجناس والعرقيات الاخرى ـ وكانت تلك ظاهرة فى الاتراك اكثر من غيرهم من الاقليات ـ الا أنهم بسبب ازدهار شـراء الجـوارى الشركسيات اللاتى تدفقن على منازلهم فإن الكثيرات منهـن أصبح لهن مكانة مرموقة تفوق التركيات انفسهن ، بدليل ان الوثائق الخاصة بالاحوال الشخصية ـ أى قضايا الزواج والطلاق وغيرها ـ يتضح منهـا انفراد الشركسيات بكل مظاهر النفوذ فكن يمتلكن الاراضى والعقارات وغيرها (١٠٣) . لذلك ليس من المبالغة فى شىء القـول بـأن قيم مجتمع الرقيق والجوارى فى مصر كانت هى قيم الطبقة الارستقراطية التركية الحاكمة أو الصفوة المـدنية فى الوظـائف والادارة عمـوما . وبالتالى من المهم جدا تناول هذه القيم التى كانت سـائدة فى هـذا المجتمع التركى فى مصر ، .

- **القيـم الاجتمـاعية :**

أول حقيقة تواجهنا حين نتناول القيم الاجتماعية التي كانـت

سائدة فى المجتمع التركى فى مصر خلال القرن التاسع عشر هى تعلق هذه الاقليات باستانبول واعتبارها الكعبة الاولى بالنسبة لهم فى ارساء القيم والتقاليد الاجتماعية بينهم ، فضلاً عن انها المكان الذى يشعرون فيه ، خصوصا أفراد أسرة محمد على وخلفائه ، بأنهم بعيدون عن جو الرسميات فى قصورهم فى مصر . فتدلنا الوثائق على أن معظم أفراد أسرة محمد على كانوا يمتلكون قصوراً فى استانبول على ضفاف البسفور كما كان لهم قصوراً عديدة فى مصر (١٠٤) لذلك كانت حياة أفراد أسرة محمد على - فى العادة - تتقلب بين أطوار ثلاثة مختلفة ، أحدها فى مصر ، حيث مقر الحكم - والثانى ، رحلاتهم الى أوربا . والثالث فى استانبول . وهى المصادر الثلاثة التى استقى منها هؤلاء قيمهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة كان أقلها قيم المجتمع المصرى واكثرها القيم والتقاليد الاجتماعية فى استانبول .

والواقع ان أسرة محمد على هى التى قادت بقية أفراد الاقلية التركية العرقية فى مصر فى هذه الناحية وكانت بالنسبة لهم مثلا يحتذى . وصحيح أيضا ان الجوارى والرقيق الشراكسة الذين ارتفعوا الى مكان الصدارة بما حازوه من حظوة عند الاتراك من افراد أسرة محمد على لعبوا دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر آنئذ فالابعاديات التى كان يملكها هؤلاء الامراء أطلقوا يد هؤلاء الشراكسة فيها ، مثال ذلك عام ١٨٥٨ حين أجاز حسن بك برتو التوللى - وهو من افراد اسرة محمد على - لأحد رقيقه الشراكسة ويدعى خير الله افندى بن عبد الله التوكيل فى كل ما يتعلق بالابعادية التى اشتراها من اسماعيل باشا نجل ابراهيم باشا فى ناحية المنصورة (١٠٥).

والجدير بالذكر ان افراد المجتمع التركى فى مصر لم يسعوا الى الاختلاط بالأهالى خشية أن يهددهم ذلك بالذوبان على اعتبار أنهم

أقلية وان أقاموا معهم فى نفس الأحياء فظلوا بدون جذور محليـة من الناحية الاجتماعية ، لذلك ظل شعورهم بالعزلة واضحا خلال القـرن التاسع عشر ولم يخفف من هذا الشعور عندهم الا اقبالهم على الاختلاط بالرقيق والجوارى المجلوبين وعقد أواصر العلاقات الاجتماعية معهم ، ومع ذلك فان الوثائق تدلنا على أن كثيرين منهم ظلوا على صلة وثيقة بالبلاد التى نزحوا منها لذا لم يكونوا ولاءا وطنيا من أى نوع ، فكثيرا ما يتردد أن هؤلاء الاتراك اذا ما حان أجلهم ، فانه يتوافد أبناؤهـم من استانبول او غيرها الى مصر للحصول على حقوقهم فى الميراث من آبائهم المتوفين (١٠٦) وفى أحايين أخرى كثيرة كان بعضهم يعود الى المناطق التى نزحوا منها لفترات محدودة ثم يعود مـــرة أخـرى الى مصر (١٠٧) . كل هذا معناه ان هؤلاء الاتراك لم يكونوا ولاء قط نحو مصر بل ظل ولاءهم مشدودا الى سادتهم فى استانبول . وحل الولاء الشخصى اكثر من اى شىء آخر واصبح مقدماً على الولاء للاوطان ، وتقوقعت هذه الاقلية فى هذا النطاق .

والولاء للاشخاص كان يمثل أعلى هرم القيم الاجتماعية التى كانت سائدة فى هذا المجتمع التركى . ونستطيع ان ندرك ذلك بسهولة من سجلات هؤلاء الاتراك الذين تولوا مناصـب القيـادة فى الجيش او الوظائف الادارية او غيرها فهى تحتوى على تفاصـيل كثيرة عـن ظروف ترشيح كل فرد لوظيفته والتى يتبين منها أنهم كانوا بمجرد دخولهم مصر لاول مرة يتم إدراجهم فى ذمة أحـد الشـخصيات البـارزة فى الجيش او الادارة ويجوز ان ينتقل الفرد منهم من الولاء لشخص الى شخص آخر بعد رفته او تقاعده ، ويجوز أيضا ان يصـل الى أرقى المناصب والرتب تبعاً لقدراته ومدى صلته بسيده التركى ففـى عـام ١٨٢٩ مثلاً وافق الباشا على ضم عدد كبير من هـؤلاء الي خدمتـه

وادراجهم فى الجيش فأنهى بذلك على ولائهم للعديد من الاشـخاص وتحول هذا الولاء له شخصيا (١٠٨) ٠

والواقع ان انتماءات الاقلية التركية بالرغم من انها كانت شخصية بحتة فانه يلاحظ انها لم تقم اساس عرقى أو دينى عكس ما قد يتبـادر الى الاذهان فجموع افراد الاقليات العرقية فى عصر اقاموا علاقاتهـم على أساس وجود مصالح مشتركة بينهم ، هذه المصالح كانت إقتصادية فى الغالب اذ تثبت مئات الوثائق التى عثرنا عليها والمتعلقة بالحيـاة الاقتصادية والاجتماعية للاقلية التركية وعلاقتها بالاقليات الاخرى هذه الحقيقة ، فمئات التوكيلات بالتصرف فى كافة الشـئون كان يسندها الاتراك لعناصر من الاقليات غير التركية ، وكذلك اسند الاتراك الوصاية الشرعية على أبنائهم القصر لعناصر من هذه الاقليات غير التركية ٠ كل ذلك يـدل على الصلات الوثيقة بين العنصرين مما يجعلنا نطمئن الى القول بأن انتماءات هذه الاقليات لم تقـم على أسـاس عـرقى او دينى (١٠٩) ٠

وهذه القيمة الاجتماعية فى الواقع هى التى سيطرت على سلوك الاقلية التركية فى القرن التاسع عشر ، وضربت أسرة محمد على أوضح الامثلة فى هذا الصدد ، فقد انفجرت مشاكل الميراث والوصـاية فى اعقاب عصر محمد على ولم تهدأ فى أى وقت فى عهود خلفائه بـل على العكس كانت تتاجج ٠ فحاول عباس الاول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) مثلا ، الاسـتيلاء على ما فى أيـدى افراد اسـرة محمد على ، خصوصا فرع ابراهيم باشا ، بحجة ان جده قـدم الى مصر لا يملك شيئا وان ما خلفه لذراريه من مال الشعب يجب اسـترداده ووضعه فى يد أمينـة لتتولى شئونه ، كما دبرت المؤامرات لقتل ابنة محمد على ، غير أن

بعض جوارى قصرها يسرن لها مهمة الهرب عن طريق سرداب ثم غادرت مصر خفية الى استانبول للاستيطان بها (١١٠) .

وفى عصر سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣) تكررت نفس المحاولة فرأى الاستيلاء على أموال الامير الهامى ابن عباس وكان عباس قد سعى لكى يحتفظ بالعرش له (١١٠) . وكانت مسالة ميراث محمد على حساسة وغامضة ومصدر دائم لاثارة النزاع بين افراد أسرته ، فكان وصول أى أمير من هذه الاسرة الى الحكم يعنى مبادرته الى الاستيلاء على الاملاك الموروثة للامراء وسعى هؤلاء الامراء لاسترداد هذه الاملاك فقد وضع عباس الاول يده على ما ينوف على ٧٠ قرية اعتبرت عهده وحرم منها ابناء ابراهيم (١١٢) على حين استولى سعيد باشا فور توليه الحكم على اموال الامير الهامى قبل ان يعود من الخارج (١١٣) وكان الاخير قد نادى به بعض اتباعه من الامراء الاتراك حاكما على البلاد قبل أن يصدر فرمان تولية سعيد باشا عام ١٨٥٤ .

وهكذا تحولت قصور أسرة محمد على الى حلبة للمؤامرات والدسائس يتنافس فيها الامراء الاتراك ، ولعب جوارى هذه القصور دورا هاماً فى هذه المؤامرات بعدما احتلوا مكانة اجتماعية متميزة الى الحد الذى يمكننا معه القول انهن كن يحكمن مصر من وراء ستار بعدما أصبحت موارد الدولة والجهاز الحكومى تحت تصرفهن بفضل ارتباطهن بقصور الامراء ، كما تثبت العديد من وثائق المواريث والتركات ان هؤلاء الجوارى المعتقات كن يتركن عند وفاتهن ثروات طائلة كانت سبيلا لبقاء تميزهن الطبقى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فقد تركت على سبيل المثال ، نفيسة هانم البيضا معتقة حسين جوربجى ووالدة محرم بك محافظ الاسكندرية وصهر محمد على عام ١٨٥٩ ثروة طائلة ، وبلغ ما آل الى أحد ورثتها ويدعى حسن برتو بك من المال فقط ٢٢٦٣١ قرشا (١١٤) .

وعلى امتداد اراضى مصر انتشرت الدوائر المملوكة للجوارى المعتقات وهى دوائر واسعة فى شكل مساحات كبيرة من الاطيان الزراعية كانت تتراوح بين مائة وخمسمائة فدان تحت اشراف ناظر كانت له اختصاصات كثيرة انتقلت اليه عن طريق صاحبة الدائرة وفى يده توكيل منها بذلك وكان أكثر نظار هذه الدوائر من أرومة هؤلاء الجوارى وبعضهم من الوطنيين ، الذين أصبحوا فيما بعد ملاكا كبارا نظرا للدور الذى قاموا به خلال نظارتهم لهذه الدوائر ، ومن امثلة هؤلاء « على افندى البارودى » السكندرى الذى كان يدير أملاك « أنجى هانم » حرم سعيد باشا والى مصر والذى انابته عنها فى بيع جميع ما يخصها من الاطيان والعقارات الآيلة اليها بالميراث فى جهات قبلى وبحرى والمحروسة والاسكندرية (١١٥) ٠

وهكذا نرى ان الاقلية التركية كانت تمثل مركز الدائرة بالنسبة لمجتمع الاقليات العرقية العثمانية فى مصر ، وانها قامت بإرساء القيم الاجتماعية المنقولة عن استانبول ، وانه قد ربط بينها وبين هذه الاقليات غير التركية وحدة الظروف الاقتصادية والاجتماعية مما أدى الى الاندماج فيما بينها جميعا ٠

والواقع ايضا ان انتعاش او تدهور هذه الاقليات العرقية ظل مرهونا بمدى انتعاش او تدهور الاقلية التركية ، فالقيم الاجتماعية المنقولة عن استانبول والتى تعلى من شأن الجوارى فتجعل لهن الكلمة الأولى وتنافس كبار الاتراك على الزواج منهن باعتبار ان تلك هى الوسيلة للترقى فى المناصب وغيرها كل هذه الامور كانت تمثل الاساس فى شكل العلاقات الاجتماعية ٠ وتنازل هؤلاء فى سبيل تحقيق ذلك عن التمسك بالزواج من التركيات وتخلو عن الحرص على صفاء دمائهم واقترن معظمهم بشركسيات وحبشيات كما كان يجرى فى استانبول(١١٦)

كما حرصوا على الزواج منهن لكى يحافظوا على الامتيازات الاقتصادية الممنوحة لهم فكان الباعث على الزواج اقتصاديا اكثر منه عرقيا ، على حين كان زواج الاتراك من الوطنيات يتم فى نطاق محدود جدا ومن جانب فقراء الاتراك دون اغنيائهم (١١٧) ٠

ولما كانت هذه الاقلية التركية الارستقراطية حريصة على التمسك بتقاليدها وقيمها الاجتماعية وكونت بذلك مجتمعا متميزا قائما على الرق وترتب على ذلك ظهور وسيادة كافة القيم الاجتماعية الاخرى المتولدة عن ذلك ٠ فان ذلك لم يكن يعنى قيام مجتمع عرقى منعزل بمعنى ان يقيم افراده فى احياء خاصة بهم بل وجدنا القصور التى يقيمونها منتشرة فى كل مكان وذلك معناه ان هذه الاقلية التركية وغيرها من الاقليات العرقية الاخرى كانت تشعر بالامان بين الاغلبية الوطنية ، مما يجعلنا نطمئن الى القول بأن هذه العناصر لم يتوفر لها الامان فى اى مكان آخر كما توفر لها فى مصر فكان لحاكم مصر وهو من هذه الاقليات مثلا الحق المطلق عليها فله حق الولاية العامة والنظر فى كافة الدعاوى والمرافعات والمطالبات وغيرها على اعتبار ان هذه الاقليات بدون جذور محلية (١١٨) ٠ ولم يكن ذلك فيه اى شىء من الغرابة ، فقد كان الاوربيون وهم اقليات عرقية أيضا يحظون بنفس القدر من الامان ، ويطلق عليهم لفظ « المستأمنين » حيث كانت الحرية الشخصية ترفرف على الجميع ٠ ويذكر احد المعاصرين « انه كان بامكان اى اجنبى من اى جنسية أن يجوس خلالها - اى خلال مصر - بغير جواز رسمى وأن يقتنى من الاسلحة بحجة الصيد كل ما تهوى نفسه دون ان يعترضه او يزعجه احد » (١١٩)٠

وبالرغم من ذلك لم تتمكن هذه الاقلية التركية او غيرها من الاقليات العرقية الاخرى عثمانية او أوروبية من التخلص من السلوك

الاجتماعى الذى يصيب فى العادة - الاقليات النازحة - والتى تجعلها مختلفة عن الاكثرية الوطنية المحلية ، فقد تعصبوا لتقاليد المجتمعات التى نزحوا منها وبالغوا فى ذلك فكانوا يعتبرون أى تفريط فيها هدم لسلطاتهم ولم يحاولوا التعرف على العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع المصرى الا فى أضيق نطاق ، ومع ذلك نجد ان الاقلية التركية باعتبارها تنتمى الى الاسلام حرصت على كل ما له علاقة بالدين من مظاهر اجتماعية ، مثال ذلك حضور لفيف من عناصر الاقليات التركية فى عام ١٨٥٧ فى منزل احمد باشا القوللى فى الاسكندرية من اجل النظر فى الوصية التى تركتها الست نفيسة بنت عبد الله الشركسية والتى توصى فيها بأن يصرف من مالها بعد وفاتها مبلغ قدره ثلاثة عشر الف قرشا فى تكفينها وبناء قبرها وعمل عتاقات واخمسة وختمات قرآن واسقاط صلاة وتوزيع الباقى على الفقراء ٠٠ وهى كلها أمور على نحو ما نرى مأخوذة من العادات والمظاهر الاجتماعية الموجودة أصلا فى المجتمع المصرى (١٢٠) ٠

أما على صعيد العلاقات التى كانت تجرى بين بعضهم البعض ، فقد أصاب سلوكهم ما يصيب أى اقلية عرقية وسط أغلبية وطنية محلية ، فهم وان كانوا أقلية متحكمة مسيطرة الا أنهم فى سبيل تحقيق رغبتهم العارمة فى تكوين الثروة من أى طريق لم يتورعوا عن سلوك كافة السبل مهما كانت ، ولا تستثنى منهم أحدا فى هذا الشأن بدءا من اسرة محمد على الى اى فرد من هذه الاقلية ٠ فتسجل وثائق الاحوال الاقتصادية للأقليات العرقية الصراعات والنزاعات الدائمة بين الحكومة وبين عناصر من هذه الاقليات حول استيلائها على اراضى بيت المال ومحاولات استرداد هذه الاراضى ، وهناك أمثلة عديدة على ذلك نكتفى بأن نورد مثالا منها ، ففي عام ١٨٦٩ « وضع حسين بك راغب

أحد الضباط الاتراك (اميرالاى أورطة استحكامات السواحل) يـده بطريق القوة على قطعة ارض فى مدينة الاسـكندرية من اراض بيـت المـال على حين ظلت الحكومة تطالبه برفع يده عنها » (١٢١) ٠

وتسجل وثائق الاحوال الاقتصادية ايضاً النزاعات الدائمـــة بين افراد هذه الاقليات حول المواريث والتى فيما يبدو أنهم تفرغوا لها ، فكانت ادعاءات حقوق التملك وحقوق التوريث فى الاراضى والعقارات كثيرة ٠ فتذكر وثائق المحاكم الشرعية (الدعاوى) فى عام ١٨٦٢ على سبيل المثال الدعوى التى رفعتها (زينب القوللى) بأن البيت الذى آل اليها بالميراث ينازعها فيه حسن برتو بك القوللى ويذكر ان الهبـة التى حصلت بمقتضاها عليه لا اساس لها ٠ وظل الطرفان يتنازعـان لفترة طويلة حـول حقوق كليهما فى الميراث وانتهـى النـزاع بترك المدعية للبيت فى نظير مبلغ قدرة اربعون الف قرش (١٢٢) ٠

وكانت مسألة اثبات صـلة النسب او حق الوراثة من المسائل التى تثير العديد من أسباب النزاع بين أفـراد هذه الاقليـة ٠ فالجـــوارى اللاتى يقترن بهم ليست لهم جذور عائلية ومجهولات النســـب وكان يطلق على الواحدة منهن بنت عبد الله بسبب عدم معرفة ابويها ٠ لذلك كانت مسألة اثبات النسب وحق الوراثة - خصوصا فى عـدم وجـــود وصية - من المسائل الكثيرة الحدوث ، بالاضافة الى ان عـــدم وجـــود جذور عائلية لهذه الاقليات كان يسمح بهذه الادعاءات أصلا ٠ وتحتوى وثائق الاحوال الشخصية للاقليات العرقية على حـوادث تبين منها مدى ما تثيره هذه الأمور من مشاكل ٠ نذكر منها ، النزاع الذى دار فى فى عام ١٨٦٣ بين ورثة محمد عارف القوللى وبين أحد الاهالى حـين طالبـــوه بأن يرد ما عليـه من ديون لهم ، وأثبتـــوا أن المتوفى هـــو مورثهـــم ٠ ولـكن المدعى عليـه ، أنـكر وفـــاة محمـــد عـــارف

القوالى ، وأنهم ينتسبون اليه أصلا ! وظل هذا النزاع مطروحاً أمـام المحكمة ردحاً من الزمن الى أن أثبت الورثة أن مورثهم قد توفى وانهم يستحقون حصصهم فى تركته (١٢٣) ٠

ولا شك ان الغموض الذى كان يحيط بأصول وانساب الكثير من هذه العناصر وعدم ضربها فى النسيج العائلى فى مصر كان يؤثر فى تشكيل قيمها وسلوكها الاجتماعى ، فهى فى حالة قلق دائم ويحكمهـا قانون المنفعة الذاتية وحـده دون اى اعتبار آخـر ٠ فاذا نظـرنا الى تكوين أغلب عائلات هذه العناصر فاننا نجد ان الدافع الى تكوينها يقوم على المنفعة اكثر من اى شىء آخر ، فتشير (تقارير شيوخ احيـاء القاهرة) التى يقطنها هؤلاء فى عصـر محمـد على ـ على سـبيل المثـال ـ الى أن اغلبهم كان متزوجا من جوارى معتقات اثرياء وأنهم فى أغلب الأحيان لم ينجبن ابناء (١٢٤) ٠

والظاهر بصفة عامة ان هذه العناصر كانت قليلة الانجاب بشكل ملموس ، وبالرغم من ذلك فان هذه المسألة ، لم تشغلهم على الاطلاق ٠ وفى أحايين كثيرة كانوا يتوفون دون وريث فتؤول ثرواتهم وتركاتهم الى بيت المـال ، الذى يعتبر فى هذه الحالة وصياً على هذه التركات ٠ وهناك أمثلة كثيرة تحتويها « وثائق بيت المال » تدلنا على حالات تلاعب عديدة فى هذه التركات وانها كانت وسيلة للنهب والاستغلال ، فكان أمناء بيت المال ـ وهم موظفون حكوميـون ـ أول من يقـوم بتسهيل مهمة انتقال هذه التركات الى الحاكم فى حالة عـدم ظهور ورثة لـه وكانت هذه المسألة تغـرى بعض العناصر الاخـرى بسـبب الغموض الذى يحيط بأصول وأنساب الكثير من هـذه العناصر عـلى نحو ما ذكرنا ـ كانت تغريهم بادعاء صـلة النسب والقرابة ، فتسجل وثائق المحاكم الشرعية دعاوى كثيرة فى هذا الشأن وكانت هذه الدعاوى

تقـام من جانب عناصر غير موجودة أصلا فى مصر وتنظرها محاكم أخرى خارج مصر مثل محكمة استانبول (١٢٥) . كما تسجل هـذه الوثائق حرص هذه الاقليات على نقل تركاتهم الى ورثتهم فى بلادهم النازحين منها - مثال ذلك ، الوصية التى تركها عمر القرمان بن على الذى أوصى بنقل تركته لورثتـه الموجودين فى بلـدة نيـده التابعـة لولاية تونيه وكان مقيماً فى الاسكندرية عام ١٨٦٤ (١٢٦) .

ولـما كان معظم هؤلاء يتعرضون للتنقل الدائم والترحـال - تبعاً لظروف عملهم - فقد كانوا يسندون الى أحد الذين يثقون فيهم من بنى جلدتهم ضبط وتصفية تركاتهم ونقلها الى مواطنهم الأصلية فقـد اوصى مصطفى الحاجى عام ١٨٥٨ - أحد اهالى ديار بكر - ان يقوم يوسف خان الحاجى بضبط تركته بعد وفاته وتوصـيلها الى ورثتـه الغائبين فى ديار بكر وهم زوجته وابنته وولديه (١٢٧) .

وهذا الوضع يعكس الشعور بالتضامن بين افراد هذه الاقلية ويدل بشكل واضح على تمسكها بالحقوق المكتسبة التى نالتها بحق او بـدون حق بفضل تميزها على الأغلبية المحلية الوطنية .

وهذا يقودنا الى تناول قيمة اخرى من القيم الاجتماعية التى كانت سـائدة بين افرادها وهى شعورهم أنهم متميزون ومن أرقى الأجناس ، بالرغم من أنه كان يربطهم مع الاغلبية المحلية وحدة الدين ، والأغلب أن هذا التعصب العرقى عندهم كان ناشئا من شعورهم بانهم اقلية اجتماعية ينبغى ان تحافظ على ذاتها مهما كانت الاسباب خشـية التعـرض للانصهار . معنى هذا ان مشكلة الاقلية التركية كانت بالدرجة الاولى تقـوم على اساس شعورها بانها اقلية عددية ينبغى أن تكون متميزة والا تعرضت للذوبان فى الاغلبية .

وتدلنـا الوثائق الخاصة بالمعاملات على ان الاقلية التركية كانت اكثر الاقليات العرقية تعصباً حيث كانت تخلو معاملاتها مع الاغلبية من ادنى ثقـة فيها فهى تعطى كل الثقة لكافة العرقيات الاخرى وتضـن بها على الاغلبية فكافة الوقفيات والوصايا والتوكيلات موجهة لخدمة مصالح أفراد الاقلية التركية والاقليات العرقية الاخرى ، ونورد أمثلة للتدليل على ذلك ففى عام ١٨٨٥ أوقف عبد الحميد بـك من ديار بكر والمتيم بالاسكندرية ما هو جـار فى ملكه وهو عبارة عن بستان ومـال وقفا صحيحا لا يباع ولا يوهب ولا يرهن بحيث ينتفع به مدة حياته ولمعاتيقه بعد وفاته ، فاذا انقرضوا يكون على احـد اقربائه من ديار بـكر وان يتولى احـد الاتراك نظارة هذا الوقف (١٢٨) .

وبالرغم من ذلك فان التعصب العرقى الذى تميزت بـه الاقليـة التركية لم يلغ انقساماتها الداخليـة ونزعاتها الخاصـة واغلب هـذه النزاعات - كما رأينا منذ قليل - كانت حول المصالح الاقتصادية .

علاقة الاتراك بالأوربيين :

أحدث دخـول الاوربيين مصر منذ بداية عصر محمد على ثغـرة فى جدار روح العصبية أو التعصب العرقى الذى تميزت بـه الاقليـة التركية ، فالاوربيون كانوا يمثلون اقلية أيضا ولكنها اقلية مختلفة فى الدين والجنس فضلا عن انها اقلية متفوقة على الاتراك فى كل شـىء وهذا معنى قولنا ان دخـول الاوربيين مصر قد احدث ثغرة فى جـدار التعصب العرقى للاقلية التركية ، لذا كانت بداية الموقف الذى اتخذه الاتراك من الاقلية الاوربية يقوم على إثارة التعصب الدينى وابداء شعور الغيرة العرقية . وعبر كلوت بـك بدقة عن ذلك الموقف بقوله : « ان الاتراك كانوا بينهم وبين انفسهم يعترفون بتفوق الاوربيين عليهم فى

كل شــىء وان كان هذا الاعتراف مصحوبا دائماً بالاحتقار والتعصب الدينى على اعتبار أن الاوربيين فى نظرهم كفارا » (١٢٩) ٠

وعلى الرغم من ذلك ، فان موقف الاقلية التركية من الاوربيين لم يستمر طويلاً على هذا النحو إذ أن هذه الاقلية أخذت تراجع موقفها من الحضارة الأوربية بعدما أخذت الثقافة الاوربية تنتشــر فى كافة الميادين ٠ مما أدى الى تغيير عقلية الاتراك وفهمهم للحضارة الاوربية الحديثة ٠ بالاضافة الى ان عدداً كبيراً من امرائهم اخذ يتنقــل بين القاهرة واستانبول والعواصم الاوربية (١٣٠) مما أدى فى النهاية الى التخفيف من غلواء التعصب العرقى والدينى تجاه الاوربيين ٠ ومع ذلك فان ثمــة إختلاف فى الصميم ظل قائماً بين الجنسين التركى والاوربى من حيث النواحى النفسية المتوارثة ، فبينما كان الاوربى سريع الحركة والتصرف والانفعال كان التركى بطىء الحركة لا يبدى انفعــالاته الا بمقدار وذلك رغبة فى التظاهر بالحرص والكياسة والحكمـــة فى كل تصرفاته (١٣١) ٠

وعلى الرغم من حدوث هذا التقارب الاجتماعى التدريجى بين الاوربيين والاتراك فانه مما يلاحظ ان الاتراك ظلوا يكمنون عـــداءا تقليدياً ضد الاوربيين بسبب الاختلاف فى الغرائز الاصلية لكل منهمـا وتبـارى كليهما فى إبراز عراقة أصـله وانتاب كليهما ما ينتـاب كل أقلية عرقية فى مواجهة الاغلبية من الشعور بأنها أقلية اجتماعيــة ينبغى أن تحافظ على ذاتيتها ٠ وسعى الاوربيون من اجل نيـل نفس الامتيازات التى يحصل عليها الاتراك كأقلية عرقية واصـــطدموا مــع الاتراك فى هذا المجال ٠ فقد حرم الاتراك على اى مسلم ان يقوم بخدمة الأوربيين ، كما أصبحت النســاء التركيات المسـلمات مقيدات أكثر من ذلك بعدم خدمة الأوربى او المسيحى ، ومع ذلك فان المـال كان كفيلا باغرائهن على تحطيم هذا التحريم (١٣٢) فبيــوت العديد من هــؤلاء

الاوربيين كانت تضم الجوارى والرقيق (١٣٢) ٠ وبالتالى فإن قاعدة حرمان الأوربى من امتلاك جارية تركية او شركسية اصبحت قاعدة نظرية فقط طالما كانت أموال الاوربيين كفيلة بتذليل هذه الصعاب ٠ ولا شك ان الاوربيين اشتركوا فى جريمة الاتراك الخاصة باسترقاق الجوارى وبيعهن حاملات منهن (١٣٤) ٠

ولا نحسب ان ميدانا من الميادين أخذت الحزازات العرقية بين الاتراك والاوربيين باعتبارهما أقليتان عرقيتان فى الذوبان كما حدث فى ميدان العلاقات الاقتصادية اذ كانت الحساسيات الدينية أو العرقية تتضاءل امام اتفاق المصالح ٠ ففى سوق الترك فى الاسكندرية عام ١٨٦٥ ، على سبيل المثال ، كانت تجمع الايطاليين والفرنسيين وتجار استانبول معاملات تجارية تستلزم التنسيق فيما بينهم وكانت تتضاءل امامها اية فروق دينية او عرقية وغيرها ففى الجلسة التى ضمت هؤلاء التجار اناب التاجر التركى مصطفى عبده اغا ابن عبدالله كرجى الاسلامبولى عنه الخواجا الايطالى دانيال افرانكوا فى جميع أموره وشئونه وما يتعلق به من بيع وشراء وتاجير وقبض اجره وماله من حقوق وديون واستحقاق وفى الدعاوى والخصومات والصلح والابراء والاقرار والانكار وكل شىء جائز فعله شرعا (١٣٥) ٠

والواقع ان الاوربيين نجحوا تماما فى الالتفاف حول القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع التركى فى مصر ونفذوا اليها عن طريقين هما : الاول ، الاشتغال بأمور الاسرة الحاكمة والتصدى لمصالحها الاقتصادية ؛ والثانى ، طرح قيم أوربية اخرى بديلة بفضل تاثير الثقافة والحضارة الاوربية ، مما أدى فى النهاية الى تخلخل نموذج القيم الاجتماعية التركى وتعرض الاقلية التركية فى مصر للاهتزاز ٠ وهناك أمثلة عديدة تثبت ما نقوله ، ففى خلال مالايزيد

عن ربع قــرن وهى الفترة التى تبــدأ بعصــر ســعيد عام ١٨٥٤ وحتى اواخر عصر اسماعيل فى عام ١٨٧٩ انتقلت معظم المصالح الاقتصادية للأســرة المالكة والحاكمة فى مصر الى ايــادى اوربية لكى تتـــولى الاشراف عليها ، فقد تـــولى « هرمان ادينـــايم » البروســـى كافــة الأمور المتعلقة بالهامى باشا ـ نجل عباس باشا ـ الكائنــة بالديــار المصرية وفى القبض والصرف والبيع والرهن وكامل التصرفات (١٣٦) . وفى عام ١٨٨٩ كان « مارسيل بواليه بــك » ، الفرنسى يعمل مديرا لدائرة المرحوم عمر طوسون باشا ـ نجل سعيد باشا ويتولى شـــئون انجاله محمد سعيد بك ومحمد عمر بك والست امينة انجـــى هانــم أفندى والست المصونة بير أفندى والدة المرحوم محمد طوسون باشا . وكان الافوكاتو « كارتون دى فار » الفرنسى ، وكيلا مطلقــا عن زينب خانم افندى ، كريمة الهامى ابن الخديوى عباس باشا (١٣٧) .

ولاشك ان نزاعات الاسرة المالكة الخديوية الكثيرة حول مسائل الميراث والاوقاف وغيرها كانت تسمح لهؤلاء المحامين ومديرى الدوائر الخاصة الاوربيين بالتردد على قصور وسرايا أفــراد الأســرة المالكة خصوصا بعد ان اصبحوا محل ثقتهم الكاملة وهذا مما سهل اتاحـــة الفرصة ـ الى جانب عوامل اخرى ـ للنموذج الاوربى فى التقاليــد والقيم فى الظهور فى القصور التركية ولكن لم يكن ذلك امــرا هينا لان الاتراك كانوا معروفين بتمسكهم بالقديم والمحافظة على التقاليد ، ومع ذلك اخذت اشكال الحياة فى المجتمعات الأوربية تتســلل الى المجتمــع التركى فى مصر ، فامتدت الى جوانب كثيرة مثل التعــليم والصحافــة والتمثيــل النيــابى والحيــاة المنزليــة وأصبحت الحيـــاة الاجتمــاعية للاقلية التركية متأثرة بالنموذج الفرنسى الايطالى بحيث شوهد تقدم فى نمط الحياة العامة لدى تجار الاتراك واصحاب المقاهــى منهـــم

والاساليب المتبعة فى الحياة العامة وفى الفنادق والمطاعم وبالاختصار فى كافة نواحى الحياة الاجتماعية فى مصر (١٣٨) ٠

وتعتبر الاسرة المالكة الخديوية فى مصر ، بما تملك من تأثير واسع النطاق على بقية افراد المجتمع التركى بها هى التى سهلت نفاذ التاثير الغربى الى بقية أفراد الشريحة العالية من الاتراك سواء كانوا ضباطا او موظفين او تجـارا ٠ وكان من المعروف ان باريس هى المدينة الاوربية التى يتردد عليها افراد الاسرة المالكة على كافة الاماكن دون أيـة قيـود اجتماعية (١٣٩) ٠

وفيما عدا هذا التأثير ظلت اعداد كبيرة اخرى من الاتراك دون تغيير بحيث يصعب ان نقول انه قد حـدث تفكك ملحوظ فى المجتمع التركى فى مصر فوضع المـرأة التركية مثـلا لم يطرأ عليه اى تغـيير وشكل الاسرة التركية وتركيبها المعقد لم يصيبه ادنى تغيير ٠ ومن ثم فان علاقة الاتراك بالاوربيين وان احدثت ثغرة فى تعصبهـم العـرقى بتأثير من تفوق الاوربيين على الاتراك كما اشـرنا الا انها لم تقـض تماما على التعصب وروح التعالى العنصرى الذى كان من خصائص الشخصية التركية فى ذلك الوقت فقد ظلت التفرقة الشديدة بين الاتراك والاوربيين دون تغيير كبير حتى الحرب العالمية الاولى ٠

على كل حال فانه مما لاشك فيه ان مزاحمة الاوربيين للاتراك فى مصر اصابهم بالقلق والارتباك وحد من تضخم المكانة التى كانت تتميز بهـا الاقلية التركية ٠

● ● ●

الهـــوامش

(١) سجلات تعداد النفوس مصر حى عابدين رقم (١) ل/١/٨٤/١ عــام ١٨٤٨ .
(٢) نفسه . حى قيسون رقم (٢) ل /١/٨٤/١٣ .
(٣) نفسه . حى درب الجماميز رقم (٤) ل /١/٨٤/٥ .
(٤) نفسه . حى قيسون رقم (٢) ل /١/٤/١٣ .
(٥) نفسه . حى الدرب الاحمر رقم (١) ل/١/٨٤/١٦ .
(٦) نفسه . حى قيسون رقم (٢) ل/١/٨٤/١٣ .
(٧) نفسه .
(٨) نفسه . حى قيسون رقم (٣) ل/١/٨٤/١٤ .
(٩) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٢٥ .
(١٠) سجلات تعداد النفوس . حى عابدين رقم (١) ل/١/٨٤/١ .
(١١) نفسه . حى عابدين رقم (٢) ل/١/٨٤/١٣ .
(١٢) نفسه . حى قيسون رقم (٢) ل/١/٨٤/١٣ .
(١٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٧٩ .
(١٤) سجلات تعداد النفوس ، انظر على سبيل المثال حى عابــدين وحى قيسون .
(١٥) نفسه . حى قيسون رقم (٣) ل/١/٨٤/١٤ من ص ٣٨٢ - ٤١٣ .
(١٦) نفسه .
(١٧) نفسه . حى قيسون . رقم (٢) ل/١/٨٤/١٣ .
(١٨) نفسه . عــدة احياء .
(١٩) نفسه .
(٢٠) انظر على سبيل المثال ، حى عابدين ج ٢ ل/١/٨٤/٢ .
(٢١) نفسه . حى عابدين ج ١ ل/١/٨٤/١ .
(٢٢) نفسه . الدرب الاحمر ج ١ ل/١/٨٤/١٩ .
(٢٣) انظر نماذج من هذا التعداد سنوات ١٨٤٨ و ١٨٧٠ .
(٢٤) البارون دى بوالكمت : التقرير الثانى له المنشور فى كتــاب محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمــد على ص ٢١٧ .
وانظر ايضاً كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٢١٧ .
(٢٥) وثائق ديوان الخديوى (محفظة رقم ٧) .

(٢٦) تعداد النفوس . انظر عدة نماذج من منازل الاتــراك يتبين منها هذه التركيبة فى المنازل فالاغلبية من الحريم ، وغالبا لا يترك هؤلاء ذرية .

(٢٧) سجلات تعداد النفوس ، قوائم الموجودين بالمنازل يتضح منها ان هنالك اعداداً كبيرة من جوارى جورجيا وبلاد الجركس .

(٢٨) سجلات تعداد النفوس عام ١٨٧٠ .

(٢٩) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبــار ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٣٠) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر جــزء ثان ص ١٩٤ .

(٣١) Henry Dodwell : The Founder of Modern Egypt, P. 203

(٣٢) تقرير بوالكمت ص ٢٤٨ .

(٣٣) وثائق ديوان الخديوان محفظه رقم ٧ ٦ شعبان ١٢٥٣هـ /١٨٣٧ .

(٣٤) محافظ ديوان المعية السنية كراس ١١ ملخصات الاوامــر العليــة المستخرجة من الدفاتر امر صادر فى ٥ صـــفر ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠ .

(٣٥) محافظ الابحاث رقم ١٣٠ (اقليات من جزيرة طاشـــيوز) وثيقة رقم ٥٣٠ بدفتر رقم ١٤ معيه تركى بتاريخ غرة صـــفر ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م .

(٣٦) محافظ الابحاث رقم ١١٤ (البولونيون فى مصر) دوسيه بدون رقم بتاريخ ٤ صفر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢ .

(٣٧) محافظ الابحاث رقم ١٣٥ ١١ محرم ١٢٦٣هـ/١٨٤٧م .

(٣٨) نفسه .

(٣٩) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص ٩٠ كتاب الهلال العدد ٤٣٠ اكتوبر ١٩٨٦ .

(٤٠) وثائق ديوان الخديو محفظه رقم ٥ (٢٠ ذى القعدة ١٢٥١هـ ـ فى ١٣ صفر ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م آخر ذى الحجـــة ١٢٥٢هـ) من الجانب العالى الى مأمور الديوان .

(٤١) محافظ الابحــاث رقم ١١٤ دوسيه بدون رقم البولونيون فى مصر دفتر المعية رقم ٤٤ وثيقة ٥٧ بتاريخ ٧ صـــفر ١٢٤٨ هـ ووثيقة رقم ٦٤ بتاريخ ٨ رجب ١٢٤٨هـ ، وانظر ايضاً دفتر ٢١٠ (عابدين) نمرة الامر ١٣١١ أمر كريم الى ناظر الجهادية آخــر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م .

(٤٢) وثائق ديوان الخديوى محفة رقم ٥ (٢٠ ذى القعدة ١٢٥١هـ / آخر ذى الحجة ١٢٥٢هـ) وثيقة بتاريخ ٢٧ جمادى الثانى ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م .

(٤٣) نفسه . وثيقة بتاريخ ٢٩ جماد الثانى ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م .

(٤٤) انظر ديوان المعية السنية (عربى) يومية الجوابات والأوامر الصادرة . دفتر س/١ ٢/١٣ (بيان باسماء الذين رفتوا من طرفنا فى ١١ شوال ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) .

(٤٥) وثائق ديوان الخديوى . محفظة رقم ٥ الفترة التاريخية (٢٠ ذى القعدة ١٢٥١هـ - آخر ذى الحجة ١٢٥٢هـ) . وثيقة بتاريخ ٢٧ ذى الحجة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٧ م .

(٤٦) فيجان : كتاب مخطوط بدون عنوان مودع بدار الوثائق القومية ، مترجم من اللغة الفرنسية ، ترجمة حمدان سلطان ص ١١٩ محافظ الابحاث رقم ١٤٣ .

(٤٧) نفسه ص ١٣٣ .

(٤٨) نفسه ، نفس الصفحة .

(٤٩) إطلعت على مئات الوثائق بشأن التعيينات فى المناصب الادارية والحربية الموجودة فى محافظ ديوان الخديوى ، وهى عبارة عن ثلاث عشرة محفظة فى الفترة من (١٨٠٥ - ١٨٧٤) .

(٥٠) وثائق ديوان . محفظة رقم ٤ (٨ شوال ١٢٤٨ هـ - ٢٩ ذى الحجة ١٢٥١هـ) وثيقة بتاريخ ١٦ صفر ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م .

(٥١) نفسه . محفظة رقم ١٠ (٢ محرم ١٢٥٩هـ - ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠هـ) وثيقة فى ١٥ جماد ثانى ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م .

(٥٢) نفسه . محفظة رقم ٧ (غرة رجب ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م .

(٥٣) كلوت بك : مرجع سابق جـ ٢ ص ٥١٤ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : بناء دولة مصر محمد على ص ٢٤٨ من محادثة دارت بين محمد على والبارون دى بوالكمت ، دونها الاخير فى كتابه بعثة البارون دى بوالكمث ، مصر والشام فى عام ١٨٣٣

(٥٦) وثائق ديوان الخديوى ، عدة محافظ ، انظر محفظة ٥ ، ٧ عدة وثائق متناثرة .

(٥٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : عصر حكا كيان ص ١٣ جوانب من علاقات مصر الخارجية فى عصـــر عباس الأول . سلسلة مصر النهضة العدد ٢٨ الهيئة العامة للكتاب بالقاهـــرة عام ١٩٩٠ .

(٥٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيا فى عهـد الخديوى اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ص ٨ ، ٩ دار المعارف - القاهرة ١٩٦٧ .

(٥٩) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : عصر حكا كيان ص ١٥ .

(٦٠) الياس الايوبى : تاريخ مصر فى عصر الخديوى اسماعيل باشــا من سنة ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ص ٩ المجلد الاول ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٣ « كانت توجد مدرسة فى باريس يطـلق عليهـــا المدرسة المصرية وهى دار تربية اسسها محمد على فى تلك العاصمة وارسل اليها ولديه الاميرين حليم وحسين والامـــير أحمد ولـد ابراهيم ابنه مع نخبة من شباب مصر الاذكياء ، منهم شـــريف باشا ومراد باشا وغيرهما وتحت رئاسة اسطفان بك الارمنى وادارة وكيل لــه اسمه خليل افندى تشيراكيان .

(٦١) المرجع السابق ص ١١ ، ١٢ . بعد ان توفى محمد على قام نزاع بين امراء الأسرة المالكة فيها بين عباس وسعيد حول تقسيم تركته وكبر النفور بين الطرفين . وصدرت ارادة السلطان عبى المجيد آنئذ بإرسال فؤاد افندى وجودت افندى الى مصر ليسويا الخــلاف ويصلحا بين افــراد الأسرة .

(٦٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصــر بتركيـــا ١١ ، ١٤ . ويذكر استاذنا الدكتور أحمد عبد الرحيم أنه حـــين توفى عباس فجأة فى بنها فى ١٣ يوليو ١٨٥٤ حاول أنصاره أن يؤخروا تولية سعيد طبقا لما نصت عليه التسوية إنتظارا لأن تنجح مؤامراتهم فى العاصمة التركية لصالح الأمير الهامى .

(٦٣) صبحى وحيده : فى اصول المسألة المصرية ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٦٤) يتضح من شكل العلاقة بين الافراد هذه الصورة ، وتكشف الاوراق المتبادلة بينهم هذا الاتجاه . انظر محافظ ديوان المعية الســنية ملخصات الأوامر المستخرجـــة من الدفاتر . (١٠ ذى الحجـــة ١٢٤٥هـ - ١٨ رجب ١٢٥١هـ) .

(٦٥) محمد صلاح الدين حلمى : حياة الاتراك الاجتماعيــة فى مصـر ص ٥٨ ماجستير غير منشورة . جامعة القاهرة ١٩٦٠ .

(٦٦) عبد السميع الهراوى : لغة الادارة فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ٢٢٨ .

(٦٧) محافظ الذوات رقم (١) وثيقة رقم ٢٨٨ فى ٤ جمادى الثانية ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م ووثيقة رقم ٢٨٩ فى ٢٢ شوال ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م.

(٦٨) موروبيرجر : البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة ص ٢٥ ترجمة وتقديم د . محمد توفيق زكى .

(٦٩) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عصر محمد على ص ٥٦ .

(٧٠) نفسه .

(٧١) السياستنامة الصادرة فى ربيع أول سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م انظـر كتاب فتحى زغلول المحامى : المحاماه ملحق بنص الوثيقة فى آخر الكتاب .

(٧٢) وثائق الإدارة : محافظ المعية . انظر الاوامر الصادرة من الباشا يتبين منها هذه الاسماء .

(٧٣) وثائق ديوان الخديوى : الرسائل الواردة الى الديوان من حكام الاقاليم دفتر س/١/١٣/٢ .

(٧٤) وثائق ديوان الخديوى محافظ ٦ ، ٧ ، ٨ غرة رجب ١٢٥٣هـ — ذى الحجة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م .

(٧٥) مورو بيرجر : مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٧٦) نفسه ص ٣٧ .

(٧٧) Henry Dodwell : Op. cit, P. 230 .

(٧٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٤٧٦ — ٤٧٧ .

(٧٩) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٨٠) عبد السميع الهراوى : مرجع سابق ص ٢٢٧ .

(٨١) احمد فؤاد متولى (دكتور) : الالفاظ التركية فى اللهجات العربية وفى لغــة الكتابة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٨٢) عبد السميع الهراوى : مرجع سابق ص ١٨١ ، ١٩٢ شاركـت اللغة الفارسية مع اللغتين التركية والعربية فأصبحت اللغــات الشرقية والعربية والفارسية لغات موجودة فى المدارس آنذاك .

(٨٣) احمد فؤاد متولى (دكتور) : مرجع سابق ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٨٤) Henry Dodwell, Op. Cit, P. 202

(٨٥) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مرجع سابق ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٨٦) مورو بيرجر : مرجع سابق ص ٣٩ .

(٨٧) محمد صلاح الدين حلمى : مرجع سابق ص ٩١ .

(٨٨) Henry Dodwell, Op. Cit, P. 230

(٨٩) كلوت بك : مرجع سابق جـ ١ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٨ .

(٩٠) سجلات تعداد النفوس / يتبين من قراءة هذه السجلات هذه الحالة ، فقد كان من الواضح ان منازل اثرياء الترك تحتوى على اعداد كبيرة منهم فعلى سبيل المثال كان منزل احدهم يحتوى على ١٧ فردا ، اكثرهم من الجوارى الاناث ولا نجد الا مملوكاً او اثنين على الاكثر .

(٩١) Henry Dodwell, Op. Cit, P. 2310

وثائق ديوان الخديوى ، محفظة رقم (٧) (غرة رجب ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م) .

(٩٢) وثائق ديوان الخديوى : رسالة من الجانب العالى الى حبيب أفندى (مامور الديوان) فى ربيع أول ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م .

(٩٣) ادوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر مترجم ص ٧٢٤ .

(٩٤) كلوت بك : مرجع سابق جـ ١ ص ٥٣٢ .

(٩٥) ادوارد جوان : مرجع سابق ص ٧٢٤ .

(٩٦) سجلات محكمة محمية الاسكندرية (اشهادات) رقم (١) ٢٨ صفر ١٢٧٣هـ ـ ١٢ رجب ١٢٧٦هـ وثيقة مؤرخة فى عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م .

(٩٧) نفسه : ٩ ربيع اول ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م .

(٩٨) وثائق ديوان الخديوى ، محفظة رقم (٤) (٨ شوال ١٢٤٨هـ/ ٢٩ ذى الحجة ١٢٥١هـ من الجناب العالى الى حبيب افندى وثيقة مؤرخة فى ٢٥ رجب ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م يامره بأن يتداول الرأى مع الميرلوا خورشيد بك بخصوص انتخاب الضباط المقرر تزويجهم بمعتوقات ولى النعم » .

(١٠٠) وثائق ديوان المعية السنية دفتر ٢٣ وثيقة ٨ عام ١٨٢٧ .

(١٠١) الجوائب فى ٢ يونيو عام ١٨٦٨ (تحت عنوان ـ فى بيع الرقيق بالآستانة) .

(١٠٢) وثائق المحاكم الشرعية · يتضح من قراءة سجلات كثيرة فى محاكم الأقاليم والعاصمة انه كانت تتم حالات زواج بين الجوارى والرقيق · وهناك أمثلة عديدة على ذلك ·

(١٠٣) وثائق المحاكم الشرعية (حالات زواج وطلاق عديدة) يتبين منها ان الشركسيات كن يتمتعن بمكانة اجتماعية ممتازة ·

(١٠٤) مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس الثانى ص ٥٦ كتاب الهلال العدد ٣٥٦ سغسطس ١٩٨٠ ·

(١٠٥) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١) ص ٨ فى ٢٩ جماد ثان ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م ·

(١٠٦) محافظ بحريرا رقم (١٧) وثيقة رقم ١٠ عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م ·

(١٠٧) وثائق ديوان الخديوى ، محفظة رقم (٢) ، ١٠ صفر ١٢٤٤هـ/ ٢٩ ذى الحجة ١٢٤٥هـ وثيقة مؤرخة فى ١٧ ذى الحجة ١٢٤٥هـ /١٨٢٩م ·تفيد أنة كان من المألوف أن يسافر هؤلاء الى بلادهم النازحين منها فى اجازة اذا اقتضى الأمر ثم يعودون مرة أخرى

(١٠٨) وثائق ديوان الخديوى · محفظة رقم (٢) ، ١٠ صفر ١٢٤٤هـ/ ٢٩ ذى الحجة ١٢٤٥هـ وثائق من رقم ١٣٥ ـ ٣٥٩ ابتداء من وثيقة ١/٢٦٠ ·

(١٠٩) وثائق المحاكم الشرعية ، يتضح من قراءة هذه الوثائق ان الاعتبارات العرقية أو الدينية لم يكن لها اى اثر فى المعاملات)· بل المصالح وحدها · (أنظر أمثلة على ذلك فى المعاملات) ·

(١١٠) محمد امين حسونة : كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر ص ١٢٧ ·

(١١١) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقة مصر بتركيا ص١١ ·

(١١٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : عصر حكاكيان ص ٦٠ ·

(١١٣) محمد أمين حسونة : نفس المرجع ص ١٣٥ ·

(١١٤) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) : ١٣ ذى الحجة ١٢٧٥هـ /١٨٥٩م ·

(١١٥) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) رقم ١٩ فى ١٨ أغسطس ١٨٨٩م ·

(١١٦) جب ، بوون : المجتمع الاسلامى والغرب جزء أول ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(١١٧) محكمة الشرعية سجل (٢) اشهادات ١٥ جماد ثانى ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م مثال ، زواج اسـتانلى محمد بن على (أونباشة بالجبخانة) من أمينة بنت محمد المصرى .

(١١٨) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) رقم (٣) عام ١٨٦٩م .

(١١٩) ادوارجوان : مرجع سابق ص ٧٢٥ .

(١٢٠) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) رقم (١) وثيقة مؤرخة فى ٩ شوال ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م .

(١٢١) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) ، رقم (٣) الفترة من ١٠ جماد أخر ١٢٨٥هـ / ١٠ محرم ١٢٩٣هـ . وثيقة مؤرخة فى ١٨ شعبان ١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م .

(١٢٢) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) رقم (١) رجب ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م .

(١٢٣) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) رقم (٣) ١٩ ذى الحجة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م .

(١٢٤) وثائق ديوان الخديوى ، خاص بتعيينات فى الوظائف ، وفيها تحقيق فى أخر كل وثيقة ممهورة من شيوخ الأحياء فى مدينة القاهرة ، يتبين منها الحالة الاجتماعية لكل من يطلب وظيفة من الديوان الخديوى ، وقد ثبت منها أن معظم هؤلاء كانوا بلا ذرية وانهم متزوجون من جوارى معتقات لهن أبناء من أزواج سابقين .

(١٢٥) سجلات محكمة الاسكندرية الشرعية رقم (٢) ٢٢ رجب ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م .

(١٢٦) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (٣) ١٥ محرم ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م .

(١٢٧) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١) ٣ صفر ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م .

(١٢٨) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١١) ١٢ ربيـع أول ١٣٠٢م / ١٩ ربيع أول ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م .

(١٢٩) كلوت بك : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩ ٠
(١٣٠) مذكرات الأميرة جويدان ص ٥٥ ٠
(١٣١) محمد صلاح الدين حلمى : مرجع سابق ص ١١٤ ، ١١٥ ٠
(١٣٢) كلوت بك : مرجع سابق جـ ١ ص ٦٠١ ٠
(١٣٣) سجلات تعداد النفوس : يتبين من قراءة كثير من هذه السجلات أن بيوت الأوربيين كانت تضم جوارى ورقيق ، وانهم كانوا يعتقون هؤلاء الجوارى متى أرادوا ٠
(١٣٤) كلوت بك : مرجع سابق جـ ١ ص ٥٣٦ ٠
(١٣٥) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، اشهادات ٠ سجل رقم (٣) وثيقة مؤرخة فى ذى القعدة سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٥م ٠
(١٣٦) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، اشهادات ٠ سجل رقم (٢) وثيقة فى ١٥ محرم ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م ٠
(١٣٧) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، رقم (١٩) ١٧ يوليو ١٨٨٦ ٣٠ يوليو ١٨٨٩ ٠
(١٣٨) محمد صلاح الدين حلمى : مرجع سابق ص ١٢٢ ٠
(١٣٩) مذكرات الأميرة جويدان ص ٧٨ - ٨٠ ٠

● ● ●

الفصل الثالث

الشـــركس

الشـــــركس

كما امتد أثر الشركس الى قصور الاتراك فأصبحت نساؤهم صاحبات الكلمة المسموعة والتأثير المباشر على الصفوة التركية الحاكمة فى مصـر انئـذ ٠

يأتى الشركس فى المرتبة الثانية بعد الأتراك كأغلبية عرقية نازحة الى مصر فى القرن التاسع عشر ، وموقع هذه الأقلية بالنسبة الأتراك هو موقع العناصر التى اعتمد عليها الاتراك بصفة أساسية حيث يدينون بوجودهم للاقلية الشركسية على الصعيدين الرسمى والشعبى ، اذ ألف الشركس نخبة من رجال الادارة والحكم والجيش ٠

والواقع أن وجود الشراكسة فى مصر قديم ، يعود الى البدايات الأولى لنزوح عناصر مناطق القوقاز الى مصر أو جلبهم اليها للخـدمة فى الجيش ، وقد تمكنوا فى عصور مختلفة من الوصـــول الى كراسى الحكم ، وعرفوا بأسم المماليك وكانوا عضدا قوياً للسلاطين ، واصبحوا بعد ذلك يشكلون نسيجا فى الارستقراطية الحاكمة التركية فى مصر ٠

● **أماكـن تركيزهم :**

هناك حقيقة بارزة فى تاريخ الشركس فى مصر هى ، أنهم بخلاف الاتراك كانوا يعدون أنفسهم غير غرباء عن مصر ، فهى موطنهم الدائم الذى لا يعرفون وطنا سواه ٠ وهذه الحقيقة تعود الى أن شراكسة القرن التاسع عشر فى مصر كانوا يدركون أن لهم أسلافا قدموا الى وادى النيل وتأقلموا فيه ٠ وقد ساهمت هذه الحقيقة فى جعلهم يتفانون فى خدمة السلطة المركزية للبلاد أنئذ ، وكانت على نحو ما هو معروف فى يـد محمد على وخلفاؤه طوال القرن التاسع عشر ٠ وخلال عصر محمد على تعرضوا لمذبحة عام ١٨١١ التى قضت عليهم ، وبقى نسلهم ومن وفـد الى مصر فيما بعد من غير هؤلاء ، الا أن نساء الشركسة لم يتعرضن لنفس المصير ، فبقيت أعدادهن كما هى موزعة فى أرجاء مصر فى

المدن والاقاليم يمثلن الارستقراطية الاجتماعية فى المجتمع المصـــرى وازدادت مكانتهن رفعة بمضى الوقت · وقد سمح النظام الاجتماعى القائم لهن بالوصول الى هذه المكانة ، فالرق كان يمثل أساس هذا النظام ، والشركسيات كن يمثلن أعلى الدرجات ويفضلن الحبشيات والسودانيات· ولا يكاد يخلو قصر أو منزل من منازل الاتراك منهن (١) ، فضـلا عن أن الشركسيات اندمجن مع أثرياء المصريين وتزوجن منهم (٢) · معنى هذا أن الشراكسة انتشـروا ـ بخـلاف الاتراك ـ فى مناطق كثيرة من البـلاد ·

وكان أكبر عدد من حريم أسرة محمـد على من الانـاث البيض الشركسيات ، ففى القصور المنتشرة فى القاهرة والاسكندرية توجـــد أعداد كبيرة منهن · وتشير (وثائق تعداد النفوس) و (سجـــلات المحاكم الشرعية) الى أن أعدادهن كانت كبيرة · ويصعب جـدا حصـر أعدادهن من هذه الوثائق · والواقع ان المصادر المختلفة التى تتناول أعـدادهن فى الغالب غير دقيقة ، فتشير بعضها الى ان العدد لايزيد عن ٣٠٠٠ من الاناث ذوى البشرة البيضاء فى الخمسينات من القرن التاسع عشر (٣) ولا ندرى ما اذا هذا العدد يقصد به اللواتى كـــن فى القصور وحدها أم الاناث المعتقات ، اذ أن الشركسيات كن ينقسمن الى فريقين : الفريق الاول ، وهو الاقل عـددا وهن اللواتى فى القصـــور وبيوت الاتراك والفريق الثانى ، وهو الاكثر عددا ، وهن اللواتى تـم تحريرهن وتم توزيعهن بين المناطق المختلفة فى مصر فى الفترة مـن عام ١٨٧٧ الى عام ١٨٨٢ · وفى الغالب كان الفريق الثانى منهـن بمجرد أن يتم عتقهن يصرن زوجات لأحـد عناصر الأقليات التركيـــة او غيرها واكثرهن بعد الستينات من القرن التاسع عشر تزوجن من عناصر وطنية اى من الاغلبية وكن أسرع فى قابليتهن للذوبان فى هذه الأغلبية ، واننا ينبغى أن نأخذ ما أوردته المصادر المختلفـة فى هـذا

الشأن بشيء من الحذر ، خصوصا اذا عرفنا أن المصادر المخطوطة التى اشرنا اليها منذ قليل يتردد فيهـــا فى احايين كثيرة اسماء هـــؤلاء الشركسيات فى مناطق عديدة خارج القاهرة · ومع ذلك فاننا لا ننـكر ان اغلبية منهن كن فى العاصمة والاسكندرية فى قصور ومنازل الاتراك ، وبمجرد عتق إحداهن وزواجها إما من سيدها أو ابنـه أو مملوكـه ـ وكان شركسيا فى الغالب ـ بمجـــرد عتقها ترث الاطيان والعقـــارات والامـــوال · والشـــركسيات عمـــوما كن يؤثرن البقـاء الى جـــوار الرجال الاتراك بصفتهم الحـــكام وأصـــحاب الثروة ويفضـــلن رق الأنوثة على نوال حريتهن ، وإذا إضطرت الى ذلك فإنها قد لا تقطع صلتها بسيدها (٤) · لذلك جاء رق الشركسيات كجزء من نظام اجتماعى يمتد بجذوره بعيدا جدا عن القرن التاسع عشر ، ومن ثـم لم يكـــن بوسع أى حاكم أن يلغيه أو يقضى عليه (٥) · ومعروف أنهـن يمثلن الحريم الذى له قداسة تحول دون التعرض لهن أو التعرف عليهن · ومجتمع الشركسيات فى مصر فى القرن التاسع عشر هو مجتمع الحريم فى القصور وفى منازل الاتراك عموما · ولم يتعرض هذا المجتمـــع للتناقص فى العدد إلا فى الأوقات التى تعرضت فيها منابع جلبهـــن للضغط ، وهذا الضغط فى سنوات الغزو الروسى لمناطق شرق البحـــر الاسود ، اى مناطق الجركس وجورجيا (٦) ·

وفى الاحوال التى تاثر فيها الرق الابيض الشركسى لانخفـاض أعـداد المجلوبين منه الى اسواق الرق فى مصر ، تدفقت على مصر اعدادا كبيرة جداً من رقيق الجنوب من مناطق سنار ودارفور والحبشة ، واختلط بالرقيق الشركسى فى منازل وقصور الاتراك التى أصبحت تضم خليطا من عناصر الاقليات العرقية التركية الشركسية الحبشية يجمعها الولاء للسلطة والرغبة فى الانضمام الى الطبقة العليا فى المجتمع · وتميزت الشركسيات على الحبشيات والسودانيات فالاولى يصل سـعرها

أضعاف الثانية ، بالاضافة الى انها تخصصت فىأعمال تدل على انهن ذوى مهارات فى اشغال نسوية راقية مثل أعمال الابرة والموسيقى والقراءة وفن إدارة المنزل لذا كانت بيوت وقصور الاتراك تضم نسبة قليلة منهن بالمقارنة بالحبشيات اللاتى تخصصن فى الاعمال المنزلية الدنيا التى هى اقرب الى أعمال الخدمة اما العنصر الرابع فى منازل وقصور الاتـراك ـ وكـان ضئيلا للغاية ـ فكان من الوطنيات ويعلمن فى أدنى الاعمال (٧) .

هذه التركيبة السكانية الفريدة لبيوت وقصـور الاتـراك ـ التى اعتمدنا فى رصدها على تعداد النفوس فى اعوام ١٨٤٨ و ١٨٧٠ ظلت مستمرة وتمثل مجتمع الاقليات فى مصر والتى انفردت الشركسيات فيه بموقع الصدارة .

اما الشركس الذكور وهم رقيق ايضا فلم يبلغـوا المنزلـة التى إحتلها الاناث منهم فى منازل وقصور الاتراك ، وكانت اعدادهم اقل بكثير من الاناث . وهم اكثر التصاقا بالاتراك من اى اقلية اخـرى . وينتسبون الى هؤلاء الاتراك فلا نكاد نميز كليهما عن الآخر ، فيمكن ان يقال عن الواحد منهم مملوك او ابن التركى او يقال عنه تركى مملوك. وهم بخلاف الاتراك لم يعملوا فى مجالات غير التى نشئوا عليها مثل العسكرية او الادارة ولكن الاتراك اشتغلت أقلية منهم بأعمال اخـرى ضئيلة الشأن . وبالتالى حافظ الشركس اناثا او ذكوراً على منزلتهم بالرغم من انهم يأتون فى الترتيب الثانى بين الاقليات العرقية . وذكور الشركس لا يتزوجون من غير بنى جلدتهم ـ بخلاف الاناث ـ فالذكور كما تـدل وثائق المحاكم « سجلات قيد الانكحة وفرض النفقات وثبوت الطلاق والصلح بين الزوجين » لا يتزوجون الا من الشركسيات بعـد ان يتم عتقهن . وقد حافظوا على هذه التقاليد بشكل صارم وسـاعد حكام الاتراك على ذلك فكانوا يزوجونهم طبقاً لهذه القاعدة ، ممـا

جعل الاقلية الشركسية تتميز على غيرها من الاقليات العرقية بميزتين : الاولى ، حفاظها على تقاليد زواج الذكور من الاناث من بنى جلدتهم فنستطيع ان نجد عائلات شركسية خالصة والثانية ، زواج اناث الشركسيات من الاتراك او من غيرهم . مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن الاقلية الشركسية كانت من أكثر الاقليات اندماجاً مع غيرها من العناصر سواء أكانت اقلية او اغلبية وبالتالى تشتبك جذورها بالعائلات الوطنية وتشترك معها بصلات اندماجية من نوع خاص اكثر من اى اقلية أخرى . ويحتمل ان تكون جميع الارقام الخاصة بالاقلية الشركسية منخفضة للغاية (٨) .

وفى بيوت اعيان المصريين تواجدت الشركسيات باعداد قليلة فى اواخر عصر محمد على ، وفى اوقات الهجرة الكبرى من بلاد الشركس الى تركيا خلال اواخر الخمسينات واوائل الستينات من القرن التاسع عشر . ولكن نجد أن وصولهن الى مصر تزايد بشكل هائل نتيجة لانتعاش سوق القطن (٩) . وكان المصريون يفضلون الشركسيات على المحظيات الملونات كلما سنحت لهم فرصة الشراء أو عندما كانوا يأخذونهن كهدايا من أسرة محمد على - فمما يلفت الانتباه انه ابتداء من عصر محمد على كانت الشركسيات يتحولن الى زوجات للمصريين ولم يصبحن من الرقيق فى بيوتهن كما هو الشان بالنسبة للاتراك . مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان عدد كبير من بيوت أعيان من المصريين أصبحت الزوجة فيه من اصول شركسية . ولما كانت هذه الشركسيات مجهولات النسب كما نعلم ، فقد كان طبيعياً ان يصبحن اكثر ميلاً واستعدادا للانصهار فى الاغلبية . أما الذكور فقد كانوا لا يميلون كثيرا الى الاندماج فى الاغلبية فظلوا مرتبطين بالاتراك يأخذون عنهم عادات وتقاليد الطبقة الارستقراطية التركية ، مما باعد بينهم وبين الاغلبية فانعزلوا داخل اسوار قصورهم او قصور الاتراك .

الارستقراطية الشركسية :

هى خليط من العسكريين ورجال الادارة والحكم فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، هؤلاء الشراكسة تربوا فى حجر الارستقراطية التركية صغاراً أو نزحوا الى مصر كباراً فى أوقات الحاجة اليهم ، ومعظمهم تمت تنشأته لأغراض القتال والحكم وتدرجوا فى هذه التنشئة وفقاً لنظام صارم - وتلقى البعض منهم تعليمه فى أوروبا - فى باريس تحديداً - وتدرب على أحدث الاساليب العسكرية (١٠) . وخلال تنشئته أيضا تشرب الجرعة الاولى فى « مدرسة المفروزة » ، وهى المدرسة التى تخرج فيها كبار الضباط سواء أكانوا أتراكا أو شراكسة (١١) تلقوا فيها تعليماً عثمانيا خالصا لذلك جرت عملية تنشئة وتكوين العناصر الشركسية بأيدى تركية خالصة ولصالح الارستقراطية التركية أولا . وكان عددهم أقل فى الجيش من الاتراك بسبب القيود التى فرضت من جانب استانبول على هجرتهم الى مصر وتدهور تجارة الرقيق الشركسى الوارد من مناطق نزوحهم الاصلية ، ومع ذلك كان العنصر الشركسى فى الجيش له خبراته الخاصة به وقليلون منهم لم ينخرطوا فى الحياة العسكرية وبقوا غلمانا فى قصور أسرة محمد على الا أن اكثريتهم كان يتم عتقه وتقلده الدرجات والمناصب العسكرية والمدنية فى أنحاء مختلفة من البلاد (١٢) .

وعناصر الارستقراطية الشركسية - خصوصا أصحاب المناصب الرفيعة فى الجيش - كانوا يتنقلون خارج مصر وفقاً للمهام الموكولة اليهم وذلك لتحقيق الأهداف الرامية الى الاستقلال بمصر عن فلك استانبول . وهم بخلاف الاتراك اعطوا ولاءهم ، وربما لم يعرفوا لهم ولاء لغير مصر ، فالاتراك مثلاً كانوا كثيرى الاتصال بمواطن رؤوسهم الاصلية علي حين كانت الارستقراطية الشركسية من النوع الذى لا يرى

غــير مصر موطناً لهــا ، فلا نكاد نعثر فى « وثائق ديوان الخديوى » ـ وهى الوثائق التى تسجل تصرفات هذه العناصر وغيرها من عناصر الاقليات العرقية الاخرى ـ على ما يــدل على أن أيــاً من عناصـــر الارستقراطية الشركسية يرغب فى الخروج من مصـــر (١٣) ولكننــا نرى عكس ذلك ، فملفاتهم الحكومية من وقت التحاقهم بالخدمة حتى وفاتهم تبين ان مصر كانت قبلتهم وانهـــم كانوا متمسكين بالبقـــاء فيهـــا (١٤) ٠

والواقع ان الارستقراطية الشركسية تلقت اسس بنائها من الاتراك من حيث النعرة الجنسية والشعور بالترفع عن الاغلبية والطابع العنصرى العرقى ، ولكن تميزت على الارستقراطية التركية ـ على نحو ما ذكرت ـ بتكوين الولاء والانتماء لمصر ٠ وربما كانت نعرة العنصرية التى أصابت الارستقراطية الشركسية ناشئة من شعورها بالتميز الطبقى على الاغلبية الوطنية ٠ فالشركس من الرقيق اصلا ، وبالتالى فانـــه من المبالغــة القول بانهم كانوا يغالون فى التعصب الجنسى على غرار ما يفعـــل الاتـــراك ٠

والشركس يتميزون عن الاتراك بأنه لم يكن بينهـــم عناصـــر اشتغلت بأعمال ضئيلة الشـــان ٠ فهم اما من كبار الضــباط او من الصفوة المدنية او ملحقين بقصور وبيوت الكبراء ، فليس هناك مملوك رقيق الحال بل كانت لهم حظوة عند كبـــار الاتراك الذين كان الواحـــد منهم لا يعتبر أنـــه فقد ثروته التى جمعها ، او الوظائف التى شغلها ، اذا خلفها أو ورثها لواحد من هؤلاء الشراكسة (١٥) ٠

ومن الصعب التعرف على عناصرهم فى الارستقراطية نظـــراً للتشابه بين اسمائهم واسماء نظرائهم الاتراك ، بالاضافة الى انه كان من المالوف تغير اسمائهم بين الحين والآخر وملفاتهم الخاصة تـــدل

على هذه الحقائق ، فنجد على سبيل المثال ، ان خالد نديم ـ رئيس المجلس العسكرى فى مصر ١٨٨١ وهو احد معاتيق محمد على باشا هو نفسه خالد الشركسى • كذلك محمد خورشيد باشا هو نفسه جركس خورشيد وهكذا (١٦) • ولكن فيما يبدو أنه بسبب قلة اعدادهم كان من المألوف ان تسجل اسماؤهم ورتبهم دون ذكر أصولهم العرقية ـ فى بعض الاحيان ـ مما يجعل من الصعب حصر أعدادهن كاملة •

والارستقراطية الشركسية لا تعتمد على أصولها العرقية ـ كما هو الحال بالنسبة للاتراك ـ وانما كفاءة عناصرها فى الجيش والادارة والوظائف المدنية عموما هى التى تؤهلها للوصول إلى أرقى المناصب • اما الاتراك فكانوا يعتبرون أن عرقيتهم وأنهم طبقة السادة كفيلة بترقيتهم وإنفرادهم بالسلطة • وملفات الشركس توضح هذه الحقائق بجلاء • فكثيرا ما تعرض كبار الشراكسة للإبعاد من مناصبهم ولم يحمهم الا أن يعودوا فيثبتوا جدارتهم ولا يكاد يخلو ملف احدهم من رفت من الوظيفة أو طرد أو استبعاد (١٧) • فى نفس الوقت الذى تبين وثائق ديوان الخديوى وصول عدد كبير من الاتراك ـ خصوصا من أبناء قوله ـ موطن رأس محمد على ـ الى المناصب الكبيرة دون تأهيل لهذه المناصب (١٨) •

وعناصر الارستقراطية الشركسية كانت تمثل اقلية كثيرة العدد إذا قارناها بأعداد غيرها من الأقليات العرقية الأخرى ، فالاتراك وان كانوا اكثر منهم عدداً الا أنهم كانوا ينحدرون من أصلاب عديدة وينقسمون الى عدة فرق وموزعى الولاء بين أفراد أسرة محمد على (١٩) على حين كان الشراكسة يمثلون أقلية ينتمى اغلبها الى بلاد الشركس وجورجيا ، فهناك الشركسى او الجورجى وجميعهم ظروفهم متشابهة مما أورثهم تشابها مماثلا فى النزعة والسلوك لذلك كانت الأقلية الشركسية

اكثر تماسكا من الاقلية التركية ، وكان افرادها يستشعرون هذا التماسك اكثر من الاتراك . لذلك قامت سياسة محمد على واسلافه على الاستعانة بهم بحرص وباعداد لا تهدد التوازن بينهم وبين الاتراك (٢٠) .

واستطاعت عناصر الاقلية الشركسية فى مصر خلال القرن التاسع عشر أن تكون صفات جديدة تجعلها مختلفة عن اسلافهم المماليـــك ، فقبل عصر محمد على كانوا يحتلون أعلى المراتب فلما جاء محمد على زحزحهم عن هذه المكانة ومع ذلك لم يضعف تأثيرهم واصبحت اناثهم فى بيوت كبار الاتراك او الارستقراطية التركية أدوات للتغلغـــل فى المجتمع التركى (٢١) . فأصبحن القـــوة الاولى المؤثرة على الحكم والادارة فى مصر ، بالاضافة الى نجاحهم فى السيطرة على مساحات كبيرة من الاطيان الزراعية (٢٢) . لذلك يمكننا القول ان المجتمع الشركسى فى مصر وان إنتقل من الناحية الظاهرية الى المرتبة الثانية بعد انفراد الترك بالسيطرة الا انه أصبح أكثر إستقرارا عن ذى قبل وبالتالى اكثر قابلية للاندماج بالاغلبية .

وهذه حقيقة هامة فى تاريخ الاقلية العرقية الشركسية تبين لماذا كانت هذه الاقلية أسرع من الأقلية التركية فى الذوبان فى الاغلبية فيما بعـد ، بخلاف الاتراك الذين ربطوا جذورهم العرقية بمناطق نزوحهم الاصلية فظلوا مشتتين فى ولائهم ، فباعد ذلك بينهم وبين الاغلبية ، فلم يندمجوا قط بها ، وحرموا من الاستقرار . ولم تفارقهم النعرة العرقية العنصـرية .

وكان تزايد أعداد أفراد الاقلية الشركسية خلال القرن التاسـع عشر فى مصر أمرا طبيعيا ، بعد أن أستقروا واصبحوا أقلية محكومة فأى نظرة الى تعدادهم فى بيوت الاتراك من واقع احصائيات عـــام ١٨٧٠ تبين هذه الزيادة الملحوظة في أعدادهم ، فنجد أن بيـوت

بعض كبار الضباط الأتراك بها اغلبية شركسية وأقلية تركية (٢٣) ·
صحيح أنهم كانوا رقيقا فى هذه البيوت التركية ولكنهم كانوا يمثلون
نسيجاً يقويه الاستقرار بخلاف الاتراك الذين كانت اعدادهم آخـذة فى
التناقص ونسيجاً يغلب عليه الوهن · فبعض بيوت الاتـــراك ـ فى
الأحيـاء التركية فى القاهرة فى السبعينات كان عـدد أفرادها يبـلغ
١٦ فـرداً اكثر من نصفهم من الشراكسة ويقارب النصف الآخر رقيـق
أسـود ولا يزيد عـدد الاتراك فيـه على الزوج والزوجة (٢٤) ·

وعكس ما يتردد بأن تجارة الرقيق الابيض توقفت فى الستينات
من القرن التاسع عشر · فانه يلاحظ ان مسألة الغـاء الرقيق الابيض
خصوصا لم يكن من السهل القضاء عليها · وأنه يلاحظ أن أعدادهم
كانت تتزايد ـ وان الجلابة او اليسرجية ، وهم طائفة معروفة آنئـذ
كانوا يروجون لهذه التجارة وكان تجار الرقيق فى المدن التى تقع على
طريق استانبول الاسكندرية مثل عينتاب وملطيه وخربوط وعربكـــير
يمدون مصر بهؤلاء الشراكسة النازحين عبر استانبول الى مصر (٢٥) ·

معنى هـذا انه فى الوقت الذى كانت الاقليـة التركيـــة تتناقص
أعداد افرادها ، كانت الاقلية الشركسية تتدعم ، وتزايدت هذه الظاهرة
بعد أن إختل التوازن الذى كان يحرص عليه محمد على ، خصوصا
فى أواخر عصر عباس باشا وفى عصر اســماعيل · وتفيـــد بعـض
الاحصائيات ان عدد الشراكسة بلغ ٥٠٠ فـرد فى منزل عباس باشـا
وحـده ، وان حوسيار والدة اسماعيل باشا كانت تأوى فى « قصر
الزعفران » نحو ٣٠٠ فتاه شركسية (٢٦) ·

وهكذا يتبين لنا أن التواجد الشركسى فى مصر كان يتدعم وأن
هؤلاء المماليك الذين نجح محمد على فى زحزحتهم عن مكان الصدارة ،
أصبحوا عند أواخر القرن التاسع عشر أكثر قوة من ذى قبل · على حين

كان الاتراك ــ وهم الحكام الفعليون ــ متقوقعين داخل اطار النزعة العنصرية العرقية . لذلك من المهم توضيح أبعاد القوة التى كانت تميز الأقلية الشركسية .

الأحوال الاقتصادية :

كان الشركس يستقدمون الى مصر للعمل فى الجيش والارتقاء عن طريقه الى أرفع المناصب ، فلما أمكن زحزحتهم عن مكان الصدارة فى عصر محمد على وتبوأها الاتراك ، أصبحوا أكثر ميلا للانخراط فى الحياة المدنية ، وبالتالى أخذوا يحلون فى الظهور فى المجتمع المصرى بوصفهم أقلية تشارك فى الحياة الاقتصادية . والواقع أن النظام الاجتماعى السائد ، والذى كان يقوم على الرق كان وراء شغل الشركس للمكانة الاقتصادية الهامة التى احتلوها . ومعلوم أن الرقيق الأبيض الشركسى كان له الصدارة فى مجتمع الأقليات العرقية فى مصر آنئذ ، فاناث الشركس ــ أو الجوارى الخديويات ــ أو ذكورهم من رجال الحاشية أو الضباط أو كبار الموظفين كانوا الفئة المرشحة لتولى الصدارة أيضا فى المجال الاقتصادى ، فالجارية الشركسية كان لايكتفى بامهارها المال الوفير عند الزواج بل كانت تقطع أرضا تتراوح مساحتها بين المائة فدان والخمسمائة فدان حسب مقام زوجها . ويتكفل سيدها بجهازها وملابسها وحليها ، وينعم عليها بقصر أو بمسكن فخم، ومركبة بجوادين، ويرتب لها مصروفا شهريا ، ويفضل زوجها على غيره فى الترقية الى المناصب العليا (٢٧) . أما الضباط وكبار الموظفين الشراكسة فقد كانوا يحصلون على الابعاديات والمرتبات العالية (٢٨) .

أما اكثر اناث الشركس ثراء فهن اللاتى تزوجن من أسرة محمد على . ومعروف أن أكثر زوجات ذكور أسرة محمد على كن من الشركسيات . هذه الأسرة التى كانت تملك أكبر مساحة من الأراضي

الزراعية فى مصر فى القرن التاسع عشر . وكان أكبر مالك فى هذه الأسرة هو الخديوى الحاكم (٢٩) . وفى وثائق ملكيات الأراضى الزراعية - التى توضحها سجلات المحاكم الشرعية - مايدل على أن مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية أصبحت مملوكة لاناث الشركس ، وانه كان مرتبا لهن مبالغ شهرية يصرفها ديوان الرزنامة ، وانهن كن يلعبن دورا هاما فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وان قصور وسرايا كبار الاتراك المتزوجين من شركسيات كانت تتم فيها كل صور النشاط الاقتصادى آنذاك ، والتى تركزت فى اتخاذ الأساليب العديدة من أجل تكوين الضياع الكبيرة بعد أن منحهم النظام الجديد الذى استحدثه محمد على بالغاء نظام الالتزام عام ١٨١٤ - كل الفرص للقيام بهذا الدور فى الحياة الاقتصادية ، فازداد حجم المعاملات فى الأراضى ، وقد بلغت مساحة الأراضى التى أصبحت عهدة أسرة محمد على - طبقا للبيانات والاحصاءات الواردة بالمستندات الرسمية - ٣٠٠ر٠٠٠ فدان . وان نظام الجفالك ، وهو نظام بدأ فى عصر محمد على أيضا ، ومعناه الأرض التى يهبها الحاكم كان أيضا من أهم العوامل فى تكوين الضياع الكبيرة لأفراد أسرة محمد على وورثتهم . وتتردد فى الوثائق أسماء شركسيات متزوجات من كبار أفراد الأسرة المالكة فزن بنصيب الأسد وانهن تملكن جفالك فى نواحى عديدة من أراضى مصر الزراعية فأحدها مملوك لورثة ابراهيم باشا يكن ابن شقيقة محمد على وأخرى يمتلكها طوسون ونجل سعيد باشا وثلاثة جفالك يمتلكها الهامى ابن الخديوى عباس والباقى لأسرة محمد على (٣٠) .

ورغم أنه لا توجد بيانات واضحة عن مساحة الأراضى التى منحت فى القرن التاسع عشر للابعاديات والجفالك الا أنه يمكن من خلال أوراق المحاكم الشرعية تتبع الدور الذى لعبه الشركس فى مجال النشاط الاقتصادي . ويتبين بوضوح انهم أصبحوا الملاك الحقيقيين للاراضى

الزراعية ، فبلغت المساحات التى وزعها محمد على عليهم نحو ربـــع مليون فدان (٣١) ٠ هذه المساحات كانت فى صورة دوائر زراعية واسعة تخضع لنظام اقتصادى يركز ملكية الاراضى فى يد هؤلاء الشركس ذكورا او اناثا ٠ وهى منتشرة فى جميع أنحاء مصر ٠ وكل دائرة قائمة بذاتها ويتولى كل دائرة أحد النظار الذى كان يتمتع بســـلطة مطلقة ونفوذ واسع ويتبين من أوراق المحاكم الشرعية شكل العلاقات الاجتماعية التى كانت تربط أصحاب هذه الدوائر من الشراكسة بـكل عناصر الأقليـات الأخرى أو الأغلبية الوطنيـــة ، وهى علاقات مترتبة على الاوضـــاع الاقتصادية للاقلية الشركسية ، التى أصبح أفرادها يمثلون ـ كما ذكرنا ـ الملاك الحقيقيين للاراضى الزراعية ٠

أمـلاك اناث الشركس :

تحولت ـ كما أشرنا من قبل ـ قصور وسرايا أفراد أسرة محمـد على الخاصة الى أماكن يتم فيها كل الوان النشاط الاقتصادى على يـد اناث الشركس المتزوجات من الحكام الاتراك من أسـلاف محمـد على فيتبين أن « انجى هانم أفندى » مثلا ، حرم سعيد باشا (والى مصر) وهى شركسية كانت تمتلك مساحات واسعة من الأطيان الزراعية ، وأنها فى عام ١٨٨٩ أوقفت هذه المساحات ـ والتى كانت فى شـكل أطيـان عشورية ـ وكانت على النحو الآتى ، أربعون فدانا فى أراضى « أبعادية زاوية نعيم بمديرية البحيرة » ، وخمسون فدانا فى أراضى أبعـــادية دمنهور وسبعمائة وعشرون فدانا أخرى فى نواحى مديرية البحيرة فى مناطق شبرا والدمنهورية (٣٢) ٠

أما « فلكو هانم » الشركسية زوجة محمد على باشا الصغير نجل محمد على ، فقد كانت تمتلك عام ١٨٨٩ أبعادية (رزق أحباسـية)

قدرها سبعمائة وستة وسبعون فدانا وكسور فى أراضى ناحية سندبيس مركز المحلة الكبرى بمديرية الغربية (٣٣) ٠

هذان المثالان اللذان أوردناهما يعكسان دون شك الأوضاع الاقتصادية للاقلية الشركسية وأن أفرادها كانوا ينتمون الى أصحاب الملكيات الكبيرة، وفى أحايين أخرى كثيرة يتبين أن اناث الشركس قد تمكنوا من حيازة مساحات واسعة من الأطيان الزراعية فى شكل دوائر بفضل النظام الذى كان يسمح لهن بتملك هذه الأراضى ٠ وأن المكانة الاجتماعية للمـــرأة الشركسية فى مجمتع الأقليات العرقية كانت مرتفعة للغاية بعد أن تملكن الأراضى الزراعية ٠ فتتردد اســمـؤهن كثيرا فى الوثائق وينتقــل الى قصورهن القاضى الشرعى ليسجل الحجج والوقفيات العديدة التى ترتب لهن حقوقاً أو تحافظ على المكاسب الاقتصادية التى حصـلن عليهـــا ٠ فمعتوقات أسرة محمد على من الشركسيات بصفة خاصة كن يتمتعن بمكانة راقية ومتميزة بين الأخريات أمثال زينب بنت عبد الله ، وحالت فزا بنت عبد الله ، وحسن ملك هانم بنت عبد الله ، وجنان شـــركس ، وعندليب البيضا الشركسية ٠ وكان يجرى توزيع الأطيان الزراعية عليهن من الأسرة الخديوية ومن الأمثلة على ذلك ماحصلت عليه حالة فـــزا (معتوقة محمد على باشا وزوجة أمين بك وكيل الدوننماى بالثغر) من المالية على أطيان ورواتب مالية شهرية ، وكذا زينب البيضا (معتوقة محـــرم بك) التى حصلت على الكثير الاموال والأطيان (٣٤) ٠

وفى (ناحية بهوت) بمديرية الغربية كانت جنان شركس (معتوقة سعيد باشا) تمتلك مساحات تزيد على المائة فدان ٠ وكـــذلك عندليب البيضا (معتوقة ســعيد باشــا) تمتلك مســـاحات واســـعة فى نفس الناحية (٣٥) ٠

ومن الواضح أن أغلبية الاتراك تزوجن من شركسيات ٠ وفى اغلب

الأحيان تكون هذه الشركسية جارية تم عتقها ، فتصبح معتقة التركى وزوجته ، وبهذا الشكل أمكن لكثير من الشركسيات أن تتحولن الى مالكات كبار فى مصر ، وانحصرت دائرة نشاطهن فى هذا المجال الاقتصادى الحيوى عن طريق وكلاء يقومون بالحفاظ على حقوقهن المرتبة لهن . وهؤلاء الوكلاء فى العادة من أهل الثقة بالنسبة لهن ، وهم فى الغالب من بنى جلدتهم أو من الاتراك أو من المصريين . ففى الدوائر الزراعية كان يوجد فريق يتكون اغلبه من عناصر تركية شركسية يتولى الاشراف عليها كما كان هناك وكيل لصاحبة الدائرة ينوب عنها فى كافة شئونها الاقتصادية . وهناك أمثلة عديدة على ذلك يتضح منها شكل ونوع العلاقات الاجتماعية بين عناصر هذه الاقليات العرقية ، فيتبين منها أن هذه العناصر تمتعت بأكبر قدر من الأمان فى مصر وأنه لم تكن هناك اية حساسيات تذكر لكونها أقليات عرقية نازحة ، مما سمح لها بأكبر قدر ممكن لتمارس دورها دون عوائق . ولاشك ايضا أن الحكومة قد هيأت ايضا لهذه العناصر الجو المناسب لذلك وذلك أمر طبيعى اذ أن أغلب أفرادها كانوا ينتمون الى هذه الأقليات العرقية .

وفى وثائق المحاكم الشرعية فى القرن التاسع عشر ما يدل على تضخم الملكيات الكبيرة لاناث الشركس بفضل الظروف التى رتبت لهن حقوقا واسعة على مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية وأن الشركس عموما ، بالاضافة الى الاتراك أصبحوا يكونون طبقة كبار الملاك الزراعيين فى عصر محمد على ، وذلك قبل ظهور المصريين فى هذا المجال منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ابعاديات الشركس :

اما عناصر الشركس من الذكور – وهم اقل عددا من الاناث – وهم بضع مئات من النازحين تحت وطأة الضغط الروسى (١٨٦٩ – ١٨٧٥)

على بلادهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أو من بقى من سلالة المماليك (٣٦) • هذه العناصر ظهرت فى المجال الاقتصادى بفضل المنح والهبات التى حصلوا عليها من الحكام الاتراك من أسرة محمد على مكافأة لهم على دورهم فى الجيش والادارة بحيث أصبحوا عند نهاية القرن التاسع عشر من كبار ملاك الاراضى ففى عام ١٨٣٧ منح محمد على كبار الضباط ورجال الادارة الشراكسة مساحات واسعة من الاطيان الزراعية فى شكل أبعاديات تتراوح مساحاتها بين ٥٠ وألف فدان فى مناطق مختلفة (٣٧) •

وفى نهاية حكم محمد على كان هؤلاء هم الفئة المتميزة التى استفادت من منح الاراضى ، فكان خورشيد باشا محافظ الدقهلية يملك أكثر من ⅕ أراضى القرى فى المديرية (٣٨) •

وملفات الموظفين الشراكسة التى تحتوى على أسماء عديدة من الضباط ورجال الادارة طوال القرن التاسع عشر توضح ان هذه النخبة كانت تمثل نسيجاً قوياً فى الصفوة التركية الحاكمة ، وانهم تقلدوا المناصب العسكرية والمدنية وتنقلوا بينها ، وأنهم آداة طيعة ، أعطوا ولاءهم بالكامل للاتراك ، ولكنهم فى الوقت ذاته كانوا يتشربون بحكم إقامتهم فى مصر بعض اساليب الحياة فيها (٣٩) • ونظراً لأن ميولهم كانت تركية اكثر فقد تميزوا ، وأصبحت نسبة كبيرة منهم من كبار الملاك ففى عهد إسماعيل مثلا حصل « عثمان غالب باشا » وهو من الشراكسة البارزين وعضو البعثة التى أرسلها إسماعيل للدراسة الاكاديمية الحربية فى الخارج حصل على حوالى ١١٨١ فدانا أوقاف فى نواحى المنيا والدقهلية (٤٠) •

وعمل الشركس فى الدوائر الزراعية المنتشرة فى انحاء مصر فى القرن التاسع عشر ـ وهى عبارة عن ابعاديات واسعة ـ بعضهم

بوصفه وكيلاً والآخر ناظراً - اما الوكلاء من الشراكسة فكانوا ينوبون عن اناث الشراكسة من مالكات الاراضى التى كانوا يحظون بثقتهم ، فأخذوا يضاربون على الاراضى الزراعية ، وأناب هؤلاء الوكلاء عن موكليهم فى شراء أو بيع أطيان أو عقارات أو تقسيم أو رهن وغير ذلك من اشكال المعاملات الاقتصادية (٤١) ٠

ولا شك ان دخول عناصر الشركس من الذكور فى سلك الوظائف المدنية وشغلهم للوظائف الكبيرة كان علامة على التحول العميق الذى طرأ على المهام التى كانوا يجلبون من أجلها منذ قبل عصر محمد على وهى على نحو ما نعرف مهام عسكرية أساساً ، ولم يحدث ذلك التحول الا فى عصر عباس الاول الذى كان يرى نقل العسكريين الى السلك الملكى (المدنى) ٠ (٤٢) ومع ذلك فإن انخراط هؤلاء فى الوظائف العليا المدنية هيأ لهم تماماً فرص الحصول على المنح والهبات فاصبحوا - على نحو ما أشرنا - من كبار ملاك الاراضى ٠ وهم أصلا بحكم تكوينهم وظروف نزوحهم لم يتهيأوا لهذه المهمة مما أدى فى النهاية الى انه عند اواخر عصر اسماعيل لم يعد الحاكم هو المالك الوحيد كما كان الحال فى عصر محمد على وعباس الاول وان بقى نفوذه لامتلاكه معظم اراضى الدولة وايضا لانه مصدر السلطة التى تمنح الاراضى للآخرين ، فكانت الملكيات الكبيرة فى يد أفراد من الاتراك والشركس بصفة خاصة الذين انتقلت اليهم الاراضى تنفيذا لرغبة الحاكم وتكونت بذلك ارستقراطية تركية شركسية من ملاك الاراضى كان الحاكم يرى ضرورة تكوينها لغرضين الأول ، انه كان يرى أنها قادرة على تحقيق أهدافه الاقتصادية ٠ والثانى انه كان يأمل ان تسانده - اذا لزم الامر - وأن تؤيده فيما يصدر من القوانين والتشريعات ٠

لم يكن غريباً اذن ظهور عناصر شركسية من العســكريين فى الحياة المدنية اصبحوا كبار ملاك اراضى فمعظمهم بدأوا حياتهم فى المجال العسكرى · ويتبين من ملفاتهم أنهم كانوا يتنقلون بين الرتــب العسكرية والمدنية بعدما أصبح ذلك امــر طبيعى · ونورد بعض الامثلة للتدليل على ما نقول ، فقد تدرج « جركس جعفر اغا » وشهرته جعفر صــادق باشا فى عــدد من المناصب العسكرية ، بعد أن دخل الخدمــة فى عهد محمد على عام ١٨٢٣ ، ثم ترك هذه المناصـــب الى الحياة المدنية ، فتولى عام ١٨٥٠ مدير الشرقيــة ثــم القليوبية والدقهليــة والسويس ، وعــاد ثانية الى الحياة العسكرية عــام ١٨٥٧ وتــولى إمارة الحج عام ١٨٥٨ ثم عمل محافظا لدمياط ثم رئيساً لمجلس طنطا عام ١٨٦٢ وتدرج فى عدة مناصب مدنية أخرى وانتهى فى وظيفة وكيل مجلس الاحكام عام ١٨٧٩ (٤٣) ·

اما المثال الثانى ، فإسم صاحبه « اسماعيل جركس » وشهرته اسماعيل باشا زهــدى ، فقد تنقل بين عدد من المناصب العسكرية بين عام ١٨٣٩ وعــام ١٨٥٦ ثم فصل وأحيل الى الاستيداع ، وعين بعد ذلك ناظرا لمدرسة المبتديان بالعباسـية ، ثــم مأمور ادارة المــدارس الملكية ، ثم وكيلا لديوان عموم المدارس وناظر عموم المدارس ، ثـــم مفتش إيرادات وجه بحرى ، وتقلد وظائف أخرى مدنية منها مديــر المنيا وبنى مــزار عام ١٨٧٥ ، ثم محافظ دمياط عام ١٨٧٨ (٤٤) ·

هذا النموذجان يدلان على انخراط الشركس فى الحياة المدنية وانهم عن طريق شغلهم هذه الوظائف الكبيرة صاروا من كبار مـــلاك الاراضى ، فحازوا الابعاديات والجفالك · وقد جـــاء فى مذكــرات احمد عرابى باشا أن فى مأدبة لضباط الجيش اقيمت بمناسبة تولى اسماعيل العرش منح اسماعيل ٥٠٠ فدان لكل من الباشوات (الاتراك

والشراكسة) و ٢٠٠ فـدان لكل اميرالاى و ١٥٠ فدانا لكل قائمقام ، وكان المفروض ان تكون هذه المنح من فائض مساحة الاراضى الا أن الضـباط اسـتولوا على الاراضى الخصبة وعوضـوا الفلاحـين بفائـض الاراضى الصغيرة المساحة (٤٥) .

ولم تكن المنح والهبات وسـيلة الشركس الوحيدة - فى بعـض الاحيان - لتملك الاطيان والاراضى الزراعية ولكن كانت مرتباتهـم العالية التى يتقاضونها من وظائفهم والمعاشات التى ترتب لهم عقـب انتهاء مدة خدمتهم فى الجيش والادارة كانت وسيلة مكنتهم من تكوين الضياع الكبيرة . فمعظم هؤلاء الشركس - كما تبين ملفاتهم الوظيفية - كانوا يتقاضون مرتبات شهرية تتراوح بـين ٦٠٠٠ قرش و ١٢٥٠٠ قرشاً (٤٦) ويستدل من تركة احدهم ويدعى مصطفى شـكرى بـك (وكيل مصلحة المطرية) عام ١٨٧٦ انه تمكن من شراء اراضى بالاضافة الى المنح والهبات التى حصل عليها فى الغربية والمنيا وبنى مزار بلغت ١٠٥٢ فدانا وكسور (٤٧) .

امـا مصطفى باشا (الخزينة دار) اى أمين الخزانة ، فهـو أحد كبار الموظفين الشركس الـذين بلغوا مكـانة كبيرة فى عصـر عباس الاول ، وكان الأخير قد إشتراه وقدمه على سائر رجاله (٤٨) . ومنحه ١٢٦٠ فدانا من أبعاديات الغربية بالاضافة الى ٥٩ فداناً من معمور شبرا الخيمة . وفى عهد سعيد أصبح مديرا لدائرة عباس باشـا واشترى من ماله عام ١٨٥٨ ما يزيـد على ١٤٠٠ فدانا بالقليوبية . وفى عهد اسماعيل بلغـت ملكيته ٣٣٤١ فدانا فى نواحـى الغربيـة والشرقية والقيلوبية (٤٩) .

وبالرغم من انه اتيح للشركس تكوين الضياع الكبيرة والابعاديات - كما نرى - إلا أن ما يلفت النظر ان هذه العناصر كانت غالبـا لا تترك

ورثة ولا يعقبون ذرية ، فكانت تركاتهم إما تؤول الى الدولة أو توجه طبقا لما جاء فى الوصايا التى يتركونها • وفى الغالب كانوا يتركون أراضيهم وابعادياتهم وقفاً خيرياً • مثال ذلك مصطفى باشا الخزيندار حين توفى ، وهو الذى بلغت ملكيته فى عهد اسماعيل ـ كما رأينا ـ ٣٣٤١ فدانا لم يترك عقباً ولا وريثاً بالرغم من انه خلف ثروة طائلة (٥٠) وغالب ما كانت هذه الثروات التى يتركها الشركس تصير نهباً كما كانت فى كثير من الاحيان سببا للنزاع فى المحاكم بسبب عدم معرفة نسبهم من ناحية ، وتحيز الاحكام القضائية من ناحية أخرى (٥١) •

الشركس والاقليات الاخرى :

كانت الاقلية الشركسية فى مصر فى القرن التاسع عشر اكثر الاقليات العرقية قابلية للانصهار والذوبان فى غيرها ، فقد اتخذ افرادها التركية لغة لهم وتعاملوا بها وربطوا انفسهم بالتالى بالاتراك فى كل المجالات ، مما باعد بينهم وبين الاغلبية من جهة ، وجعلهم دائماً فى المرتبة التالية بالنسبة للاتراك من جهة اخرى ، ومع ذلك إختلفوا عن الاتراك فى مسألة هامة هى أنهم كانوا على إستعداد ـ اذا واتتهم الظروف ـ للإنخراط فى الاغلبية وذلك شأن أى أقلية لا تكون فى مركز الصدارة اذ المعروف أن الاتراك تفوقوا عليهم منذ مذبحة القلعة عام ١٨١١ ولم تتح لهم الفرصة بعد ذلك مطلقاً لكى يتصدروا مجتمع الاقليات العرقية فى مصر •

وبالرغم من المكانة التى احتلها الشركس ، فإنهم كانوا اكثر الاقليات العرقية فى مصر إختلاطا بالاقليات الاخرى التركية والكردية والارمنية والحبشية وغيرها ، فإناث الشركس ، مثلاً ـ من الجوارى البيض لم يكن يخلو منهم منزل تركى ، وتمكنوا عن هذا السبيل ـ كما ذكرنا فى موضع سابق ـ من الصعود الى أعلى مكانة وأصبحن

عنصراً فعالا ومؤثرا فى مجتمع الاقلية التركية صاحب الصــدارة فى المجتمع المصرى بصفة عامة ٠

والواقع أن هناك ظروفا عديدة ربطت بين الاقلية الشركســية والاقليات الاخرى هى :

أولا : المصالح الاقتصادية المشتركة ٠

فقد إستطاعت عناصر الاقليات العرقية أن تكون فيما بينها طبقة متميزة إقتصاديا ، وذلك بعد أن تمكنوا من حيازة مساحات واسعة من الاراضى ، وأصبح العديد منهم من كبار الملاك ٠ ويتضح من وثائق الملكية فى القرن التاسع عشر وحدة المصالح بين الاقليـة الشركسـية والاقليات العرقية الاخرى ، فالمعاملات على الاراضى الزراعية بالبيع أو الشراء او التقسيم أو الهبة او الرهن او الوقف كانت قاصـرة عليهم تقريبا ٠ وبالرغم من ان هذه المعاملات كانت تثير فى كثير من الأحيان منازعات قضائية بينهم الا أنه من الواضح تماماً التنسيق فيما بينهم من أجل الحفاظ على الوضع الاقتصادى الطبقى الرفيع الذى خلقتـه عملية نقل الملكية للأفــراد بعد الغاء نظام الالتزام (٥١) ٠

ويمكن ان نتبين بسهولة من خلال وثائق الملكية أيضا انفراد عناصر الاتراك بالصدارة فى الوضع الاقتصادى كما هو الشأن فى المجــالات الاخرى ، وكذا الشركس الذين إحتلوا مكانة تالية لهم ، فالعنصـــر القوالى كان من اكثر العناصر تميزاً من الناحية الإقتصادية وهو العنصر الذى تنحدر منه سلالة أسـرة محمد على ، وكانت أكثر معامـــلات الشركس معه ، وكذلك العنصر المورلى وهو العنصر الذى إكتسب مكانة متميزة بين الإتراك بفضل مساندة محمد على له بعد حوادث المورة (١٨٢٤ – ١٨٢٧) كانت له علاقات إقتصادية متميزة مع العناصر الشركسية ٠ وكذلك العنصر الاسلامبولى ٠ والاخير كان يحتل مرتبة

تالية للقواليين والمورليين فى الأقلية التركية ولكن ربط بين هذه العناصر جميعاً مصالح طبقية فى المقام الأول إذ إختفت فيها النزاعات العرقية والدينية تماماً ، فكثيرا ما كانت لقاءات هؤلاء من أجل تبادل المنافع تضم التركى والشركسى والارمنى والكريتلى والقبرصلى والملطى والاوربى وأحيانا قليلة المصرى وهناك أمثلة عديدة على ذلك ، نورد منها المثالين التاليين ، الأول فى منزل ورثة محمد شيرى افندى (فى حى التمرازية بالاسكندرية) عام ١٨٨٩ وفى حضور احمد بك الاسلامبولى ، ومحمد بك ارنؤد ، وسليمان اغا التركى وافقت كل من مهيارة وشهرة وكلفدان الشركسيات بأن يتولى عنهن مصطفى برتو الاناضولى كافة شئونهن المالية (٥٢) . والمثال الثانى ، هو توكيل الست حسن ملك هانم الشركسية فى عام ١٨٨٩ أيضا - زوجة ومعتوقة حسن برتو بك القواللى - للخواجه كركور اغيا الأرمنى لينوب عنها فى قبض واستخلاص مالها طرف الخواجه مانولى سامويلسون من ايجار ٤٩ فدانا وكسور فى مديرية الجيزة (٥٣) .

وعلى حين تضاءلت الحساسيات العرقية والدينية وحلت مكانها المصالح الاقتصادية بين الشراكسة والاقليات العرقية الاخرى فانه مما يلاحظ أيضا أنه ربط بينها نوع آخر من العلاقة أشبه بالعلاقات التى تربط بين طوائف أهل الحرف بعضها وبعض . توضيح ذلك أنه كانت تقوم بين هذه الاقليات فواصل ولكنها كانت من طبيعة الفواصل التى تقوم بين الصناع والزراع وأصحاب المهن الحرة والحكام وغير ذلك ، مثال ذلك ، الطوبجية أى الذين يعملون فى الطوابى والقلاع كان معظمهم من عناصر الاقليات العرقية وكانت العلاقات بينهم متينة بحكم انتماءاتهم الطائفية لا العرقية ولا الدينية . فقد اقترض حسين اغا الكردى (طبجى) عام ١٨٦٢ من عثمان اغا الشركسى (طبجى) مبلغاً قدره ٥١٠ قرشا وكان الشهود على هذه الواقعة محمد اغا العلايلى

التركى ، وحسين اغا التركى وعلى اغا الكريتــلى ، وجميعهم من طائفة الطوبجية فى الاسكندرية (٥٤) .

وفى بعض الاحيان كان هؤلاء الذين يعملون فى مهــن القتــال والحرب من الشركس يسندون الى بنى جلدتهم او غـيرهم من الاقليات العرقية الاخرى العمل فى الاطيان الزراعية التى يحصــلون عليها من الحاكم ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك نورد منهــا التوكيل الذى تــم بمقتضاه عام ١٨٥٩ نقل أبعادية أمين اغا الشركسى وقدرها مائة فدان وكسور الى أدهم اغا الاسلامبولى ، فى ناحية كفر رجب بقسم صهرجت التابعة لمديرية الدقهلية (٥٥) .

ولما كان بعض الشراكسة يتوفى دون وريث ـ كما ذكرنا ـ فقد كانت الحكومة تقوم بالاستيلاء على متروكاتهم ، لذا حرص البعض منهم على أن يوقف تركته أو يوصى بنقلها الى من يرى نقلها اليه سواء من بنى جلدته أو غيرهم من عناصر الأقليات الاخرى . وتسجل وثائق الأيلولة ـ وهى من وثائق الملكية وضمن وثائق المحاكم الشرعية ـ حوادث كثيرة فى هذا الصدد فى شكل وقفيات أو وصايا يتضح منها المصالح التى كانت تربط بين الأقلية الشركسية والأقليات العرقية الأخرى فى مصر والروابط الاجتماعية العديدة التى تربط بين عناصرها ، ففى عام ١٨٦١ عـلى سبيل المثال أوقف يوسف صدقى بك الشركسى ـ ابعادية فى ناحية عزبة النصارى فى مديرية المنيا ومساحتها ٢٠٠ فدانا على زوجته (نــام شكر الشركسية) و (المصونة هانم بنت عبد الله معتوقة تيمور بــك) مدة حياتهما ، ثم يصرف الثلث على لوازم المسجد الذى انشــاه فى الزقازيق ، ويصرف من الريــع على الفقــراء حيثما كانوا واينمــا حلوا (٥٦) كذلك فى عام ١٨٨١ حين توفى خورشيد افندى الشركسى أوصى بحصر ميراثه فى زوجته ماهنور الشركسية وبنت منغيرها وأخيه الحاج بيرم أفندي (٥٧) .

ثانيـا : الظروف الاجتماعية المتشابهة :

لاشك أن حرص الشركس على الحفاظ على وضعهم الاقتصـادى الطبقى المتميز قاد خطاهم على طريق تحديد شكل علاقاتهم الاجتماعية مع الأقليات العرقية الأخرى أو مع الاغلبية ، فالشركس بصفة خاصة كانوا مستعدين دائما لتوطيد أواصر العلاقات الاجتماعية مـع الأتراك أولا بوصفهم على قمة الهرم الاجتماعى هذا من ناحية ، ومن ناحيـة أخرى كانوا لا يترددون فى التعامل مع أية أقلية أخرى مهما كان وضعها الاجتماعى ، طالما أن ذلك سوف يحقق لهم المكانة الاجتماعية المتميزة ، فمما يلاحظ أن الشركس أقاموا علاقات اجتماعية مـع كافة الأقليـات الموجودة فى مصر فى القرن التاسع عشر ٠ ففى بيوت العديد من الشركس أقامت عناصر من مختلف الجنسيات ، من الاتراك والأحباش والسودانيين والشوام وغيرهم ، وربط بين جميع هؤلاء علاقات اجتماعية واسعة ٠ ففى عابدين - أحد أحياء اقامة الأقليات فى مصـر وحيث كان يتركـز الشركس خاصة - أقام على سبيل المثال عام ١٨٧٠ فى منزل محمد ثابت الشركسى ٣٦ فردا تركيبهم العرقى على النحو الآتى :

محمـد ثابت بشـا	شركسى	وكيل ديوان الداخلية
ابن ثـابت باشـا	٥ سنوات	بالمكتب (تلميذ)
والدة ثابت باشـا	شركس	
٩ جـواري بيض	شركس	
١ مرضعـة من أهالى الشـام		
٩ اناث رقيـق من السودان		
١ (اناث) رقيق من الحبشـة		
١ ابن أخ محمد ثابت باشا	تلميذ بمدرسة المبتديان	
١ ابن أخ محمد ثابت باشا (يتيم) تلميذ بمدرسة المبتديان		

١ ابن عم محمد ثابت باشا خالى وظيفة

١ ابن المرضعة (شامى)

٩ اتباع محمد ثابت باشا شركس تلاميذ بمدرسة المبتديان (٥٨) ٠

وكما هو واضح من التركيب العرقى السابق أنه يرتكز أساسا على حرص الشركس على الحفاظ على مكانة الطبقة التى ينتمون اليها أكثر من أن يرتكز على ضرورة ايجاد شكل اجتماعى عائلى مستمد من أواصر القربى أو علاقات الدم ، فهناك ١٩ فردا من الرقيق الأبيض والاسود (٥٠٪ تقريبا) من عدد الموجودين بالمنزل ، و ٩ أفراد من الاتباع الشركس (٢٥٪) ، لذلك قامت العلاقات الاجتماعية بين الشركس والأقليات الأخرى على أساس من تشابه الظروف الاجتماعية ووحدة المصالح الاقتصادية فيما بينها ، فلم يكن غريبا اذن جنوح هذه الأقليات الى الالتئام وبالتالى تكوين أعراف وتقاليد اجتماعية خاصة بهم استقرت بمرور الأيام وظلت حبيسة تجمعاتهم العرقية لا ينال أو يصيب الأغلبية المحلية منها شيئا ولو أنها أصبحت فيما بعد مثالا يحتذى للاغلبية على اعتبار أن هذه الأقليات العرقية كانت تمثل الارستقراطية الحاكمة أنذاك ، هذه الفئة مكونة من كبار الملاك المصريين الذين سعوا الى مصاهرة هذه الأقليات ٠

والواقع أن هذه الأعراف والتقاليد الاجتماعية التى التفت حولها الأقلية الشركسية والاقليات العرقية الأخرى كانت ماخوذة من البيئات التى نزحوا منها ، وان ظلت استانبول هى المحور الذى تدور حوله على اعتبار أن معظم الشركس أو الأتراك أو الأرمن أو غيرهم ممن نزحوا الى مصر شخصوا بأبصارهم اليها وأخذوا عن طبقة الحكام بها ، فضلا عن أن عددا منهم نال بعض تربيته الاجتماعية وتعليمه هناك قبل أن يأتى الى مصر ، فمن خلال تركات بعضهم يتضح ذلك ، ففى عام ١٨٥٧ حين

تم ضبط وتحرير وتقويم ما وجد مخلفا ومتروكا عن عثمان كوجك بــك الشركسى تبين انه ترك مكتبة تضم كتب صرف تركى ، وكتاب أدعية ، وكتاب تاريخ ال عثمان ، وكتاب انشاء تركى ، وكتب وعظ ، وكتــاب الموطا لمــالك ، وكتاب البخارى ، وكتاب روضة الصفا ، وكتاب معرفة نامة تركى ، وكتاب خلدون تركى (٥٩) ٠

والجدير بالذكر ان هذه التقاليد الاجتماعية فى مجتمع الأقليات العرقية العثمانية فى مصر قامت على إتخاذ أشكال ذليلة من العلاقات الاجتماعية ٠ وأقصد بالاشكال الذليلة نوع العــــلاقات التى تربط بين بعضهم البعض ، فعلاقة المملوك بالأمير وعلاقة الامراء بعضهم بالبعض وعلاقاتهم جميعاً بالحاكم ثم بالسلطان ، هذه العلاقات تتنوع بــين تقبيل الأيادى والاقدام والسجود ، والقيام بأعمال الخدمة وغير ذلك من اشكال العبودية (٦٠) ٠ وهى مما اتوا به من مناطــق نزوحهــــم الاصلية ٠ وظلت هذه الاشكال تترسخ تدريجياً فى الافهام ونما الى جانبها تقاليد اجتماعية اخرى ، ومع ذلك فإن الذين اتخذوا هذه الاشكال الذليلة من العلاقات كان بامكانهم الوثوب على من يقدمون لهم هذا الولاء المصطنع فيفتكون بهم او يقتلونهم ٠ لذلك اتخذت العلاقات الاجتماعية بين هذه الاقليــات ســواء أكانت شركسية او غيرها طابع التربص والحــــذر ، ولم يمنعهم ذلك من الاختلاط والتزاوج من بعضهم البعض والتعصب لأصولهم العرقية عند الضرورة ٠

وهكذا نرى ان تشابه الظروف بين الشركس والأقليات الاخرى قــد أدى الى ايجــاد تشابه مماثل فى النزعة والسلوك بينهــــم ، فاسس التربية واحــدة ، وفى معظم الأحيان تجمعهم منازل واحدة ، مما أدى فى النهاية الى توثيق العلاقات الاجتماعية بين هذه الاقليات ٠

والواقع ان الشركسيات البيض كن متفرقات في منازل وبيــــوت

كل الاقليات الأخرى تقريباً سواء كن جاريات او زوجات مما جعل الشركس يتمتعن بقابلية خاصة عند باقى الاقليات ، وهن بخلاف الارمنيات مثلا او الروميات على الرغم من ان كلتاهن يتمتعن بنفس الجاذبية غير أن الشركسيات انفردن بالتسلل الى باقى الاقليات مما جعل تاثيرهن فى العلاقات الاجتماعية بين الاقليات ملحوظاً ، ففى كثير من الحالات كن يتحولن بسرعة فى منازل الاغنياء الاتراك من وضع الجوارى الى مكانة الزوجات بعد ان يتزوجن من سيدهن او ابنه كما اشرنا من قبل ، فضلاً عن ان الكثيرات من الشركسيات اللاتى تم إحضارهن من بلاد القوقاز وجورجيا كن مفضلات على نساء مصر الاحرار ويتمتعن بمرتبة أعلى من هؤلاء الاخيرات بين العامة (٦١) .

كما انفردت الشركسيات – فى مجال العلاقات الاجتماعية – بالاختلاط بالاغلبية عكس باقى نساء الاقليات الاخرى التركيات او الارمنيات واليونانيات ، اذ ان المصريين الاغنياء كانوا يفضلوهن على الاخريات من الملونات الحبشيات او السودانيات ، وكان تفضيل الاغنياء المصريين لهن وراء إندماجهن بالأغلبية وابداء الكثير من الثقة فى المصريين . فكثيرات من الشركسيات المعتقات كن يفضلن ان يتولى شئونهن المالية وينوب عنهن فى كافة امورهن هؤلاء المصريين ، ووثائق المحاكم الشرعية تثبت ذلك وتدل عليه . ومن الامثلة على ذلك ، ان فاطمة هانم الشركسية – معتوقة نور قمر الشركسية معتوقة سعيد باشا والى مصر – عام ١٨٨٩ انابت عنها حسين افندى اسماعيل – من اهالى بلدة الصالحية – بالشرقية فى كل شىء يخصها (٦٢) .

وقد ادى ارتفاع تكلفة اقتناء الشركسيات ذوات البشرة البيضاء الى جعلهن بعيدات المنال بالنسبة للجميع باستثناء أغنى الشخصيات

فى كل الجنسيات بما فيها الاغلبية من المصريين ، فظلت الشركسيات فى الترتيب الأول بالنسبة للنساء فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وأصبحن على رأس الهرم الاجتماعى ، وبالتالى تكونت أكبر البيوتات - وهى التى كانت فى العادة تنتمى الى طائفة البكوات والباشوات - من أسر ذات طابع متميز ، فالأم فيها من الشراكسة والابناء خليط من ابناء الزوجة أو ابناء الزوج أو ابنائهما معاً وحاشية تضم جوارى ومماليك من البيض والسود يتاهبون للصعود الى أعلى المراتب فى الهيئة الاجتماعية . فوثائق الاحوال الشخصية الصادرة عن المحاكم الشرعية تكشف عن بناء أسرى معقد للاقليات العثمانية فى مصر آنذاك ، اذ المعروف أن الزيجات كانت تتم عن طريق نظام الجوارى وفيه لا يمكن للسيد ان يبيع جارية حملت منه أو أن يهبها إن هو إعترف ببنوة الطفل ، فتصبح تلك الجارية مخولة أن تنال حريتها عند مماته . ويحدث أحيانا ان يعتق السيد جاريته بعد ولادة الطفل مباشرة ويتزوجها لتصبح بذلك زوجة سيدها . وفى هذا النظام أيضا : لا يصرف السيد جاريته الا فى حالات نادرة جداً ، وان فعل ذلك فانه يقوم باعتاقها ويقدم لها مهراً معيناً ويعمد الى تزويجها بشخص طيب السمعة أو تقديمها الى احد اصدقائه » (٦٣) .

ويتبين لنا من خلال قراءة وثائق الاحوال الشخصية للاقليات العرقية وأسس النظام الاجتماعى لها عموما فى مصر الاهمال الواضح فى رعاية النسب الى الآباء والافراط فى عادة التبنى والالتحاق بالادعياء ، ولم يكن ذلك سوى استمرار لعادات نقلوها من بيئاتهم الأصلية - وأصبح لهؤلاء الذين تغيب انسابهم منزلة وكرامة يغبطهم عليها أهل الاحساب . وهكذا صار الجهل بالانساب ، وفى ظل هذا النظام عادة اصابت عدواها الجميع بما فيهم الاغلبية ، فأصبح البيت القديم المؤسس على مئتين من السنين لا يعرف أسلافه إلا واحداً أو اثنين .

معنى هذا أن ولع عناصر الأقليات بالجوارى ممن لا تعرف أصولهن قد أفرز بناء أسريا يقوم على الجهل بالانساب ويعلى من المنزلة الاجتماعية التى تعززها قيم الثراء وأسباب القوة فحسب . ونورد مثالا واحدا يدل على ذلك ، فقد جاء فى وثائق المجلس الشرعى فى مدينة الاسكندرية عام ١٨٨١ ان احمد افندى عونى (وكيل أشغال دايرة حرم سعيد باشا) حين توفى كان متزوجا من نور جهان الشركسية معتوقة المرحوم محرم بك محافظ الاسكندرية السابق الذى اعتقها وهو يملكها وزوجها له ، ثم توفيت نور جهان وانحصر ميراثها فى ابن أخ معتقها لأبيه حسين باشا فهمى (وكيل ديوان الاوقاف) (٦٤) .

وهكذا حلت العنصرية مكان الاعتزاز بالنسب بين الاقليات العرقية ، فأصبح الأنتساب للجنس هو الاساس بغض النظر عن نسب الخئوله أو الابوة ، فنسى الابناء فى مجتمع الاقليات خئولتهم ، ودعوا الذين يتولون امورهم بالآباء وان لم يكونوا كذلك ، وافتخروا بعرقيتهم لا بأصلابهم ، فكثيرا ما يردد الاسم مقرونا بالاقلية التى ينتمى اليها ، فيقال الشركسى او التركى ولا يعرف له أبا أو عائلة . واتخذوا من انتسابهم الى الجنس آداة للإرتقاء الى رتبة الاشراف ولكن بغير نسب ، وكذلك اتكلوا على العرقية فى نيل المقامات الرفيعة وليس على ما فعلوه بجد واجتهاد . فتثبت وثائق تعداد النفوس فى عام ١٨٤٨ و ١٨٧٠ : أن أعداداً كبيرة منهم تحولوا الى عاطلين يباهون بعنصريتهم لا بجهدهم واجتهادهم » (٦٥) . ووصل الأمر بينهم حد التنابذ بالأصل ، فهم وان اتفقوا على أنهم ينتمون الى سلالات تختلف عن الاغلبية من المصريين ، الا أنهم كانوا يتنابذون فيما بينهم بالسلالات التى ينتمون اليها ، فقد ظلت سلالة اسرة محمد على لها المكانة الاولى (٦٦) .

وبالرغم من انهم ربطوا مصيرهم بمصر الا ان عواطفهم ظلت متاجهة نحو مناطق نزوحهم الأصلية بدليل انهم حرصوا على أن يقرنوا اسماءهم بهذه المناطق ولم يتخلوا عن هذه العادة قط .

وحين تدفق الاوربيون على مصر واصبحوا يمثلون أقلية عرقية تعامل معهم الشراكسة وباقى الاقليات العثمانية الاخرى فاولوهم ثقتهم ، وتولى الاوربيون إدارة شئونهم الاقتصادية خصوصاً . وبرزت اسماء اوروبية فى هذه الناحية امثال : هرمان ادينهايم » البروسى وغيره . ولكن بعد ذلك بدأت الاقليات العثمانية تستشعر القلق من جراء تزايد نفوذ هؤلاء الاوربيين .

● ● ●

الهـــــوامش

(١) كلوت بك : مرجع سابق ج ١ ص ٥٣٣ .
(٢) جابرييل بايير ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ص ٣٢٠ (مترجم) .
(٣) نفسه ص ٣٢٥ .
(٤) الجوائب ١٨٦٨/٦/٩ (بيع الرقيق) .
(٥) نفسه ١٨٦٨/٦/٢ .
(٦) نفسه ١٨٦٨/٦/٢ .
(٧) انظر سجلات تعداد النفوس ، من خلال قراءة أعداد الموجودين فى هذه البيوت يتبين وجود عدد قليل من الوطنيـــات كـــن يعملن فى أعمال دنيـا .
(٨) تفتقر سجلات تعداد النفوس بالرغم من أهميتهــا الى تنـاول الاصول العرقية للزوجات فى بيوت الوطنيين ولكن من المرجــح أن كثيرات من الشركسيات اللاتى تركن العمل فى منـازل الاتراك كن يلجان للزواج من الوطنيين .
(٩) يتبين من قراءة ملفات الموظفين ان اعداد الشراكسة تزايدت فى مصر فى الستينات بشكل ملحوظ .
(١٠) محمد امين حسونه : مرجع سابق ص ١٢٩ .
(١١) نفسه ، نفس الصفحة .
(١٢) ملفات الموظفين الشراكسة ، دولاب ٦ عين ١ محفظة ١٢٣ ، ملف ١٧٩ .
(١٣) انظر وثائق ديوان الخديوى ، لا توجد وثائق تدل على أن أياً من الشراكسة طلب الخروج من مصر عكس الاتراك الذيـن كانوا يطلبون ذلك فى أحيـان كثيرة .
(١٤) ملفات الموظفين الشراكسة ، من خـلال قـراءة ملفات هـؤلاء الموظفين يتبين تمسك هؤلاء بالبقاء فى مصر .
(١٥) تقرير البارون دى بوالكمت اول يوليو ١٨٣٣ ص من كتـــاب دكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد على السياسـة الداخلية) . القاهرة عام ١٩٤٨ .

(١٦) ملفات الموظفين الشراكسة ، دولاب ٥ عـين ٢ مجموعة ربط معاشات الموظفين .

(١٧) نفسه .

(١٨) وثائق ديـوان الخديوى :

(١٨) نفسه .

(٢٠) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مرجع سابق ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢١) لا يخلو بيت من بيوت كبار الاتراك من الجوارى اللاتى يتمتعن بمكانة متميزة عن غيرهن من الرقيق الاسود ، ويتبين لنـا ذلك واضحا من خلال قـراءة سجلات تعداد النفوس .

(٢٢) سجلات المحاكم الشرعية ، تدل كافة التوكيلات على أن مساحات كبيرة انتقلت الى النساء التركيات ، وقد وردت هذه التوكيلات فى اماكن متفرقة من السجلات .

(٢٣) سجلات تعداد النفوس . من خلال تناول هذه السجلات والافراد وفى كل بيت يتبين لنـا هذه الحقائق فى وضوح كامل .

(٢٤) نفسه .

(٢٥) وثائق ديوان الخديوى محفظة رقم ١١ وثيقة بتاريخ ١٢ ربيع اول ١٢٦١هـ/١٨٤٥م كانت طائفـة تجار الرقـيق الابيض من الطوائف المعروفة ، وكان على رأسها آنئذ رجب اغـا ، ومن التجار المشهورين طربزون لى اسماعيل ، عينتابلى مصطفى ، ملاطيه لى محمد ، خربوطلى حسـين ، عربكيرلى محمد ، خربوطلى عثمـان .

(٢٦) جبرائيل بيير : مرجع سابق ص ٣١٩ - ٣١٠ .

(٢٧) محمد امين حسونة : مرجع سابق ص ١٤٥ .

(٢٨) حلمى شلبى (دكتور) : الموظفون فى مصر ص ٨٩ ، ٩٠ ، وجبرائيل بير : مرجع سابق ص ٣٨ .

(٢٩) جبرائيل بيير : مرجع سابق ص ١٨ .

(٣٠) نفسه .

(٣١) محمد امين حسونة : مرجع سابق ص ١٦٢ .

(٣٢) محكمة اسكندرية الشرعية (اشـهادات) دفـتر رقـم (٢٠) ابعاديات البحيرة / ١٢ نوفمبر الى ٢٦ ديسمبر ١٨٨٩ : وقـد اوقفت هذه الاطيان على عتقائها » .

(٣٣) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) سـجل رقم ١٨ من ٢ يناير ١٨٨٩ الى ١١ مايو ١٨٨٩ .
(٣٤) محكمة اسكندرية الشرعية . سجل رقم (٣) ، (٢٣ رمضـان ١٢٧٩ - ٢٢ جماد أول ١٢٨٢هـ) .
(٣٥) محكمة اسكندرية الشرعية سجل ٤ (١٠ ربيع ١٢٨١هـ - / ١٨٦٥م) .
(٣٦) راسم رشدى : مصر والشراكسة ص ٢٠٨ ، ٢١٢ .
(٣٧) وثائق ديوان الخديوى : محفظة رقم (٦) ٢ محرم ١٢٥٣هـ / ٦ رمضان ١٢٥٣هـ (انعامات من الجناب العالى الى مامـور الديوان بدأت فى رجب ١٢٥٣هـ - / ١٨٣٧م) .
(٣٨) جبرائيل بيير : تاريخ ملكية الاراضى ... ص ٤٤ .
(٣٩) راسم رشدى : شركسى يتحدث عن قومه ص ٥٤ القاهرة ١٩٤٧ .
(٤٠) جبرائيل بيير : مرجع سابق ص ٤٥ .
(٤١) محكمة اسكندرية الشرعية رقم ١٧ اشهادات ١٨٨٨/١٢/٨م .
(٤٢) مذكرات مخطوطة مترجمة عن التركية . كتبها ، محمد عـارف باشا ص ١٩ ، ٢٠ .
(٤٣) ملفات الموظفين الشراكسة ملف جركس جعفر اغـا رقم ٣ ص ١٢.
(٤٤) ملفات الموظفين الشراكسة ملف اسماعيل باشا زهـدى رقم ١ (١٨٨٣ - ١٨٨٦) .
(٤٥) مذكرات احمد عرابى ، كشف الستار . كتاب الهلال (٢) جزء مارس ١٩٥٣ .
(٤٦) ملفات الموظفين الشراكسة (ملف خالد باشا الشركسى وملـف جعفر صادق باشا) .
(٤٧) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) رقم (٣) ١٠ جمـادى ١٢٨٥هـ / ١٨٧٦م .
(٤٨) احمد تيمور : تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل القـرن الرابع عشر ص ٤٠ ، القاهرة سنة ١٩٤٠ .
(٤٩) على بركات (دكتور) : تطور الملكية الزراعيـة فى مصـر ١٨١٣ - ١٩١٤ ص ١٧٣ .
(٥٠) احمد تيمور : مرجع سابق ص ٤٥ .

(٥١) عزيز خانكى بك : التشريع والقضاء قبل المحاكم الاهلية ص ٢٠ .
(٥٢) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) رقم (٢٠) وثيقة فى ٢٩ يناير ١٨٨٩م .
(٥٣) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١٢) ٦ ربيع اول ١٣٠٣ هـ .
(٥٤) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (٢) ٥ ذى القعدة ١٢٧٧ هـ .
(٥٥) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١) ٢٩ جماد ثانى ١٢٧٥ هـ .
(٥٦) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (٢) غـــرة صفر ١٢٧٧ هـ .
(٥٧) محكمة اسكندرية الشرعية (ايلولات) رقم (١) عام ١٨٨٨م .
(٥٨) سجلات تعداد النفوس عام ١٢٨٥هـ /١٨٧٠م جزء أول عابدين ل/١/٨٤/٤١ شارع النيمى ، وكانت معظم منازل الشراكسة فى هذا الحـــى .
(٥٩) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (٢) فى ١٣ شعبان ١٢٧٣ هـ .
(٦٠) عبد السميع الهراوى : مرجع سابق ص ٢٦٦ .
(٦١) ادوارلين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ص ١٨٧ مترجم (ترجمة سهير دسوم) مكتبة مدبولى (د . ت) .
(٦٢) محكمة اسكندرية الشرعية (اشهادات) سجل رقم ١٨ ٢٠ يناير ١٨٨٩م .
(٦٣) ادوارلين : مرجع سابق ص ١٨٨ .
(٦٤) محكمة اسكندرية الشرعية (دعاوى) رقم (٥) وثيقة محررة فى ٤ رجب ١٢٩٨هـ /١٨٨١م وفى الدعوى التى اقامها حسين باشا فهمى يطلب رد مبلغ ٥٠٠ جنيه مصرى ذهبا كانت نورجهـــان تستحقها بذمة احمد افندى عونى قبل وفاته ، وايـــده فى ذلك شهودهم عبد القادر افندى « رودسلى » وعمر افندى « قوللى » ورد مامور بيت المال المبلغ للمذكور .
(٦٥) سجلات تعداد النفوس عام ١٢٨٥هـ/١٨٧م .
(٦٦) مذكرات عبر البشر لمحمد عـــارف ص ١ ــ ٥ مترجمة عن التركية .

● ● ●

الفصل الرابع

الأرمن

الارمـــــــن

الارمن فى مصر فى القرن التاسع عشر هم أقل الأقليات العرقيــة عدداً ، وتجمع المصادر على أنهم لم يزيدوا على الالفين (١) · واغلبهم تركزوا فى المدن الكبرى خصوصاً القاهرة والاسكندرية · ويصعب جـداً أن نضعهم فى الترتيب التالى للاتراك او الشركس من حيث المكانة والأهمية ، فقد كانوا يضارعونهما ـ إن لم يفوقونهما ـ بعدما تحـول الأتراك والشركس الى جموع لا تمارس ـ فى الغـــالب ـ الا الحرب والحكم · أما الارمن فقد تبوأوا مكانتهم كونهم من المثقفين والفـــنيين والحرفيين والتجار ، اى أنهم يمثلون طبقة مثقفة نشطة ·

واكثر الارمن الذين توافدوا على مصر فى القرن التاسع عشـر جاءوا من مناطق تركية مثل استانبول وأزمير وارضروم وطرابزون (٢) · وهى مناطق تركز الأرمن الذين بلغوا مكانة مرموقة ، وتسموا فيهـــا بالامراء · وازدادت أهمية هؤلاء الارمن النازحين الى مصر مع بنـــاء الدولة الحديثة بها فى عصر محمد على فإزدادت الحاجة اليهم لما لهم من خبرات واسعة كانت الأقليات الاخرى تفتقر اليها ·

والواقع أن الأرمن بالرغم من كونهم من المسيحيين فان ذلك لم يحل دون ارتقائهم الى مناصب كانت على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ أن (نظام الملل) الذى كان يعترف بالكيانات الدينية المختلفة أدى الى توفير الاستقلال الذاتى المحدود وكفل لهم حفظ كيانهم العـرقى بعـدما أصبح لرؤسائهم الدينيين سلطة ونفوذ عليهم (٣) ·

ولا يختلف الأرمن عن الاتراك والشركس كاقليات عرقية كانـت تخشى الذوبان فى الاكثرية ، فاصطنعت التسلط عليها وسيلة لاثبات التميز العرقى ، مع فارق اساسى هو أن الأرمن بخلاف الاتراك والشركس كانوا من ملة أخرى هي المسيحية ، ولكن الارمن لم يكن يعنيهم إظهار

هذا الاختلاف الدينى فى وسط أغلبية من المسلمين ، لذلك اختـــاروا تقليد الاتراك كاقلية من المسلمين اينما حلوا وشاركوهم فى النظر الى الأغلبية بكبرياء وصلف ، كما كانوا على استعداد دائماً للانضمام الى اى اقلية أخرى إذا كان ذلك يؤدى الى الحفاظ على مكانتهم كاقلية متمـيزة .

ازدهـار احـــوال الارمن

كان معظم الارمن فى مصـــر - عنـــد بدايـة القـرن التاســع عشر - وهم قليـلون جدا - يعملون فى ألوان عـــديدة من النشـــاط الاقتصادى ، وقد اهلتهم ظروفهم لتولى مهام تتلاءم مـع التطـــورات التى يمر بها المجتمع آنذاك خصوصا فى علاقاته مـــع الأجانـــب او الحكومات الأجنبية ، فهم والشوام المسيحيون بسبب وضعيتهم تحولـوا الى وكلاء وتراجمة ومقاولين للتجار الاوربيين (٤) .

والارمن خصوصا سعوا للحصول على امتيازات تكفل لهم الحماية فى التعامل مع الدولة فهم وان كانوا اصلاً أرمن رعوية عثمانية إلا أنهم اندمجوا فى جنسيات أوربية لحمايتهم وفقاً لما جـرى عليـــه العرف وطبقاً للإمتيازات الاجنبية التى كانت تخول السفراء فى الآستانة ان يمنحوا براءات او خطابات حماية يصدرها الباب العالى لعـــدد من الاشخاص يختارونهم لخدمتهم (٥) .

والواقع ان الارمن كانوا نوعين : الأول ، كان يجمع بين كونـــه آسيويا وبين أوربا ويحتفظ بالتقـاليد الشرقيـــة وعلى المـام باللغـــة التركية . والثانى ، كان متأثرا تماما بتقاليد أوربا والفكر الحر . وفى بـداية القـرن التاسع عشـر كان معظم الارمـن فى مصـــر ينتمـــون الى الفريق الأول ، لذلك كانوا مرشحين اكثر من غيرهم للقيام بدور هـام جدا بعد الحملة الفرنسية ، وأخذ دورهم فى التغير التدريجى من مجرد الاقتصار علي ممارسة دور الوكلاء التجاريين للقناصـــل في

كثير من اقاليم مصر الى الترشيح للعب دور هام فى مجال نقل المؤثرات الاوربية الى المجتمع المصرى ، والاقتراب بالتالى من مركز الحكم فى البـــلاد .

وعندما تولى محمد على حكم مصر كان الأرمن من الأقليات التى أبـدت لـه الولاء فكانت محل ثقته وتقديره ، وكان عدد منهم يعمل بالتجارة ، وابرزهم (يغيازار بيد روسيان) ، الذى استوطن مصر عام ١٧٩٠ وعمل فى تجارة الأحجار الكريمة ، وســرعان ما وثـــق علاقتـه بالباشا وأصبح مستشاراً اقتصادياً له (٦) .

ويرجع تعلق محمد على وثقته بهم الى خبرتهم فى مجال التجارة والمال التى نقلوها من مناطق نزوحهم ، فمناطق أرمنيا ذات موقـع جغرافى له اهميته وخطورته الاستراتيجية كطريق تجارى حيوى بين آسيا وأوربا (٧) . فاذا اضفنا الى ذلك الظروف التى تعرض لهـا الأرمن والناتجة عن كثرة الحروب والغزوات والكوارث والهجرات ، تبين لنـا الرصـيد الذى كونه الارمن والذى جعلهم أقلية ذات خبرات وتجارب ولديها الاســتعداد لكى تحـقق مكانة اجتماعيـة واقتصـادية متمـــيزة وتبدى الولاء للسلطة السياسية ، وهو مالاحظه الباشا منذ الوهلة الأولى لتـولى الحكم ، فكان يصرح بذلك أمام كبار رجاله (٨) .

والحق ايضا ان محمد على كان يسير على نهج سلاطين البـاب العالى فى ثقته بالأرمن ، وكان يعلم مقدار ما يتمتعون به من مــكانة اقتصادية فى استانبول ، وكان يدرك ايضاً أن أرمن مصر ذوى أصول إجتماعية منحدرة من الاناضول ، لذلك كان يدعو عائلاتهم الى مصر ، فحين توفى (يغيازار بيدروسيان) فى عام ١٨٢٥ أخذ محمد عــلى يبحث عن بديل له . ويقول باسكال كارمون الارمنى - قنصل فرنسا فى الاسكندرية - « ان مندوبي محمد علي قطعوا مسافة ثلاثة الآلاف كيلو

متر فى عمق الاناضول لهذا الغرض وانهم عثروا على اثنين من عائلة يغيازار ، أحدهما عمل مستشـــارا لـــه ، والثـــانى تولى منصبا فى الحكومة » (٩) ٠

ان ثقافة الأرمن ولغتهم التركية التى كانت اللغـة الرســمية فى مصر ، بالاضافة الى الاخلاص الذى أبـدوه للباشا فى بداية حكمـــه اتاحا لهم فرصة كبيرة لم تتح لهم قبل تـولى الباشا الحكم فى عـام ١٨٠٥ ان يصبحوا ساعده الأيمن فى شئون المال والخارجية ، فكانوا نافذته على أوربا ٠ فبخلاف (يغيازار بيدروسيان) ظهر تدريجيـــاً العديد منهم ممن شغلوا وظائف المالية والخارجية بجـــدارة ، بل وفى مجالات اخرى مختلفة ، وكان محمد على يعترف امام حاشـــيته من الاتراك فى مناسبات عديدة بأن الأرمن حـــين يشـــغلون المناصـــب الرفيعة فإنهم يعملون بكل إخلاص اكثر من أى جنس آخر ، وذكر فى حشد من رهبانهم ذات مرة « سوف نظل دائما نذكر كلمة الســـلطان محمود الثانى التى قال فيها ان المسلمين والمسيحيين هما عينـــاى ، وهما حـــين يخرجا من المسجد أو الكنائس يصبحا أخوة ٠٠ وأنـــى إذكركم بأن محمود الثانى كانت أمـــه فرنسية » وعقب محمد على على حركة الإصلاح التركية بقوله : « إن هذه الحركة أثبتت أن السلاطين فى دمائهم الحركة الاصلاحية المتأثرة بفرنسا ولكنهم عاجـــزون عن الوصول بهـــا الى مرحلة التنفيذ » (١٠) ٠

والواقع ان الباشا كان يسعى الى جلب الأرمن الى مصر منـــذ بداية عهده لنفس الغرض ، فبناء الدولة الحديثة وإستقرارها كـــان يحتاج الى عناصر لا تتصارع على المناصب السياسية ، ولا تشكل أدنى خطر على الحكم ، والأرمن كانوا مرشحين لهذه المهمة ، فهم أقليـــة عرقية من ناحية ومن ناحية أخرى أقلية دينية ولديهم مخـــزون من الخبرات والتجارب كونوه قبل مجيئهم الى مصر وفى بيئة مماثلة لمـــا

يجرى فى مصر ، أى فى الآستانة · فلم يكن هناك عائق أمــام نزوحهم إلى مصر · وفى مناسبات عديدة كان المقربون من محمد على من الارمن ينتهزون فرصة تحمس الباشا لمجيئهم الى مصــر ويجلبون ابنـــاءهم صغارا بأفضل الشروط ليتلقوا تعليمهم فى دول أوروبا منذ نعومـــة أظفارهم ويعودوا الى مصر مزودين بثقافة أوربية واسعة · وهنـــاك أمثلة كثيرة على هــــذا ، نذكر منها يوســف حككيان ، الذى ولد فى استانبول عام ١٨٠٧ من أسرة أرمنية كاثوليكيـــة · ومنــذ طفولته كان والده يحلم بأن يتلقى ابنه تعليمه فى انجلترا ، وتحققت هذه الأمنية حين توجه الى مصر وأصبح أحد تراجمة محمد على · وحين قرر محمد على فى عام ١٨١٧ ارسال عدد كبير من أبنائه وموظفيـه الى باريس لكى يتلقوا تعليمهم هناك ، انتهز والد حكاكيان الفرصة فطلب من محمد على أن يرسل ابنه - الذى كان يقيم مع والدته فى اســـتانبول - الى انجلترا · ولبى محمد على هذا المطلب (١١) ·

واغلب الأرمن الذين تبوأوا مكانة عالية بين موظفى محمــد على كانوا قبل توليهم هذه المناصب قد تلقوا تعليمهم وثقافتهم فى أوربا · ونجح اغلبهم - الى حد كبير - فى الجمـــع بين ثقافتين هما الثقافة الشرقية والثقافة الأوربية ، وكانوا أكثر هضما للثقافة الأوربية من رجال الارساليات التعليمية الأتراك أو غيرهم من الأقليات الاخرى ، فضلا عن أنهم كانوا أقدر على التعــامل مع الأوربيين أكثر من غيرهم ، بتعبير محمد على ذاته الذى ذكر ذلك فى مناسبة ما يثيره هؤلاء الأوربيون من مشاكل أثناء وجودهم فى مصر (١٢) ·

وكان الموظفون الأرمن يدركون أنهم جلبوا من تركيا لآداء مهمــة محددة لذلك كانوا يتهيأون قبل مجيئهم ليثبتوا جدارتهم عن طــريق التاهيل لهذه المهمة · وهم بخلاف الاتراك والشركس فى هذا الشــأن الذين تحول عدد كبير منهم ، بمجرد الاستغناء عن خدماتهم الى فريق

من العاطلين يتعيشون من كد الغالبية ، فمن النادر وجود عناصـر من الأرمن لا يعملون وهذا ما تثبته وثائق التعداد التى يدون فيها مهنة كل فرد من هذه الأقليات (١٣) . وربما ذلك لأن طبيعة دور الارمن كان يختلف عن دور الاتراك والشركس فى بناء الدولة الحديثة . فالاتراك والشركس كانوا أرباب السيف والأرمن كانوا أرباب القلم (١٤) .

وهناك فارق هام جدا بين الاتراك والشركس من ناحية والأرمن من ناحية أخرى . فالأرمن لم تغب عن أذهانهم لحظة فكرة اغترابهم فى مصر طالما هم يؤدون مهمة تخدم مصالح الاتراك من ناحية ومصالحهم من ناحية أخرى ، بخلاف الاتراك والشركس الذين كانوا مستعدين دائما لممارسة تميزهم العرقى على الأغلبية دون الانصهار فيهـا متسـترين بانتمائهم الى دين الأغلبية . لذلك كان أقرب الى الاحتمال أن ينشـأ صراع عرقى بين الاتراك والأغلبية على الرغم من انتمائهما الى دين واحد ، على العكس من الأرمن الذين لم ينشأ عن تميزهم العـرقى أى شىء . اذ المعروف أن الأرمن كانوا جميعا من المسيحيين ، وأغلبهـم أرثوذكس وأقلهم كاثوليك . ولا يعنينا بالطبع الأرمن الذين دخلوا دين الأغلبية ، وهم نفر قليل لايقاس عليهم . فالأرمن اذن أقلية عرقيـة مختلفة دينيا عن الأغلبية بل وعن الاقلية التركية والاقلية الشركسية . وفى الوقت الذى حرصت فيه الاقليتان الاخيرتان على عدم الانخراط بالأغلبية الى حد كبير ولم تعرفا لغتها ، فان الأقلية الارمنية ـ خصوصا المثقفين منهم ـ لم تسلك نفس النهج . فهم من ناحية اختلطوا بالأغلبية ومن ناحية ثانية كما عرفوا التركية تعلموا اللغة العربية ولغات أوربيـة اخرى مثل الفرنسية والانجليزية ، الى جانب لغتهم الأصلية وهى اللغة الأرمنية ، وكون هؤلاء الارمن فريق الموظفين الكبار الذين شغلوا مناصب رفيعة في الخارجية والتجارة والموانىء واستطاعوا من خـلال هـذه

الوظائف أن يسيطروا على عصب الحياة الاقتصادية والشئون الخارجية ٠ ولدينا أسماء شخصيات ارمنية كمثال على ذلك ، أبرزهم « بوغوص بك يوسفيان » ، الذى بدأ العمل مع محمد على كمترجم ومستشار شخصى له فى عام ١٨٠٥ ، ثم تولى وظيفة (ناظر الجمارك) ٠ وحقق من عمله فى الجمارك أرباحا طائلة فى الفترة من عام ١٨١٤ - ١٨١٩ ، وبعد ذلك ترقى فى عدة وظائف أخرى فى الخارجية والداخلية مثل (ناظر الخارجية وديوان الداخلية) ، وظل يعمل بها حتى توفى عام ١٨٤٤ ، ويذكر المؤرخ الكبير المرحوم شفيق غربال « أن محمد على حين علم ان محافظ الاسكندرية لم يقم بواجبه فى الاحتفال بتشييع جنازة بوغوص بك ساءه ذلك وكتب اليه موبخا لعدم ارسال العسكر وخلافه فى الجنازة وقال : ولا أدرى ما الداعى لذلك ولا يخفى عليكم الخدم المبرورة التى أداها بوغوص بك فى نحو ٤١ سنة ونبه عليه بتدارك ما فاته (١٥) ٠

الواقع ان بوغوص بك كان فى طليعة الأرمن الذين كانوا يمثلون نافذة مصر على أوربا فى فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ٠ ولاشك انه يمثل ايضا آداة من ادوات التقارب بين مصر واوربا ٠ وبراعة بوغوص بك تكمن فى نجاحه فى النفاذ الى شخصية محمد على القوية وإقناعه بقبول افكاره المتأثرة بالثقافة الأوربية وكونه من الفريق الذى نجح فى المزج بين الثقافتين الأوربية والتركية ، فقد كان ولاء بوغوص للدولة الام - تركيا - كبيرا وكان يرى أنه يقع على عاتقه مهمة المواءمة بين حركة الاصلاح التى تنتهجها استانبول منذ عصر محمود الثانى وبين افكار النهضة والحداثة فى أوربا ، والدليل على ذلك تاثره بغزو محمد على للحدود التركية حيث كان يرى أن محمد على جانبه التوفيق فى ذلك (١٦) ٠

وبوغوص يوسفيان بك يمثل جيل من الأرمن الذين نزحوا الى

مصر وتولوا وضع أسس للاطلال على الثقافة الأوربية ، فلم تكن لديه أدنى حساسيات من التعامل مع أوربا بسبب الاختلاف فى الدين أو الجنس ، بخلاف الاتراك والشركس الذين كانوا يشعرون بحساسية مفرطة فى هذه الناحية ، لذلك تجمع كتابات الاوربيين المعاصرين لبوغوص بك بأنه كان يعرف كيف يتعامل مع الاوربيين ومع الأتراك على السواء وانه يمثل بحق أول من وضع ترتيبات وأسس التعامل بينهما ، وأنه كان يجمع فى أسلوبه بين الجرأة والجبن وهى نوعية نادرة من الاخلاق ، وانه كان يتميز بالمرونة والحنكة والدقة وكان يلجأ للتوفيق بين الطرفين (١٧) .

على أن ما يلفت الانتباه بحق هو هذا النفاذ المؤثر للإرمن فى الاقتصاد والسياسة الخارجية فى مصر وظهور فريق من الأرمن قليل العدد كبير التأثير فى الحياة المدنية ، اذ لم يكن لهم شان ملحوظ فى الحياة العسكرية - على نحو ما هو معروف - فهناك اسماء قليلة ولكن مؤثرة بخلاف بغيازار بيدروسيان وبوغوص يوسفيان ومن بين هذه الاسماء جرابيت اغا بيدروس .

الصفوة المدنية الارمنية

تكونت حول هذه الاسماء الارمنية أسر أرمنية تركز معظمها فى القاهرة والاسكندرية ، ولم يقيم منهم فى غيرهما من المدن سوى نفر قليل جدا ، ولكن هذا النفر كان يقيم لفترات محددة ثم يعود الى القاهرة أو الاسكندرية ، لذا اقامت معظم الاسر الارمنية فيهما . واختاروا الاقامة الى جوار عناصر الاقليات التركية والشركسية وغيرهما ، ولم يقيموا باحياء خاصة بهم (١٨) .

وابرز عائلات الارمن فى مصر فى بداية القرن التاسع عشر عائلة ميسكيان وعائلة نوباريان وعائلة الطرزى . اما عائلة ميسكيان فكان

منها الكسان ميسكيان أول صراف للباشا ، وهاجوب ميسكيان ، وكانا أخوان عملا بالناحية المالية فى عصر محمد على ، وهما من أسرة (يغيازار بيدروس) فهو خالهما (١٩) .

اما الكسان ميسكيان ، فقد ولد فى تركيا عام ١٨٠٠ ، واحضره خاله يغيازار عام ١٨٢٠ ، وانضم وأخوه هاجوب الى خدمة محمد على ، واصبح الكسان فى عام ١٨٢٥ أكبر صراف فى مالية الدولة ، وكان المسئول الأول عن الضرائب . وقد تزوج من احدى الارمنيات ابنة احد كبار التجار الأرمن فى القاهرة ، تدعى (تاكوهيم مريم) . وفى عام ١٨٢٨ كان المسئول الأول عن جمع ضرائب قبلى وبحرى ، بتفويض من عباس حليم . وحين كان يعالج فى ايطاليا (بيزا) عام ١٨٤٨ استقبل محمد على باشا فى (نابولى) . ولم تمر سوى فترة قصيرة حتى توفى ، وحضر جنازته فى مدافن الأرمن فى مصر القديمة ـ التى تكلفت ٣٠٧٧٦ قرشا ـ عدد من كبار شخصيات مصر آنذاك (٢٠) .

وفى عام ١٨٢٠ جاء هاجوب ميسكيان الى مصر ، وكان من رجال الدين الارمن ، فضلا عن انه كان اميناً لمالية مصر . وحصل على نيشان من الباشا بسبب أمانته . واشترك فى المجلس المحلى للقاهرة عام ١٨٤٠ وتولى صندوق خدمات الايتام . وفى الفترة من عام ١٨٤٢ الى عام ١٨٤٤ كان عضو شرف لجريدة تصدر فى أزمير . وتوفى عام ١٨٥٨ (٢١) .

وترك الاخوان الكسان وهاجوب ثروة كبيرة . فقد تبرعا للكنيسة بأرض زراعية فى نواحى اشمون جريس بمديرية المنوفية تقدر بنحو ١١٣ فدانا وكسور . كما أنشأ الأخوان مصحة وداراً للعبادة فى حارة زويلة واوقفا اراض أخرى لأعمال خيرية وتربوية (٢٢) .

وهذا الفرع من عائلة (يغيازار بيدروس) ينتمى الى فريق الأرمن الذين عالجوا صنوف التجارة واشتغلوا باستثمار المال ، وكونوا ثروة طائلة وجذبوا اليهم اعدادا اخرى من ارمن تركيا ، أتوا فى ركابهم بعد سماعهم لفرص الكسب المتوفرة فى مصر . ويمثل جرابيث اغا احد هؤلاء . وجرابيت اغا ، مولود فى (فن) من مناطق ارمنيا القديمة عام ١٧٩٠ ، ووصل الى مصر عام ١٨٢٠ عند اخيه (خاتشادور) واول عمل قام به هو التجارة مع الاخوان ميسكيان (الكسان وهاجوب) فى منطقة الموسكى (٢٢) .

وبعد فترة قصيرة إستطاع (جرابيت اغا) تكوين ثروة كبيرة ، واحتكر - بتفويض من محمد على - الملاحات فى المطرية بنواحى الدقهلية وكان يتم توزيع الملح من هذه الملاحات على اقاليم مصر جميعها . وتمكن (جرابيت اغا) من العمل فى تجارة القمح والبذور ، وتملك عدداً كبيرا من المراكب الشراعية (٥٠ - ٦٠ مركبا) كانت تجرى فى النيل تحمل بضائعه ، وفتح مكتباً تجارياً بجوار ترعة المحمودية بالاسكندرية (٢٣) .

وحين كان عباس باشا ابن طوسون ، والى مصر فيما بعد عام ١٨٤٨ متغيباً فى الحجاز بسبب خلافات مع ابراهيم باشا (٢٤) . قدم له (جرابيت اغا) المساعدة . وبعد توليه الحكم عينه مديراً لمصلحة صك النقود فى الفترة من عام ١٩٤٨ الى عام ١٨٥٤ (٢٤) .

والواقع ان هذا الفريق من الأرمن الذين عملوا بالمال والتجارة كان يقوم بنفس الدور الذى يقوم به (فريق الاميرال) فى استنابول ، دور التاثير المباشر على الحكم من خلال السيطرة على الاقتصاد . وكان الاتراك والارمن قد ارتضوا هذا ، ان يتقاسما معا شئون الدولة . والارمن فى هذا الشان يختلفون عن الشركس ، اذ نستطيع القول ان

الشركس يأتون خلف الاتراك من حيث المكانة لتشابه كليهما فى العمل وهو الحكم والادارة ولكن يصعب أن نقول ذلك عن الأرمن فهم شركاء للاتراك وليسوا أتباعاً بسبب اختلاف العمل ، فهم يكونون صفوة مدنية تعمل على تحريك عجلة الاقتصاد على حين يتولى الاتراك والشركس شئون الحكم والادارة . ولاشك ان هذا الموقع الذى احتله الارمن فى مصر أثار عناصر الاقليات الأخرى التى كانت تتابع عن كثب تزايد نفوذ الأمن فى بلاط الباشا . فبعد رحيل بوغوص يوسفيان فى اوائل عام ١٨٤٤ كان الأرمن قد حظوا بمنزلة كبيرة وازدادت ثقة محمد على فيهم ، فاختار (ارتين بك تشراكيان) خلفاً له (٢٥) .

وارتين بك تشراكيان يمثل جناح المثقفين الأرمن الذين درسوا فى فرنسا . وهو أرمنى كاثوليكى قام بدور كبير فى ترجمة عدد كبير من الكتب من الفرنسية الى التركية لخدمة الجيش والتحق بوظائف عديدة فيه ، ثم فى مدرسة المهندسخانة ، ثم سكرتيرا اول وترجمانا لمحمد على قبل أن يصبح وزيرا للتجارة والخارجية .

وكان ارتين بك همزة الوصل بين الباشا ودول أوربا وتركيا . فقد كان يجيد اللغات التركية والفرنسية والايطالية والانجليزية . وفى عام ١٨٤١ ، اى قبل أن يصبح وزيراً للخارجية كان من وفد المفاوضة مع وزير خارجية انجلترا ووزير خارجية فرنسا لحل الأزمة الناشئة عن وصول جيوش محمد على للاناضول . وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين رشيد باشا سفير تركيا فى باريس آنذاك (٢٦) .

وكان الاخوان ارتين بك تشراكيان وخسرو تشراكيان يمثلان قطبا الخارجية المصرية بعد بوغوص . وبسبب افكارهما المستنيرة لقيا معارضة كبيرة من فريق الاتراك والشركس ، ومع ذلك ظلا موقفهما قوياً ، وكان نوبار قد نشأ الى جوارهما وهو فى بداية حياته

عام ١٨٤٧ ، فاصبح الثلاثى الارمنى ارتين بك تشراكيان وخسـرو ونوبار هم الذين يديرون دفة الخارجية المصرية وبلغـوا الذروة فى نهاية عصر محمد على (٢٧) ٠

وهكذا كان الأرمن هم واضعوا أسس السياسة الخارجية المصرية مع بنـاء الدولة الحديثة فى مصر ٠ وهم أقوى اجنحة الصفوة المدنيـة بسبب موقعهم من الحكم وبسبب دورهم الهام فى العلاقات مع أوربا ٠ ويمكننا القول أن هذه الفترة تمثل العصر الذهبى للأرمن فى مصر ٠ على انه ينبغى ان نطرح سؤالا هاما حـول اسباب أختيار محمـد على لهم بالرغم من انه كان بإمكانه الاعتماد على الالبانيين من بنى جلدته الذين كان باستطاعتهم القيام بهذا الدور ؟ لاشك ان الباشا كان يعلم ان البانيا تقدم سياسيين بارزين الى تركيا ، وكانوا يمثـلون عنصرا هاما فى السياسة التركية فى استانبول ، ولكنهم كانوا بخـلاف الارمن منعزلين تماما عن أوربا ، فضلاً عن أنهم لا يعرفون اللغات الاجنبية كما كان يرى انهم ينزعون الى الناحية العسكرية اكثر ومن المعروف عنهم ميلهم للتمرد وعدم النظام (٢٨) ٠ ولاشك ان ذلك جعل الأرمن القوة الاولى المرشحة للقيام بدور هام فى السياسة الخارجية خصوصا ، وعلى اعتبار انهم سوف يلعبون دوراً مؤثراً فى التعامل مع أوربا ٠

وهكذا توفرت العوامل التى أدت الى جعل الصفوة الارمنية تحظى بثقة محمد على بالرغم من عدم اعتناقهم دين الاغلبية وهو الاسلام ٠ فقد كان الباشا يحتكم الى المساواة بين العناصر ويتمـيز بالعـدالة ، ففى عهده كان من تلاميذ البعثات العلمية ارتين خشادور واصـطفان خشادور فى مجال فنون الحـرب ، واصـطفان بك وأوهان افندى اصطفان ويوسف افندى اصطفان فى مجال القـانون والسياسـة ٠ وبترو يوسف افندى فى مجال الطب والصيدلة ٠ ويوسف افنـدى فى مجال الزراعة والكمياء والطبيعة وغيرهم (٢٩) ٠

المهم انه بانتهاء عصر محمد على أصبح فى مصر صفوة مدنية أرمنية ذات شأن ، بعد أن كانوا مجرد اعداد قليلة فى بداية القرن التاسع عشر ، وأصبح لهذه الصفوة طموحاتها ، واخذوا ينافسون الاقليات العرقية الاخرى ويحاولون إثبات جدارتهم مهما كانت التضحيات . وهذا معنى ان الارمن كانوا أقلية لا ترتكز على كونها طبقة الفاتحين الظافرين ، كما هو الحال بالنسبة للاتراك أو الشركس . وهذا الوضع كان وراء كافة تصرفاتهم ، وجعلهم باستمرار موضع حسد من الاقليات الاخرى ، لأنهم كانوا يرون انفسهم لا يقلون مكانة عنهم .

الأرمن فى عصر عباس الأول :

ارتبط ازدهار أو تدهور حال الأرمن بدورهم فى بناء الدولة الحديثة . لذا تعرض دورهم للتصفية فى أعقاب انتهاء عصر محمد على، فى الوقت الذى كانوا يثبتون فيه أقدامهم فى مصر ، وينتقل دورهم من مجرد النشاط الاقتصادى الى النشاط السياسى . ومعروف أن عباس الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) أخذ يراجع كثير من الأمور التى كانت قد بدأت فى عصر محمد على وأمعن فى سياسة الحذر من الغرب ، ورمى الى هدم النفوذ الأوربى فى مصر ، وبادر فى أول عهده الى ابعاد الأرمن من الوظائف العليا التى وصلوا اليها واستغنى عن خدمات أرتين بك ـ تشريكيان أبرز الشخصيات الأرمنية آنذاك وراعى شئون الأرمن ـ وسجنه ولكنه استطاع الافلات من قبضة عباس وهرب الى فرنسا (٣٠). كما أبعد نوبار الى فينا (٣١) .

وبالرغم من ذلك فان تجار الأرمن فى مصر لم يتأثروا بذلك ، فظلوا يمارسون أعمالهم التجارية والمالية فى القاهرة والاسكندرية ومدن الأقاليم ، وحققوا ثروات ضخمة ، فضلا عن أن أكثرهم تملك الأطيان الزراعية والعقارات (٣٢) .

وكان بمصر عدد من الأرمن الذين أتى بهم محمد على من تركيا للعمل فى الحرف المختلفة منهم الحـــدادون والبناؤون والصـــرماتية والترزية ، وكونوا أسراً أرمنية فى القاهرة والاسكندرية ، من أشهرهم أسرة بليان ، وهى أسرة مشهورة بأعمال الهندسة والعمارة (٣٣) ٠

معنى هذا أن استغناء عباس الأول عن أصحاب الوظائف الكبيرة من الأرمن لم يقض على الأقلية الارمنية بسبب تغلغلهم فى الحياة المدنية فى المجال الاقتصادى ـ وهو على نحو ما عرفنا دور قديم أسبق من فترة محمد على ـ ولكنه اكتسب بعدا جديدا مع بناء الدولة الحديثة وترتب عليه زيادة أعداد الأرمن فى القرن التاسع عشر ٠ ولاشك أن موقف عباس باشا من الأقلية الأرمنية التى تأثرت بسياســته قد أسهم فى جعل أفرادها الأغنياء يتكاتفون من أجل مواجهة الموقف ، اذ لم تعد لهم نفس الحظوة التى كانوا يتمتعون بها فى عصر محمد على ، فأخذوا يهتمون بشئون الأرمن الاجتماعية ٠ فتسجل وثائق المحاكم الشرعية مواقف عديدة تدل على حرص هؤلاء الأغنياء الارمن على التعاطف مــع فقراء الأرمن ـ وهم قلة محدودة ، فضــلا عن عنايتهم بشــئون الأرمن فى المجـــالات الاجتماعية الأخرى مثل بناء مدرسة للارمن وكنيسة وغير ذلك من أوجه النشاط الاجتماعى الخيرى (٣٤) ٠

والواقع أن هذه الجهود كانت استمرارا للدور الذى كان يقوم به اغنياء الأرمن منذ عصر محمد على ، ولكن مع فارق أساسى هو أنهــم دخلوا فى تنافس مع الجاليات الأخرى ـ خصوصا الأوربية ـ التى بدأت فى التدفق على مصر مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠ فعلى حين ظل تعليم أبناء الأرمن حتى هذه الفترة فى أوربا وبأوامــر من الباشا بدأنا نلاحظ لأول مرة عناية أغنياء الارمن بضرورة اقامـــة مدرسة لأبنــاء الأرمن فى مصر (٣٥) ٠

وكان تعليم أبناء الأرمن الذى لايشملهم أمر الباشا بالسفر الى أوربا يتم فى مكان العبادة ـ وهو الكنيسة ـ ويشكل تقليدى . وهى الجذور الأولى لتعليم أبناء الأرمن ، وقيام مدرسة أرمنية فى مصر خاصة بابناء الأرمن عام ١٨٥٤ . ولكن قبل انشاء هذه المدرسة كان يوجد كتاب للارمن هو كتاب سركيس عام ١٨٢٢ فى حارة زويلة بالقاهرة وفى هذا الكتاب كان الرهبان أو رجال الدين يقومون بدور تربوى فعال (٣٦) .

وحين تزايدت أوقاف أغنياء الأرمن من أجل أبناء الطائفة بدأت مصالح الطائفة تتزايد ولعبت الكنيسة الأرمنية دورا هاما فى هذا الصدد ، وكانت تابعة لكنيسة القدس ثم انفصلت عنها ، فقد كانت معظم الأوقاف من أغنياء الأرمن يتولى مطران الارمن نظارتها ، ويعد (يغيازار بيدروس) أول من أوقف أملاكا لصالح أبناء الطائفة الأرمنية فى مصر ، وارتبط بها بداية تعليم أبناء الأرمن فى مصر عام ١٨٢٨ وتضمنت وقفيته أن يتولى مطران الأرمن نظارة وقف يشمل أطيان وعقارات فى حارة زويلة لصالح الطائفة الأرمنية فى مصر ، يضم هذا الوقف مبنى من ثلاث حجرات ومن دورين ، أحدهما للفقراء لاقامتهم والدور الثانى خاص بالكنيسة وكان هذا أول مكان للعبادة والتعليم للطائفة الأرمنية فى مصر (٣٧) .

أما جرابيت أغا الذى توفى عام ١٨٦٤ فقد ساهم فى بناء كنيسة للارمن فى عام ١٨٣٨ فى منطقة بين السورين ، ودفع مبلغ ١٠٤٠٠ قرشا . ويعتبر جرابيت أول أرمنى ينفق من ماله بسخاء من أجل اقامة أول مدرسة أرمنية عام ١٨٥٤ على أرض مملوكة للبطريركية ، فدفع حوالى ٢٠ الف فرنك من العملة الذهبية . ولكى تستمر المدرسة الأرمنية فى أداء رسالتها أوقف أرضا فى مناطق الشيخ عتمان ودلجا (نواحى

الصعيد) ففى دلجا أوقف عزبة ٤٠٠ فدان ٠ وفى الشيخ عتمان - احدى قرى الجيزة - أوقف ٣٤٠ فدانا بها ٦٠٠٠ نخلة ، وكان ينفق من ريع هذه الأوقاف على المدرسة الأرمنية وابناء الارمن الفقراء (٣٨) ٠

وهذه الأمثلة عن الشخصيات الأرمنية التى أعطت الرعاية للاقلية الارمنية فى عصر محمد على وعباس الأول تبين أن الأرمن فى مصر ازداد شانهم ، وانهم وان انكمش دورهم السياسى نسبيا فى عصر عباس الأول الا أنهم نشطوا اجتماعيا واقتصاديا ٠ ومع ذلك فان انسحاب الأرمن من الحياة السياسية آنئذ ترك فراغا ملموسا أمام عباس باشا مما جعله يضطر الى ملأ هذا الفراغ الذى تركه أرتين بك تشراكيان بهروبه الى فرنسا ، وذلك باستدعاء (اراكيل بك) و (اسطفان بك دميرجيان) ٠ والأول هو شقيق نوبار بك ، وتولى ديوان الخارجية ٠ والثانى تولى ديوان التجارة ، ثم لم يلبث أن قتل عباس باشا بعد ذلك فى عام ١٨٥٤ (٣٩) ٠

وبانتهاء عصر عباس باشا لوحظ أن النفوذ الأرمنى فى السياسة المصرية قد ضعف وأن أعداد الأرمن فى مصر قد تزايدت ، بمعنى أنه واكب زيادة عدد الأرمن ضعف وجودهم فى المناصب الرسمية ، فعددهم قبل عام ١٨٢٢ كان لا يزيد عن ٣٠٠ فرد ولكنه عند أواخر عصر محمد على ارتفع الى ألفين وظهر بينهم عائلات متوسطة الحال وعائلات فقيرة لأول مرة ٠ وبخلاف بدايات القرن التاسع عشر كانت الأعداد القليلة الموجودة منهم تبادر الى الدخول فى دين الأغلبية ، نلاحظ أنه مع تزايد نفوذ الأقلية الأرمنية فى عصر محمد على وأعداد أفرادها حرصهم تثبيت مكانتهم الاجتماعية والدينية ٠ فعند بداية القرن التاسع عشر كان هناك بعض الأرمن المماليك امثال محمد كتخدا المسلمانى (١٧٩٠ -

١٨٠٠) وهو أرمنى اعتنق الاسلام ، ومصطفى كحيا جبرجى وهو ارمنى مملوكى اعتنق الاسلام وبيدروس وغيرهم (٤٠) • ولكن مع مشروع الدولة الحديثة وجدنا الأرمن يكافحون من أجل المساواة بالمسلمين • وابرز مثال على ذلك يوسف الطرزى ، وهو أرمنى كاثوليكى كان يعمل فى وظيفة مترجم ومسئول عن مخازن الذخيرة • وهو الذى قدم شكوى الى محمد على بسبب التفرقة فى الزى المستند الى العقيدة - حيث كانوا يرتدون ملابس خاصة تميزهم - فاستجاب الوالى محمد على له ، وصدر مرسوم فى ١٤ مارس عام ١٨٠٧ يلغى هذا التميز (٤١)• ولكن فى عام ١٨١٨ أصدر المحتسب قرارا فى مصر القديمة برجوع الأرمن والمسيحيين للزى القديم وان يرتدوا العمامة الزرقاء المميزة ويمنع عنهم ما استفادوا منه ولا يعمل عندهم موظف مسلم ، وأن يسمح لهم فقط ببناء القصور على ضفاف النيل (٤٢) •

المهم ان الأرمن فى نهاية عصر عباس الاول اصبحوا أقلية متميزة عن الاتراك والشركس واصبح لهم كيانا خاصا بهم ، ويمارسون دوراً اقتصاديا واجتماعيا ملحوظا فى مجتمع الاقليات العرقية ، ولم يعد بالامكان الاستغناء عنهم • بدليل ان سعيد باشا حين تولى عام ١٨٥٤ بادر الى اعادة تعيين الأرمن المفصولين من وظائفهم ، فعادوا الى الازدهار مرة أخرى ، ولكن هذه المرة بدأت أقليات عرقية اخرى تتوافد على البلاد ، وأقصد بها الأقليات الاوربية ، فدخل الأرمن مرحلة جديدة •

الأرمن فى عصر سعيد

أصبح للأرمن أملاكهم وضياعهم ومؤسساتهم الدينية والتربوية فى مصر بعد منتصف القرن التاسع عشر • وعادت الشخصيات الأرمنية البارزة الي مسرح السياسة الخارجية المصرية للقيام بدور همزه الوصل

بين أوربا ومصر . وهو نفس الدور الذى رشحهم محمد على للقيام به كما أشرنا من قبل وكان سعيد باشا قد استدعى اكثرهم من أوربا ، وعلى رأسهم نوبار (٤٣) .

والواقع ان أشد ما كان يقلق الأرمن فى بداية عهد سعيد باشا تدفق العناصر الأوربية التى كانت تهدف الى الكسب السريع بأى ثمن ، فضلاً عن أن الاقلية الأوربية كانت مصدر تهديد للأقلية الارمنية لما تتميز به من همة ونشاط وكفاءة . وكان الأرمن يدركون ان كل زيادة فى نفوذ هذه العناصر تعنى اضعاف شأنهم ، خصوصا وان سعيد باشا أظهر ميلاً ملحوظا للاستعانة بهم (٤٤) فأصبح الأرمن بين حسد وغيرة الاتراك والشركس من ناحية ، ومباراة وتنافس الأوربيين من ناحية أخرى ، لذلك كان امتحان كفاءة وقدرة الأرمن موضع اختبار اكثر من اى وقت مضى ، على ان الأرمن كانوا مرشحين للنجاح بفضل كفاءتهم من ناحية ومعرفتهم التامة بالاتراك من ناحية ثانية .

واشد ما كان يثير الأرمن ان سعيد باشا تزداد فى عهده اعداد الاجانب الاوربيين فى مصر ، لأنهم كانوا يتمتعون بامتيازات - منحتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين فيها منذ عصر سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) وانه طبقا لهذه الامتيازات كان الاجنبى لا يحاكم الا فى القنصلية التابع لها ولا تنطبق عليه القوانين المحلية المستقاة من الشريعة الاسلامية ، كما كان مسكنه لا يفتش ولا يتعرض للقبض عليه الا باذن من قنصليته ، معنى هذا أن هذه الامتيازات سوف تجعل الاوربيين فى موقف الترجيع على الارمن الذين لا يتمتعون بهذه الامتيازات ، لذلك كان من الارجح مقاومة الأرمن للنفوذ الأوربى فى مصر اذا تمكنوا من ذلك أو مساومتهم اذا عجزوا عن المقاومة . ولم يكن ذلك غريباً فوضع الأقلية الارمنية حتم عليها هذا ، فلا

الاتراك او الشركس يركنون اليهم بشكل تام ، ولا الاوربيون يقبلون بالزحزحة عن اهدافهم فى الكسب بأى ثمن خطوة واحدة . لذلك كان الارمن فى عصر سعيد باشا حريصين على التلويح بخطورة التغلغل الاجنبى الأوربى وتأثيره على استقلال فى مصر ، وكان نوبار الذى تولى وزارة الخارجية فى عام ١٨٥٧ على رأس الأرمن الذين نوهوا الى ذلك (٤٥) .

ونوبار هو الذى خلف اراكيل نوباريان شقيقه فى منصب وزير الخارجية عام ١٨٥٧ ، وكان الاخير قد شغل هذا المنصب فى عام ١٨٤٨ ثم نقله سعيد باشا الى السودان ، وكان أول مسيحى أرمنى يعمل فى وظيفة محافظ السودان (٤٦) .

وبفضل الولاء الذى أبداه الأرمن للوالى استطاعوا الحصول على مزايا لخدمة أهداف ومصالح الطائفة ، ففى عام ١٨٦١ استطاع بطريرك الأرمن - وهو الرئيس الروحى - والذى قدم عريضة للوالى ، أن يحصل على ٤٠٠ فدان أبعادية فى مديرية روضة البحرين (الغربية والمنوفية) كإحسان على فقراء الطائفة الارمنية فى مصر (٤٧) .

معنى هذا أن الطائفة الارمنية إستطاعت العودة مرة أخرى الى سابق انتعاشها ، وأخذت تمارس دورها بشكل كامل . والواقع أن الأقليات بصفة عامة توفرت لها فى عصر سعيد باشا كل الضمانات بعد حركة الاصلاحات الواسعة التى تمت فى عهده والتسامح الذى أبداه مع الاجانب والاقليات عموماً ، فاقبل الأرمن على تملك الأطيان ، وفى أواخر عهد سعيد باشا كان منهم كبار ملاك الأراضى العشورية ، أمثال (خسرو بك) الذى أصبح يملك ٩٠٠ فدان من أطيان البحيرة ، و (يعقوب الكسان) وهما ممن نشطوا فى تملك الاراضى الزراعية منذ فترة مبكرة في نواحي الجيزة (١١٢ فداناً من ناحية ميت القائد) ،

كما آلت اليهما أطيان بوغوص بك بعد وفاته سداداً لديون اقترضها منهما ومساحتها ١٥٠ فدانا بمسطرد والمطرية ، وكان لهما اطيانا أخرى فى نواحى المنوفية (١٠٠ فدان من أبعادية عزبة أشمون) ، وكانا يملكان ٣٠٨ فدانا بنواحى المنوفية والقليوبية والبحيرة (٤٨) .

وفى الاسكندرية إزدادت أنشطة الأرمن خصوصـــا فى المجـالات التجارية ، وتمكنوا من تحقيق ثروات كبيرة من العمـل فى التجـــارة وكانوا ذوى شأن كبير فى (ديوان المبيعات) بها فكان منهم الصيارفة والتجار وتوارثوا الوظائف التجارية التى كان يشـغلها أقطابهـــم فى عصر محمد على وعلى رأسهم بوغوص باشا ، وهناك شخصيات أخرى جاءت بعد ذلك ، أمثال يوسف ملكون ، الذى كان يعمل صرافا فى خزينة المبيعات فى عصر سعيد باشا وترك ثروة كبيرة كما تدل وثائق المحاكم الشرعية عام ١٨٥٦ تقاسمها ابناؤه ملكون ، والكسان ، وخســـرو ، ومهرتا ، وهيلانه ، وزوجته الأرمنية مكر (٤٩) .

وتدل وثائق المحاكم الشرعية على أن الأقلية الأرمنيـــة كانـــت أقلية مستقرة . يقوم بين افرادها ترابط ملحوظ ، ففى كثير من الاحيان كانت مصالحهم الإقتصادية يتولاها اعيانهم ، على ســـبيل المثال فى مدينة الاسكندرية ، كان منهم الخواجة وانيس بن عزار ، وبوغوص بن ونيس ، وبتراكى بـــن بوغوص ، وجرابيت بن كركور (٥٠) .

وفى مدينة الاسكندرية أيضا كانت الأقلية الارمنية تمتلك أراض عقارية كان قد منحها لها عميد الطائفة بوغوص بك فى أواخـــر عصر محمد على . وقد بنـــى على هذه الأرض كنيسة القديس بوغـــوص بيدروس ، كما بنى عليها مدرسة بوغوصيان (٥١) .

أما فى القاهرة ، فقد إنتعشت أحوالهم أيضـــا فى عصـــر سعيد

باشا ، وأقاموا فى مناطق معروفة هى شارع بين السورين وما يتشعب منه الى درب الجنينة ودرب مصطفى وحارة زويلة والخرنفش (٥٢) . ومما يلفت النظر أنهم لم يمكثوا على بقائهم الاول فى الاحياء المجاورة للأقليات التركية والشركسية بل بدأوا يتنقلون الى مناطق اخرى . وفى حارة زويلة إختلطت العائلات القبطية بالأرمن وتصاهروا معهم ، كما تزوج بعض الأقباط من أرمنيات لم يلبثن أن تشربن عادات ازواجهن (٥٣) .

وفى شارع بين السورين كانت توجد بطريكخانة الأرمن الارثوذكس ، اما بطريخانة الأرمن الكاثوليك ففى درب الجنينة (٥٤) . والأرمن الكاثوليك أقل عدداً واكثر ثراء من الأرمن الأرثوذكس . وقد لعبت البطريركية الارمنية عموما دوراً هاماً فى مجال التعليم والتربية وفى مجالات الخدمات الاجتماعية بصفة أساسية . وتولى البطريرك النظارة على الأوقاف للانفاق من ريعها على المؤسسات الدينية والتربوية والفقراء وكان ناظرا على تركة يغيازار بيدروس عام ١٨٢٧ التى أوصى فيها بأن يصرف منها على جميع المؤسسات الأرمنية فى مصر واستانبول والقدس ، وتأسيس مستوصف خيرى للارمن ، وإقامة بئر فى حارة زويلة للشرب ، وتخصيص عشرة آلاف قرش لدير الأرمن فى القدس ومثلهم لكنيسة استانبول ، لإقامة مستشفى للأرمن فى استانبول (٥٥) .

والجدير بالذكر ان الاقلية الأرمنية الكاثوليكية كانت تتبع مطران الارمن الكاثوليك باستانبول ، وانه كان لها قانون أساسى خاص بها بناء على الفرمان الهمايونى الصادر من الباب العالى فى ٦ يناير عام ١٨٣٠ ، وأن هذا القانون يتناول كافة الشئون المتعلقة بالأرمن الكاثوليك فى مصر ، ومن أهمها المحافظة على ممتلكاتهم والأحوال الشخصية لهم من معمودية وزواج ودفن وخلافه ، بالاضافة الى ما يختص

بالكنائس والاديرة والمدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية وغيرها (٥٦) ·

وليس من شك فى أن الأرمن فى مصر ظلوا يهفون بقلوبهم الى بنى جلدتهم فى الأراضى التركية لما يربطهم بهم من علاقات ، فمعظم عادات الأرمن فى مصر هى من عادات الأرمن فى تركيا ، ومنها عنايتهم بامر عائلاتهم وايجاد النظام والترتيب فيها والميل الشديد الى التعليم وعدم النزوع الى الثورة · لذلك ظلت البطريركية الكاثوليكية تتبع مطران استانبول ولم تنقطع اواصر هذه العلاقات الاجتماعية بين الأرمن فى مصر ونظرائهم فى استانبول وبلاد الاناضول (٥٧) ·

والأرمن فى مصر ينسبون الى مناطق نزوحهم فى تركيا · فهناك الارمنى الاستانبولى والارمنى الازميرلى وغير ذلك ، وهم يتنقلون بين مصر وتركيا عند الضرورة · فبنات مكرديش الارمنى ، وهن من أرمن ازمير فى عام ١٨٥٩ أنبن عنهن (اصفادور بن ابرو) الارمنى الازميرلى فى قبض واستخلاص ما يخصهن من تركة أخيهن (اراكيل بك) مدير الخرطوم ، وكانت هذه التركة تحتوى على نقود وامتعة وعقارات ، وذلك بموجب حجة موثقة من محكمة أزمير ، والشهود عليها عناصر أرمنية هم بيدروس بن اصفادور وزادور بن مرقوص (٥٨) ·

ولا شك أن ارتباط الارمن بأرض تركيا على هذا النحو يدل على مكانة الأرمن الكبيرة عند الأتراك بسبب نجاح الأرمن فى التعامل معهم وحرصهم على أن يكونوا أدنى اليهم فى المعاملات من بقية الأقليات المسيحية الأخرى على إختلافهم فى المذهب والأصول العرقية · وفى مصر كان حرص الأرمن على هذه المعاملات مع الاتراك واضحة ، فهم راغبون فى ان تكون العلاقات بينهم وبين الحكومة متينة ، فلا تثبت الوثائق الخاصة بالعلاقات بين الطرفين ما يدل على عكس ما نقول ، بل تثبت

انهم كانوا أقلية مستقرة تنعـم بهدوء ربما لا يتوفر لأرمن تركيا ذاتها ٠ فقد أتيح للعديد منهم الذين لم تتوفر لهم فرصـة البقاء فى القاهـرة والاسكندرية ٠٠ ان يتنقلوا فى الاقاليم وهم فى حالة أمان تماماً على أزواجهم وأموالهم وتمكنوا من تحقيق ثروات كبيرة من التجارة والعمل بالنواحى المالية فضلاً عن المكانة الاجتماعية المتميزة ٠ وكان هناك عدد منهم فى مديريات البحيرة والمنوفية والجـيزة (٥٩) ٠ ولا أدل على ما نقول من إصدار سعيد باشا الأوامر التى تمنحهم الهبات والاراضى الموقوفة من أجل الانفاق من ريعها على مؤسساتهم الدينية والتربوية كما ذكرنا من قبـل ٠

وفى عصر سعيد باشا برز من الأرمن فى مجال السياسة والدبلوماسية غير نوبار ـ الذى سوف نتحدث عنه الآن بشىء من التفصيل ـ اصـطفان ديميرجيان ، الذى شغل وظيفة وزير الخارجية حتى عام ١٨٥٧ (٦٠) ٠

ولد نوبار فى أزمير فى ٤ يناير عام ١٨٢٥ ٠ وقبل أن يصـل الى مصر تلقى تعليمه فى أوربا ـ كعادة الأسـر الأرمنية التركيـة ـ التى كانت ترسل أبناءها الى هناك لتلقى التعليم العلمانى الذى لـم يكن متوفراً فى تركيا ٠ وهنا ينبغى الإشارة الى نقطة هامة ، وهـى ان توافد أبناء أعيان الأرمن الى أوربا أتاح لهم الفرصة لكى يطلعـوا على التطور الصناعى الهائل وحرية التجارة وجعلهم فى طليعة الطبقة التركية التى أفادت من التطور الصناعى والتجارى الجديد ، الـذى اصاب الدولة العثمانية ، وكان نوبار أحد الأرمن الذين رشحهم الباشا فى عام ١٨٤٢ ، بعد أن تلقى قـدراً من تعليمه الأولى فى جنيف ، ثم تولوز فى فرنسا ، حتى عام ١٨٤٠ لكى يتولى وظيفة مترجم وذكر فى أمره « اننى الحقتـه ـ اى نوبار ـ بمعية مترجمى خسرو بك ٠ وأنعمت عليه برتبة بكباشى فيصير قيـد ماهيته وسـائر مرتباته فى دفاتر الخزينـة » (٦١) ٠

وتدرج نوبار فى عدد من الوظائف أعوام ١٨٤٦ و ١٨٤٩ ، وفى عصر سعيد تولى وظيفة باش مترجم فى ٢٥ صفر ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م ثم استقال فى عام ١٨٥٣ . ولكن أعيد تعيينه بديوان التجارة ، وصدر أمر سعيد باشا الذى جاء فيه « قد عينا نوبار بك واخاه اراكيل بك ليكونا وكيلين عنا فى التجارة ، الأول فى فينا والثانى فى برلين ، وخصصنا لنوبار ٢٠٠ كيسه ولاراكيل ١٥٠ كيسه سنويا » (٦٢) .

ثم استدعاه سعيد من فينا وعينه رئيساً لمحكمة الاستئناف فى عام ١٨٥٦ ، ثم عين بمجلس القومسيون والوابورات ومديراً لإدارة الترانزيت والسكة الحديد ، وانتهت مدة خدمته بها عام ١٨٥٩ (٦٣) .

وقد أتاح تدرج نوبار فى هذه المناصب له الفرصة فى عهود محمد على وعباس وسعيد لاكتساب ثقة الولاة من ناحية ، كما أتاح له على المستوى الشخصى تكوين معرفة واسعة باحوال السياسة الشرقية وان يكون أول وجه أرمنى مقبول من ساسة أوربا . وكان نوبار يدرك تماماً ، ان الاتراك لا يمكنهم أن يقفوا على اقدامهم فى وجه المؤامرات والضغوط المستمرة التى يوفرها التدخل الاجنبى (٦٤).

ولا نبالغ اذا قلنا ان كل الظروف فى اواخر عصر سعيد باشا كانت مناسبة لكى يلعب الأرمن دوراً فى مصر يشبه فى نواح كثيرة دورهم فى العصر الذهبى لهم ـ عصر محمد على مع فارق أساسى هو أن دورهم فى عصر سعيد كان محفوفا بالتحديات من جانب الاوربيين . فدورهم كان لا يقتصر على النشاط الاقتصادى والاجتماعى فحسب ولكن ذات بعد سياسى واضح ونوبار ذاته دليل واضح على ما نقول فقد شغلته المسألة المصرية فى تلك الفترة بشكل ملحوظ ، كما كان معروفا فى أوساط السياسيين الاوربيين ويحظى باحترامهم جميعا (٦٥) .

وكان نوبار يمثل طرازا جديدا من الأرمن يغاير في وجوه

كثيرة سابقيه من بنى جلدته ، فلا يشبه بوغوص بك - خاله فى زهده وعزلته بصفته يمثل عنصرا من عناصر الاقليات العرقية ، وكذا خلفاء بوغوص الذين كانوا يمثلون طرازاً من الأرمن الشرقيين أصحاب المهارات العالية فى اللغات والتجارة فقط ، بل كان يفوقهم جميعا بإدراكه الواسع ونظرته العالمية الخالية من أى نزعة تعصبية ولا يخفى مخاوفه من التدخل الأجنبى فى مصر وما يترتب عليه من آثار ٠

ودور نوبار باشا فى السياسة المصرية فى عصور أربعة ولاه لا يعنينا بالقدر الذى يعنينا كونه إفراز لأقلية عرقية وافدة على مصر إستطاع أحد أبنائها أن يرتقى فى سلم الوظائف الرسمية بالرغم من إختلافه العرقى والدينى عن الأغلبية الى أعلى المراتب الحكومية ، فقد تولى الخارجية أربع مرات فى الفترة من (١٨٦٦ - ١٨٨٨) وتولى فى عام ١٨٧٨ رئاسة الحكومة ، فمكن - دون شك - للأقلية التى ينتسب اليها أن تزدهر ، بالرغم من كونه كان مشغولاً اكثر الوقت بالمسألة المصرية ٠

الارمن فى عصر اسماعيل :

يمثل عصر اسماعيل عصر إنتعاش الاقليات العرقية فى مصر على وجه العموم ، فقد بلغ عدد الاجانب بها ٩٧ر٤٨٣ تابعين لـ سبع عشرة دولة أوربية ، ولأول مرة أصبحت الاقليات التركية والشركسية والارمنية مهددة - بمقياس العدد - فقد كانت أعدادها أقل بكثير من عدد الاجانب ، ففى مدينة الاسكندرية ، مثلا بلغ عدد السكان مائتى الف نصفهم من الاجانب الأوربيين من جملتهم خمسة وعشرون الفا من اليونانيين وثمانية عشر الفاً من الايطاليين وستة عشر ألفاً من الفرنسيين وثلاثة عشر الفاً من الانجليز والمالطيين والشوام ٠ أما عدد أفراد الديار الشرقية - ويقصد بهم الاتراك والشركس والارمن ، فلا

يزيد عن اثنا عشر ألفاً ، ونفس الشيء فى القاهرة التى يبلغ عدد سكانها أربعمائة ألف (٦٦) ٠

وهذه الجماعات العرقية كانت قد ترتبت لها حقوق إجتماعية فى الهيئة الاجتماعية فى مصر مثل باقى السكان بها ، فلا تكاد الأغلبية تحصل على أية منح أو هبات من الحكومة ، حتى تبادر الأخيرة الى الإغداق على هذه الأقليات اسوة بالاغلبية فى صورة اراض عفار أو أموال وغيرها لدعم وجودها الاجتماعى ففى ١٢ محرم ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م مثلا صدرت أوامر عليا بأن توزع الأموال على طوائف الارمن والروم واليهود والمارون لاغراض اجتماعية أسوة بما تم توزيعة فى مصر والاسكندرية على المؤسسات التعليمية والاجتماعية (٦٧) ٠ وأدى ذلك الى استقرار هذه الجماعات العرقية اجتماعيا ٠

فبالنسبة للأرمن تدل وثائق المحاكم الشرعية على أن حركة معاملاتهم قد نشطت اكثر من ذى قبل ، وأن هذه الحركة تعكس إستقرارا ملحوظاً فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، وكان لذلك أثره الملحوظ على علاقاتهم بالطوائف الأخرى ، فضلا عن أن مصالحهم قد إحتكت بمصالح المصريين بصورة أوسع أكثر من أى وقت مضى ٠ ونورد الآن أمثلة من هذه الوثائق ، فقد كان هناك العديد من الارمن الذين يقيم فى منازلهم جوارى منهم الخواجه جورجى الارمنى (٦٨) ٠ وكان لهم ديون عند عناصر من الاقليات الاخرى مثل الاتراك ، فقد ثبت للخواجه ونيس الارمنى مبالغ مالية كبيرة على تركة المرحوم اسماعيل اغا التركى (٦٩) ٠ كما تولى الخواجه اركيت بن اصطفان احد الأرمن ، تولى الوصاية على تركة أحد المغاربة المتوفين الذى اوصى بأن تكون له الوصاية على زوجته وباقى ورثته (٧٠) ٠

أما فى مجال إحتكاكهم بالمصريين فإن كثيرا من مصالح الارمن

كان يتم ترويجها بأيدى مصريين ، وكانت لهم معهم علاقات واسعة ٠ فمراكب الخواجه (جرابيت اغـا) كان يتولى عبد الظاهر عبدربه من أهـالى أخميم تشغيلها وادارتها وكيلا عنـه ، وعدد كبير آخـر من المصريين يتولى تسيير أعمال هؤلاء الارمن (٧١) ٠

ولما كان الأرمن قد إستشعروا الاستقرار ، فانهم لم يجدوا غضاضة فى المثول أمام المحاكم الشرعية وشيخ الاسلام بصفته الحـاكم الشرعى ٠ واثبتوا من خلالها كافة حقوقهم حرصاً على الحفاظ عليها ، وهم بخلاف الاتراك الذين كانوا ينقلون ثرواتهم الى ذويهم فى مواطن رؤوسهم ، فقد داب الأرمن على تسجيل وصايا الميراث لاسلافهم وذريتهـم دون خوف ـ واشهدوا عليها عناصر من المصريين ، مما يدل بشكل واضح على القدر الكبير من الأمان الاجتماعى الذى كانوا يستشعرونه ٠ ومن الامثلة على ذلك ، حضور (كاتنجو دنجفلو) الأرمنية ـ من رعايا الدولة العثمانية ـ عام ١٨٦٤ أمام القاضى الشرعى بمحكمة الاسكندرية ، الذى نصبها وصية على أولادها القصر من زوجها المتوفى كركور جرابيت التاجر الارمنى الكاثوليكى ، وذلك لكى تضبط وتحرر ما يؤول اليهـم بالارث الشرعى وتحفظه لهم (٧٢) ٠

كما ترتب على إستقرار الارمن وشعورهم بالأمان فى مصر إنتعاش أحوالهم بصورة ملحوظة ففى الاسكندرية كان التجار الأرمن يمثلـون طائفة إجتماعية لها كيانها الاجتماعى والطائفـى ذات التـأثير عـلى الأحوال الاقتصادية فى المدينة ، ومن الأسـماء الارمنية البـارزة آنذاك الخواجه كورك لوسبارون ـ رئيس طائفة التجار الأرمن ، وهو ابـن ونيس بن يغيزار ، والخواجه ارتين الصراف وهو ابن بوغوص بـن ارتين ، والخواجه فيليبوس بن كورك بن اصطفان ، والخواجه كركور بن اغيا بن صاميال ، والخواجه جرابيت بن كورك بن تان ، والخـواجه

سركيس بن كركوريان ، والخواجه مقرديش بن سركسيان ، والخواجه بوغوص ونيس بن يوسف ، والخواجه يعقوب عاشقيان بن كركور بن ارتين عاشقيان وغيرهم (٧٣) ٠

والواقع أن الاستقرار الاجتماعى الذى كان ينعـــم به الأرمن فى مصر فى عصر اسماعيل كان إنعكاساً لدور كبار رجال الاقلية الأرمنيـة فى السياسة المصرية ٠ ففترة حكم اسماعيل إقترنت باسم نوبار ودوره فى فترة من أدق فترات التاريخ المصرى ، فترة تعاظـــم المد الاجنبى الأوربى والتغلغل فى شئون البلاد ، فضلاً عن التغيير الاجتماعى الذى تم خلال فترة حكم الوالى سعيد باشا والذى أدى الى أن تدب الحيوية فى ابناء البلاد ، بحيث لم يعودوا يخشون التعبير عن آرائهم بحرية ، الا أن تعاظم النفوذ اجنبى أثار مشاكل لا حصر لها بسبب الامتيازات الاجنبية التى يتمتع بها الاجانب ، ولم يكن الأرمـــن طرفـاً فى هذه المسألة على اعتبارهم أنهم أقلية عرقية اغلب عناصر رعوية عثمانيـــة ، فضلاً عن أن أى تعاظم لنفوذ الاجانب الاوربيين كان دون شك يمثـــل تهديداً للأقليات العرقية العثمانية عموماً وكذلك الأغلبية ٠ فإنبرى نوبار لمواجهة هذا التحدى من كل هذه الزوايا ، فكان يبحث عن اســـتقلال مصر المرتبطة بالباب العالى فى مواجهة إزدياد النفوذ الاجنبى ويسعى فى نفس الوقت الى دعم استقلال مصر عن البـــاب العـالى ، فحـين استدعاه اسماعيل أوضح له نوبار أن طلباته التى قدمها الى السلطان عبارة عن طلب الاستقلال السياسى التام ، وأفهمه أن إستقلال مصر لم يكن محصوراً فى هذا الامتياز أو ذاك من الحكومة العثمانيـــة بل فى زيادة قوة مصر بتحسين إدارتها ، وهو أمر لا يتم مـادام الى جانـب الحكومة المصرية سبع عشرة قنصلية ينتمى اليها ١٥٠٫٠٠٠ أوربى وتتمتع كل عنها بسلطة تضاهى سلطة حاكم مصر ماديا وأدبياً ، وتحول دونها فى كثير من الشئون (٧٤) ٠

وكان نوبار أول أرمنى وأول مسيحى يحصل على رتبة الباشوية ،
وفى فترة تقلده المناصب الوزارية كان همه الأول مزاحمة الاوربيين
للاقليات العرقية الشرقية ، وكان يدرك أكثر من غيره مدى تهديد نفوذ
هذه الأقليات فى مصر من جراء هذه المزاحمة ، فيذكر فى رسالة الى
زوجته عام ١٨٦٧ ــ لقد فسرت لك فى خطابى السابق سبب تأخير
رحيلى الى استانبول ٠ اننى أنتمى الى مصر ولن نستطيع ، أنت
وأنا ، أن نعيش فى مكان آخر ٠٠ وذلك رغم أن الحياة فيها مستحيلة
طالما يعيش فيها الأوربيون دون أن تحكمهم قيود أو قانون وطالما
لا توجد لدينا محاكم » (٧٥) ٠

والتفسير الأقرب الى الصواب لقول نوبار لزوجته هو أن الاستقرار
الذى ظلت تنعم به الأقلية الأرمنية وغيرها من أقليات الديار الشرقية
فى مصر لسنوات طويلة بات معرضا للخطر بسبب دور الأجانب الأوربيين
الذين يريدون العيش فى مصر دون قيود أو قانون وفى حماية الامتيازات
الأجنبية ، وبالتالى يمكننا فهم الجهود المتواصلة التى بذلها نوبار فى
عصر اسماعيل من اجل مصر فى هذا الاطار ٠ فمسألة اقامة المحاكم
المختلطة فى عام ١٨٧٥ التى أراد بها اسماعيل ونوبار مواجهة الدول
السبع عشرة المتمتعة بالامتيازات الأجنبية لم ينجح نوبار فى أكثر من
تنظيم القضاء القنصلى وعجز تماما عن أن يجعل أى دور للقوانين
المطبقة فى البلاد ــ وهى قوانين تستند إلى أحكام الشريعة الاسلامية ــ
بحيث جاءت هذه القوانين مختلفة إختلافاً أساسيا عن الاحكام المعمول
بها ، فلم يسمح باستعمال اللغة العربية فيها ، وكانت اللغات السائدة
فيها هى الفرنسية والانجليزية والايطالية (٧٦) ٠ مما جعل هذه
القوانين وسيلة لابتزاز الاغلبية على أيدى الاجانب ، كما خولت هذه
المحاكم النظر فى كل الحالات التى تمس فيها الاجراءات الإدارية حقوق
الأجانب ، وإدعت لنفسها ضرورة الموافقة على كل قانون يمس الضرائب

.. وعرضت إسماعيل وكل أفراد أسرته لأحكامها فى كل ما يمس مصالح الاجانب (٧٧) .

وبدلا من أن ينجح نوبار فى الحد من تصاعد النفوذ الأجنبى الأوربى لإزداد تهديد الأقليات الأوربية لأقليات الديار الشرقية وبصفة خاصة الأتراك وعلى رأسهم اسماعيل باشا ذاته واسرته ، وأصبحت سلطته مهددة بانشاء هذه المحاكم المختلطة . واهم من هذا انه بقيام هذه المحاكم تراجعت لأول مرة أحكام الشريعة الاسلامية وحلت محلها أحكام القضاء القنصلى وتولى قضاة أجانب البت فى مسائل تهم الأغلبية . إذن صاحب نجاح نوبار فى تنظيم القضاء القنصلى الاجنبى الأوربى تهديد مصالح الأقليات العرقية لعناصر الديار الشرقية الى جانب الاغلبية من المصريين .

وبالرغم من ذلك كله لم تكن هناك أصوات مناهضة لهذه التغييرات الاقتصادية الاجتماعية فى حقوق الأقلية والأغلبية ، بل كان التصور أن هذا يندرج ضمن حركة إصلاح قضائى واسعة . وفى اليوم الاول بعد وفاة نوبار تم عمل اكتتاب لاقامة تمثال له فى الاسكندرية - حيث قامت فيها محكمة الاستئناف للقضاء المختلط - وساهم فى هذا الاكتتاب الاجانب والاقلية العثمانية والاغلبية المصرية جميعا (٧٨) .

وبمرور الوقت كان نوبار الارمنى يزدد حنقاً على الاوربيين لأنه كان يدرك مدى ما يتمتعون به من قوة لا سبيل أمام أية اقلية اخرى شرقية مجابهتها ، وكان يدرك أيضاً أن كل ما يمكنه عمله هو تاخير انفراد هؤلاء الاجانب بالسيطرة وزحزحة الاتراك والشركس والأرمن عن مكانتهم التى تربعوا عليها طويلاً . وحقيقة الأمر أن ذلك لم يؤثر على تعلق الأرمن بمصر ورغبتهم فى البقاء بها بل على العكس زاد من هذا التعلق ، وكان هذا طبيعيا ، فالأسر الأرمنية

العديدة فى مصر كونت تقاليد وعادات تداخلت فى نسيجها الاجتماعى بحيث يصعب التخلى عنها ، وربط بين الأرمن على امتداد أرجاء مصر علاقات إجتماعية واسعة ، فهناك علاقات بين أرمن الاسكندرية وأرمن القاهرة وباقى عناصر الارمن فى الاقاليم فتدل الوثائق عام ١٨٨٥ مثلا على ان الخواجة ارتين كالبيشان (تاجر دخان) بالاسكندرية اناب عنه انطون بايولسيان التاجر الارمنى بالقاهرة لكى يتولى جميع شئونه وكل ما يجوز فيه الانابة امام المحاكم الاهلية الابتدائية والاستئنافية (٧٩) .

كذلك التف الارمن فى أرجاء مصر حول الكنيسة والمؤسسات التعليمية والخيرية التى كانت تزداد قوة يوما بعد يوم بفضل الرعاية التى كانت متوفرة لكل الأقليات ومن بينها الأقلية الأرمنية فى عصر اسماعيل ، ولم يعد الأرمن يروا غير مصر بلدا لهم واصبح تعلقهم باستانبول أضعف من ذى قبل ، على حين ظلت تربطهم بأرمينيا الوطن الأم أحاسيس غامضة فكانهم كانوا يعيشون عالمين : الأول ، وهو الذى يقيمون على أرضه واختلطت أسرهم بعاداته وتقاليده واستقرت مصالحهم فيه وكونوا تجاهه مشاعر وطنية من هذه الزاوية . والثانى ، وهو العالم الذى نزحوا منه ، اقصد وطنهم الاصلى أرمينيا - عبر استانبول وهو مسقط الرأس ، فظلوا يهفون اليه . ولكن كان من العسير أن يحققوا فيه ما حققوه فى مصر ، فأعطوا ولاءهم لها من هذه الزاوية على عكس الاتراك والشركس الذين كانوا يرون أن بقاءهم فى مصر قائم على قوة الفتح ، لذا كان تعلقهم باستانبول أشد وأقوى من الأرمن ، يقول نوبار فى مذكراته : « الانسان لا يتخلى عن بلده كما يتخلى عن زوج احذية بال .... والمقصود ببلده هنا مصر - واذا كان الوالى لا يرحب بى فبإمكانى ان اكون فى بلدى شخصا عاديا أنعم باستقلالى ولكننى لن اكون على الاطلاق موظفاً فى الباب العالى ، أى

ولم تكن جهود نوبار المتواصلة من أجل تقليص امتيـــازات الاجانب الاوربيين سوى محاولة تهدف الى إنقاذ ما يمكن انقاذه من اســتقلال مصر ، فقد شن حملة على شركة قناة السويس وتوصل الى اتفاق مــع دلسبس وافق الاخير بمقتضاه على الغاء السخرة وإعادة الأراضى التى نص عليها الامتياز الى الحكومة ٠ وتفاوض مع الباب العالى من أجل توسيع استقلال مصر الذاتى ممــا أدى الى تعديل نظام وراثة العرش فى مصر ٠ والواقع أن هذه الجهود المتواصلة جعلـت نوبــار ـ أكبر رجال الارمن فى ذلك الوقت ـ يزداد تمسكاً وتعلقاً بمصر ويسعى الى مقاومة التدخل الاجنبى الأوربى ويرى اكثر من غـيره ان اســـتقلال مصر مهدد ، وان اى نجاح للاوربيين فى احتلال مصر سوف يعصف بوجود الاقليات العرقية الشرقية ، لذلك ليس من المستبعد ان نوبــار باشا كان يطمح على اى نحو من الانحاء أن يربط بين المسألة المصرية والمسألة الارمنية بمعنى ان يجعل من المنـاداة باستقلال مصر وسيلة لانشاء مملكة أرمنية يقوم بأمرها أحد ابنــاء الارمن ، أى تعيين حاكم « أرمنى عام » لبــلاد أرمنيا ٠ ويذكر باسكال كارمون « ان نوبار حضر مؤتمر برلين ـ بصفته الشخصية وليس ممثلاً لاسماعيل ـ وقـدم مشروعا عن المسألة الارمنية ٠ وان هذا المشروع كان مغايراً للمشروع الذى تقدم به ارمن استانبول مما اثار خـلافا بين كليهمـــا « (٨١) وان نوبار كان يطمح ان يعينه الباب العالى واليـاً على ارضروم التى كان ثمة مشروع بمنحها استقلالاً ذاتياً ووضعاً شبيهاً بوضع لبنان (٨٢) ٠

وعلى حين كان نوبار هو الرجل الاول بين أرمن مصر ، والذى كان يثير اعجابهم لما له من دور بارز فى السياسة الخارجية آنئذ ، فإن ما كان يسعى اليه كان بعيدا عن أذهانهم ، فلم يكن يعنيهم دوره السياسى الا بالقـدر الذى يتيح للأقلية الارمنية فى مصر أن تنتعش اقتصادياً واجتماعياً ٠ لذلك يمكننا القول ان الدور السياسى لنوبار باشا دعم

موقف الأرمن الاقتصادى فى مصر وجعل ولاءهم لها يتزايد ، بنفس القدر الذى جعل نوبار موزعاً بين ولائه لمصر ورغبته فى ان يقيم لارمينيا - موطنه الاصلى - كيانا قومياً مستقلاً . وهذا يفسر أنه بالرغم من انه تصدى لتزايد النفوذ الاجنبى فى مصر الا انه لم يحظ قط بعطف الأغلبية المصرية ، فقد كانوا يعتبرونه أرمنياً ذمياً وأداة لفرض الوجود البريطانى فى مصر ، وانه يماثل غيره من الاقليات العرقية العثمانية الاخرى التى اثرت على حساب المصريين ، كذلك فهو لايختلف عن الرأسماليين الأوربيين لأنه فى أذهانهم لايختلف فى شىء عن المرابين اليونانيين أو الايطاليين أو غيرهم . ولم تخل نظرة المصريين اليه من ريبة وقلق بالرغم من تصديه لتزايد النفوذ الأوربى فى مصر وعجزه فى أحايين كثيرة عن الصمود أمام ضغوط الأوربيين . وفى الفترات التى تولى فيها مسئولية رئاسة الوزارة كان يواجه بالسخط العام فى الداخل ، وكانت تنتهى بخروجه من مصر ، ثم عودته مرة أخرى ، خصوصا قبل خلع اسماعيل باشا عام ١٨٧٩ . وتوليه الوزارة مرات أخرى عديدة فى عصر توفيق وعصر عباس الثانى .

المهم أن نوبار باشا ظل بالنسبة للأقلية الأرمنية رمز تفوقهم على الاقليات العرقية الاخرى ، وظلت الخارجية المصرية بفضل الدور الذى لعبه نوبار فى السياسة المصرية حكرا على الأرمن حتى أواخر القرن التاسع عشر . فتولى (ديكران دبرو) وزارة الخارجية عام ١٨٩٤ خلفا لنوبار ، وديكران هو خامس وزير خارجية أرمنى فى مصر ، وهو زوج ابنة نوبار باشا (٨٣) . والواقع أن هذه الأسر الأرمنية المكونة من بوغوص بك - خال نوبار - وديكران باشا ونوبار باشا هم الذين انفردوا بالخارجية المصرية طوال القرن التاسع عشر ، وليس فى ذلك أدنى مبالغة فالاتراك أو الشركس كاقلية تركوا للأرمن كل فرص الانفراد بأمور العلاقات الخارجية لأنهم كانوا عاجزين عن التعامل مع الاوربيين .

الارمن فى اواخـر القرن التاسع عشر :

وهى الفترة التى أعقبت عصر اسماعيل وإرتبطت بنجاح الاوربيين فى الظهور والتاثير فى مجريات الأمور وعلى وجود الاقليات العرقية فى مصر والتى إقترنت ببداية ضعفهم وزوالهم . ويمثـل الاحتــلال البريطانى لمصر المسمار الذى دقــه الأوربيون فى نعش هذه الأقليات . فنوبار باشا ، على سبيل المثال ، الذى ظل يناور ببراعة من أجل تاجيل موعد وقوع مصر فى يد الاحتلال والسيطرة الأجنبية تم تحجيم دوره تماماً على مسرح السياسة المصرية وتم تحجيم أدوار آخرين غيره أيضا . كما لاحظنا أن « ديكران باشا » الذى تولى الخارجية خلفـاً لصهره أصبح اكثر طواعية وأقل صلابة منــه ، ورأى أن يهادن ويبتعد عن خوض المعارك السياسية مع الأوربيين باسم الوطنية المصرية كما كان يفعل سلفه نوبار ، بالرغم من ان ديكران من مواليد القاهرة فى عام ١٨٤٦ وينتمى الى سلالة ملوك ارمينيا (أسرة بكرادونى) (٨٤) .

ودخل ديكران باشا لاول مرة وزارة الخارجية عـــام ١٨٦٨ ، وكان مقربا من ذو الفقار باشا الذى كان يثق فيه تماما . وبدأت شهرته فى عام ١٨٨٢ ، حيث كان يتفاوض مع الاسطول البريطانى وقت غزو انجلترا لمصــر ، بتفويض من توفيق باشا . وفى عام ١٨٨٤ تــولى وظيفة نائب وزير الخارجية ، ثم وزير خارجية مفوض فى الفترة من عام ١٨٩١ الى عام ١٨٩٤ (٨٥) .

والملاحظ أن الأرمن عند أواخر القرن التاسع عشر كانـــوا اكثر انتعاشا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية اكثر من اى وقت مضى ، على الرغم من بداية ضعف دورهم السياسى . ويعزى ذلك الى أنهم طوال فترة حكم سعيد باشا وحكم اسماعيل تمكنوا من تكوين ثروات كبيرة من نشاطهم الواسع فى المجال الاقتصادى والمالى ومن التجارة

بشكل اساسى ، ثم من تملك الاطيان الزراعية ، اذ دخلوا كما رأينا من قبل ميدان تملك الأراضى الزراعية وعلى رأسهم نوبار ذاته ، الذى كان يدير شركة رى البحيرة - وهى من اكبر شركات الاراضى ، وكانت له دائرة خاصة به . وعناصر أخرى من الارمن اصبحوا من كبار ملاك الأراضى العشورية ، أمثال دليو بأ طبيب الخديوى اسماعيل الذى اصبح يملك ٦٠٠ فدان من ابعاديات الدقهلية وكركور الارمنى الذى كان يعمل ترزيا بالسكة الحديد وكان يملك ٤٣٣ فدانا من أطيان زاوية سالم بالبحيرة (٨٦) .

كما انتعشت أحوالهم الاجتماعية ، وتمتعوا بحرية فى مجالات الحياة الاجتماعية فى مسائل الزواج والطلاق والوصاية والارث والوقف وغيرها . وصدرت الأوامر الحكومية التى تكفل لهم حرياتهم الاجتماعية فهناك أوامر صدرت فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٦٥ و ٢٩ نوفمبر عام ١٨٧٠ . وبراءة خاصة بطائفة الأرمن الكاثوليك فى ١٢ أغسطس ١٨٧٩ وجميعها تؤكد ذلك . فالأمر الصادر فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٦٥ نبهت فيه نظارة الخارجية حكام الجهات والاقاليم ونوابهم « الى عدم التدخل فى تركات الأرمن عندما يكون الورثة بالغين راشدين اللهم الا فى حالة مايشكو احدهم الى المحكمة فيحال الأمر الى المحكمة الشرعية ، واذا كان بين الورثة صغير أو غائب أو مجنون فتحصر تركته بمعرفة رجال الحكومة ويعين للصغار أوصياء من أبناء ملتهم . واذا لم يعرف للميت وارث تؤول تركته الى بيت المال وأجاز الأمر للشخص أن يقسم أمواله على ذوى قرابته قبل وفاته وهو بحال الصحة » (٨٧) .

أما الأمر الصادر للداخلية فى نوفمبر عام ١٨٧٠ فهو عبارة عن تعليمات خاصة بالأرمن تتعلق بالارث والوصاية والوقف . ويتضح منها أن بعض الوصايا أحيلت الى المجالس المحلية للنظر فيها بمقتضى القواعد الشرعية والنظام (٨٨) .

وفى ١٢ أغسطس عام ١٨٧٩ صدر القانون النظامى للارمن الكاثوليك فى مصر ، والذى بمقتضاه تكون مجلس لادارة شئون الأرمن فى كل من مدينتى القاهرة والاسكندرية من تسعة أعضاء ، ولهذا المجلس اختصاصات تتعلق بجرد كافة ممتلكات الطائفة من عقارات ومنقولات مما يختص بالكنائس والأديرة والمدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية ، واتخاذ كافة الطرق الضرورية لحسن ادارة هذه الممتلكات (٨٩) .

ويتضح من هذا القانون الحريات الواسعة التى منحتها الحكومة للاقلية الأرمنية فى المجالات الاجتماعية . « فلا يحق لأحد أن يتعرض لهم فى اجرائهم أمور مذهبهم فى بيوتهم ومساكنهم بحرية وما يتفرع عنها من الأعمال وان لايمانعهم أحد فى الكنائس والاديار والمعابد التى بيدهم وتصرفهم منذ القديم أو فى دفن موتاهم بحسب الأصول المعتادة عندهم أو فى بقية الأمور الدينية التى يجرونها وان لا يفحص أحد ولا يفتش الكنائس والأديار الخاصة بالطائفة بدون أمر شريف ولا يمنعهم أحد من تعميرها وترميمها الذى يجرى بحسب وضعها القديم وبحسب الأصول » .

وفى المسائل المتعلقة بالاحوال الشخصية نص هذا القانون على « انه متى اراد أحد من الطائفة الارمنية أن يعقد زواجا أو يفسخ زواجاً بحسب مقتضى مذهبهم يجرى ذلك بمعرفة المرخص له (اى المطران) او وكلائه الذين يعينهم وان لا تصير مداخله من طرف أحد غيرهم » .

اما بالنسبة لثرواتهم ومواريثهم فقد حفظها هذا القانون ونص على « ان كل من له نقود وخيول وأشياء غير ذلك يأخذها المرخص له ، ولا يتداخل فيها أحد من بيت المال . ومن كان لهم ورثة لا يصير وضع اليد على نقودهم وأموالهم ومتروكاتهم » .

كذلك أباح هذا القانون حرية الاعتقاد الدينى ، وان لا يجبر أحد من الأرمن تحت اى ظرف من الظروف على ترك دينه فنص على « ان من يطلب من الأرمن الدخول فى الاسلام بلا غرض ولا عوض يكون سالما من المداخلة المذهبية ـ ولكن لا يجبر أحد على الدخول فى الاسلام من الذين لا يقبلون برضاهم » (٩٠) ٠

ونظرا لهذا الانتعاش والاستقرار الذى توفر للأرمن فى مصر ، فقد نشطوا فى ممارسة شعائرهم الدينية وازدهرت حياتهم الاجتماعية ، فطلبوا انشاء المدارس والكنائس والاديرة واقامة الجمعيات الخيرية ، واوقفوا الأطيان على هذه المؤسسات ٠ وهناك امثلة عديدة ، نذكر منها الطلب الذى تقدم به بطريرك الأرمن للحكومة لبناء كنيسة والترخيص له بقطعة أرض فى عام ١٨٨٣ (٩١)٠وموافقة نظارة الداخلية فى ١٩ نوفمبر عام ١٨٨٥ على اقامة جمعية خيرية لمساعدة الفقراء الارمن (٩٢) ٠ والاطيان التى اوقفها اعيان الطائفة لكنيسة مريم العذراء بالقاهرة ولفقراء الطائفة فى عام ١٨٨٩ وقدرها ١٢٣ فدانا وكسور فى مديرية بنى سويف (٩٣) ٠

وفى مدينة الاسكندرية فى حضور أعيان الارمن عام ١٨٨٩ « أوقف نوبار باشا عقاراً قرب حمام الافرنج على فقراء الأرمن المقيمين والواردين والمترددين على دير الأرمن فى خط حمام عطية بالثغر لكى ينتفعوا به ، وتولى ناظر وقف فقراء الارمن الانفاق من ريعه على هؤلاء الفقراء (٩٤) ٠

والجدير بالذكر ان انتعاش أحوال الارمن اقتصاديا واجتماعياً أدى الى بناء مجتمع أرمنى حضرى له ملامح خاصة ترجع بداية تكوينه الى عصر محمد على وأتاحت له ظروف تعاقب سلالة محمد على علىحكم مصر فرصة الزيادة العددية والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي ،

فاصبحت اعدادهم فى بداية القرن العشرين نحو ثلاثين الفاً أغلبهم من الارثوذكس ، إستقر نحو نصفهم قبل الحرب الاولى . ولغلبهم جاءوا من أرجاء تركيا . وهذا المجتمع الأرمنى حافظ على لغته وتقاليده . وأصبحت مصر بالنسبة للأرمن من المراكز الرئيسية للثقافة الارمنية (٩٥) .

كذلك أصبح الارمن فى مصر مشهورين بأنهم اقلية تتمتع بالثراء ، وأصبحوا قوة إقتصادية تهدد أثرياء الاسرة الخديوية ذاتها ، اذ اشترى اثرياؤهم أطياناً واسعة من أفراد الاسرة المالكة ، مثال ذلك ، الاطيان والعقارات الواسعة التى اشترتها (فوليك هانم بنت كاورك بك) الارمنى صراف باشا باستانبول وهى حرم نوبار باشا ، من انجى هانم حرم الخديوى سعيد باشا فى البحيرة والاسكندرية (٩٦) .

والملاحظة الجديرة بالتنويه هى انه على حين كان الأرمن يقيمون مجتمعاً ارمنياً بصفتهم اقلية حضرية كانت الاقليات التركية والشركسية تتدهور احوالها الحضرية بشكل ملحوظ وتتعرض للذوبان فى الاغلبية بصورة لم يسبق لها مثيل بفعل ظهور عناصر من الأغلبية على مسرح الحياة المدنية فى اواخر القرن التاسع عشر . ويعزى ذلك الى عجز الاتراك والشركس عن المحافظة على كيانهما العرقى ، خصوصا بعد ان تراجعت اللغة التركية عن ميدان الحياة العامة ومزاحمة الاوربيين لهم ، ولذلك تعتبر الاقلية الارمنية أقل الاقليات العرقية فى مصر ذوبانا وأكثرها قدرة على مواجهة تصاعد دور الأغلبية فى الحياة العامة وهى الأقلية الوحيدة التى لم تذب فى الاغلبية . وربما كان على رأس الاسباب التى جعلت الأرمن كاقلية عرقية تحافظ على كيانها انخراطها فى الاغلبية عكس الشركس والاتراك الذين ابتعدوا عنها ، ففى الوقت الذى حافظوا فيه على طابعهم الخاص كانت لديهم القدرة الفائقة على تعلم لغة الاغلبية فضلاً عن أنهم كانوا

أقل استعلاء وصلفاً عن الاتراك والشركس ، فلا غرو اذن أنه فى الوقت الذى كانت عناصر الاتراك والشركس تتلاشى كان الأرمن يزدادون رسوخاً وقوة كاقلية عرقية لديها القدرة على التأقلم والحفاظ على الذات فى آن واحد .

والواقع ان الأرمن فى مصر فى اواخر القرن التاسع عشر قد ظهر بينهم تيار ينادى بضرورة إتحاد الارمن فى كل انحاء الدولة العثمانية للحفاظ على القومية . وكان على رأس هذا التيار (تيتو بك) وهو ابن يوسف حكاكيان الارمنى الكاثوليكى . واخذ يتجمع حوله نفر من الأرمن الذين يعملون فى مختلف المهن ، امثار يوسف جراف وسوكياس جراف ومايتيوس سرمكسيان وداود شيرجيان واسطفان وروريان بن بوغوص . وتبلورت دعوتهم فى النهوض بأحوال الأرمن الكاثوليك فى مصر وغيرهم اينما كانوا وحيثما حلوا ، واوقف تيتو بك عقارات وأطيان فى القاهرة وغيرها لهذا الغرض (٩٧) .

ولا شك ان ظهور هذا التيار الارمنى انما كان يعكس بقاء عاطفة القومية والانتماء الى بلاد الارمن بالرغم من ان أرمن مصر كغيرهم من الأرمن فى كل انحاء الدولة العثمانية ظل احساسهم بالحرمان من وجود وطن قومى لهم متأججاً . والدليل على ذلك أنهم أقبلوا على التكيف مع الحياة المدنية فى مصر وساهموا فى بنائها ونهضتها طوال القرن التاسع عشر ولكنهم أبوا باصرار الانخراط فى الحياة العسكرية ، ولم يوجد ما يدل على إقبالهم عليها بل على العكس حين صدر قانون الخدمة العسكرية عام ١٨٨٥ وارسلت الحكومة المصرية الى البطريركية لكى تطلب بيانا بأسماء الاشخاص الروحانيين الذين يخدمون الكنائس لكى يعافوا من القرعة دون غيرهم ، انعقد مجلس يمثل الأرمن جميعاً وبحث هذه المسألة وانتهى الى ما يلى :

١ - « ان الأرمن لا يتبعون الحكومة المصرية ، بل هم تبع الدولة العثمانية وعلى الحكومة المصرية ان تخابر الدولة العثمانية فى هذا الشأن وان التخابر يكون مع بطريركية الأرمن فى استانبول .

٢ - « ان الارمن الموجودين يبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠ تقريباً ليس مولوداً فى مصر الا نحو ١٥ عائلة والباقون يجيئون الى هنا من بلادهم ومن سيواس وارضروم وبيروت وغيرها لأجل مزاولة التجارة فليسوا وطنيين تابعين للحكومة المصرية حتى يؤخذوا فى العسكرية (٦٨) .

والحق أن تنامى الشعور القومى للاقلية العرقية الارمنية فى مصر كان جزءا من احساسهم العام بالاضطهاد من جانب الدولة العثمانية ، وبداية التوتر الذى اخذ يتصاعد فى علاقة الأرمن بالدولة العثمانية ، فمع ان ارمنيا كانت ولاية تركية منذ بداية القرن السادس عشر ، وان الأرمن لعبوا دورا هاما فى تاريخ الدولة العثمانية الا انهم احتفظوا بشعورهم بالوحدة مع الشعوب المسيحية برغم الحاجز الاسلامى الذى كان يحول بينهم وبين دول اوربا (٩٩) .

ومنذ بداية التسعينات أخذ الأرمن يتبرمون من مظالم الولاة الاتراك ، ويهددوا بانه اذا لم ينصفهم الباب العالى فانهم سوف يهاجرون الى ايران (١٠٠) . وبالتالى أخذت المسالة الارمنية فى الظهور . ومما يدل على تعاطف الارمن فى مصر مع بنى جلدتهم فى تركيا ، انه لم يصدر شىء يؤيد سياسات الباب العالى ، بل كانت الصحف تنقل الاضطهاد الذى يتعرض له الارمن وتطالب بوضع حد للازمة معهم . ومع ذلك ظلت العلاقات بين الطرفين تتجه الى مزيد من التازم ومذابح الارمن خير دليل على ذلك ، فمع تحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية إشرأبت اعناقهم الى تحسين اوضاعهم السياسية في نطاق

الدولة العثمانية ، وقد رأوا ان شعوباً مسيحية فى أوربا كانت خاضعة للدولة العثمانية ثم ظفرت باستقلالها التام أو استقلالها الذاتى وتحررت من السيطرة العثمانية (١٠١) .

والواقع أن المسألة الأرمنية إزدادت تكريسا فى أذهان أرمن مصر فى الثمانينات والتسعينات ، بمعنى أن النزعة القومية الأرمنية عاودتهم وأصبحوا اكثر حنيناً الى مناطق نزوحهم الأصلية بعدما تنــاهى الى اسماعهم اخبار المذابح الارمنية واشتغال الصحف بنقل هذه الاخبار ، وابدوا تعاطفاً ملحوظاً نحــو بنى جلدتهم ، وازدادوا إرتباطاً بعضهم ببعض سواء فى مصر أو خارجها كما لم يحدث من قبل فوجدنا أحــد الأرمن ويدعى يعقوب عاشقيان وهو من أرمن قيصرية - ويتبع دولة روســيا فى عام ١٨٨٨ يخصص اوقافاً خيرية للأرمن فى مصر (١٠٢) وتكونت جمعيات فى مصر للاشتغال بأمور الارمــن فى كل انحــاء العالم (١٠٣) . كما بادر البعض منهم الى النزوح الى مصر حين بلغت المذابح ذروتها . ورأينــا ان بعض أرمن مصــر ينهى معــاملاته فى استانبول حيث كان لازال على اتصال بها أمثال الخواجه (اسطفان هوانيس) وشقيقته اللذان اناباً عنهما (مرتشيا) الأرمنية القيمة فى استانبول فى بيع كل ما يخصهما فى حارة جعفر أغا (١٠٤) .

ولا شك ان أرمن مصر الذين ظلوا لسنوات طويلة يعتبرون انهم امتداد لأرمن تركيا - بعد وقوع مذابح الارمن فى انحاء تركيا فــى الفترة من ١٨٨٤ - ١٨٩٦ - كان قــد استقر فى خلدهم انتماؤهم لبلاد الأرمن - موطنهم الأصلى - من ناحية ومصر من ناحية أخرى حيث كانوا ينعمون بالاستقرار الاقتصادى والاجتمــاعى ، اذ تــدل وثائق المحاكم الشرعية على النجاح الكبير الذى أحرزوه فى مصر ، وبنائهم مجتمع أرمنى ذات كيــان مستقل .

وفى ذات الوقت تحولت المسالة الارمنية الى مســـالة دوليــة ، فاصبح تعلق الأرمن بوطنهم الاصلى هو تعلق من لا يعرفون لوطنهم الاصلى حدودا ، فهم موجودون فى مناطق عديدة محاطة بروسيا وتركيا وايران وتتراوح نسبتهم الى غيرهم فى هذه المناطق بين ١٠ و ١٥٪ وفى مناطق تركزهم لا يزيدون عن ٣٥٪ (١٠٥) . لذلك ظل حلم تكوين أمــة ارمنية يراود أرمن مصر كما يراود غيرهم من الأرمن فى كثير من البلــدان اخرى .

● ● ●

الهوامـــش

(١) تقرير البارون دى بوالكمت ص ٢٤٧ من كتاب محمد فـــؤاد شكرى : مرجع سابق ، وكلوت بك ، لمحة عامة الى مصر جـ ٢ ص ٢١٢ ٠

(٢) ولى الدين يكن : مرجع سابق ص ١٠٦ فى ولاية ســـيواس ـ وهى من مناطق الاناضول التى تضم ارضروم وطرابزون ، بلغ عدد الارمن طبقا لاحصاء عام ١٩٠٣ نحو ١٤٩ الفاً من ١٨٥٠٦ر١ وهو ما يدل على ان اعداد الارمن كانت كبيرة فى هذه المناطق ٠

(٣) احمد الصاوى : الاقليات التاريخية فى الوطن العربى ص ٢٥ مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر السلسلة القومية العدد (١) القاهرة عام ١٩٨٩ ٠

(٤) جب ، بوون : المجتمع الاسلامى والغرب جـــزء ثانى ص ١٦١ مترجـــم ٠

(٥) نفسه ص ١٦٢ ٠

(٦) أرداشيس : فصول من تاريخ الأرمن فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ٢٥٥ باللغة الأرمنية ٠

(٧) مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ص ٦٨ من مطبـوعات دار مكتبة الحياة بيروت (بدون تاريخ) ٠

(٨) باسكال كارمون : دور الارمن فى مصر فى القرن التاسع عشـر (محاضرة القاها فى المعهد الفرنسى بالقاهرة ٠ فى جـريدة هوسابير الأرمنية فى ١٩٩٢/٢/١٠ ٠

(٩) نفسه عدد ١٩٩٢/٢/١١ ٠

(١٠) نفسه ٠

(١١) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتـــور) : عصـــر حكاكيـــان ص ٧٣ ، ٧٤ ٠

(١٢) وثائق ديوان الخديوى محفظة رقم (٥) فى ٢٤ ذى الحجـــة ١٢٥١هـ/١٨٣٦م ذكر محمد على ذلك فى خطابه الى مأمـــور الديوان حين علم بتذمر الاجانب من الاحكام الصادرة فى القضايا المتعلقة بمصالحهم وأمره بعدم احالة قضايا الأجانب الى المجلس العالى فيما بعد واحالتها الى بوغوص بك للفصل فيها « حيث انه قادر على التفاهم معهم بسهولة » ٠

(١٣) سجلات تعداد النفوس، عام ١٨٤٨ و ١٨٧٠ عدة سجلات متفرقة .
(١٤) فؤاد حسن حافظ : تاريخ الشعب الارمنى ص ٨٩ يذكر « أن هؤلاء الارمن كانوا تراجمة لدى الدولة العثمانية ، وفى السفارات الاجنبية لديها - وانهم مارسوا التجارة واحتكروا صناعات وفنون ومهن ووظائف حكومية حتى قيل أن الأرمن هم « اصحاب القلم » بهذه الدولة .
(١٥) محمد شفيق غربال : مرجع سابق ص ٩٤ .
(١٦) باسكال كارمون : مرجع سابق ، عدد ١٩٩٢/٢/١١ من جريدة الهوسابير .
(١٧) نفسه .
(١٨) كلوت بك : مرجع سابق جـ ٢ ص ٢١٢ .
(١٩) ارداشيس : مرجع سابق مجلد ٢ ص ٤٦ - ٥٠ .
(٢٠) نفسه .
(٢١) نفسه .
(٢٢) نفسه .
(٢٣) نفسه .
(٢٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الاول ص ١١ مكتبة النهضة بالقاهرة ط ٢ عام ١٩٤٨ .
(٢٥) أرداشيس : مرجع سابق مجلد ٢ ، ص ٢٤٣ .
(٢٦) الاهرام عدد ١٨٤٩٥ فى ١٩٣٦/٦/٩ مقال عزيز خانكى الارمنى عن « الارمن فى مصر » .
(٢٧) الهوسابير عدد ١٩٩٢/٢/١١ محاضرة باسكال كارمون الارمنى .
(٢٨) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر جـ ٢ ص ٢١٣ .
(٢٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٥٦٤ - ٥٦٧ .
(٣٠) نبيل زكى : نوبار فى مصر ص ٨٦ (كتاب اخبار اليوم) .
(٣٢) سجلات المحاكم الشرعية ، يتبين من قراءة سجلات المحاكم الشرعية فى نواحى البحيرة والمنوفية وغيرهما أن الأرمن تملكوا مساحات واسعة من الاطيان الزراعية .
(٣٣) الهوسابير عدد ١٩٩٢/٢/١١ .
(٣٤) ارداشيس : مرجع سابق جـ ٢ ص ٣١٧ .
(٣٥) نفسه .
(٣٦) نفسه .

(٣٧) نفسه ص ٣٢١ ، ٣٢٣ .
(٣٨) نفسه ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٣٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جزء اول ص ١٩ مكتبة النهضة ط ٢ عام ١٩٤٨ .
(٤٠) ارداشيس : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٤ .
(٤١) نفسه : ص ٢٤ .
(٤٢) نفسه ص ٢٥ .
(٤٣) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : مرجع سابق ص ١١١ .
(٤٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ ص ٤٧ تولى عضو أرمنى عضوية قومسيون مصر عام ١٨٦١ م .
(٤٥) نفسه .
(٤٦) الاهرام عدد ١٩٣٦/٦/٩ وكان اراكيل بك قد اشترى بعد ذلك فى حملة اسماعيل باشا ضد الحبشة وفيها خر صريعاً فى ساحة الوغـى .
(٤٧) محافظ الابحاث محفظة رقم ١٣٠ صادر من ديوان المعية السنية التركية الى مدير روضة البحرين فى ٢٥ جماد الآخر ١٢٧٩هـ/ ١٨٦١م .
(٤٨) على بركات (دكتور) : مرجع سابق ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .
(٤٩) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١) اشهادات ١٣ شوال ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .
(٥٠) نفسه .
(٥١) ارداشيس : مرجع سابق جـ ٢ ص ٧٤ .
(٥٢) الاهرام عدد ١٩٣٦/٦/٨ مقال بتوقيع صحافى عجوز (وشارع بين السورين عبارة عن تقاطع بين شارع الازهر وشارع بورسعيد الآن وكان يقيم معهم اليهود فى نفس الحى) .
(٥٣) نفسه .
(٥٤) نفسه .
(٥٥) أرداشيس : مرجع سابق مجلد ٢ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٥٦) وثائق مجلس الوزراء ، بدار الوثائق القومية (الطوائف والجاليات الأجنبية) حول الارمن والروم محفظة (١/أ (١٨٣١/١/٥ - ١٩٢٠/١١/١٣) .

(٥٧) الفيكونت دى كورسون : ثورة ارمينيا ص ٦ مترجم القاهرة (بدون) .
(٥٨) محكمة اسكندرية الشرعية . رقم (١) اشهادات وثيقة بتاريخ ٩ شوال ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م .
(٥٩) محكمة مديرية المنوفية مضابط قيد المواد الشرعية سجل (١) ١٢٨٤هـ .
(٦٠) الهوسابير عدد ١٩٩٢/٢/١٢ .
(٦١) ملفات ربط المعاشات الملكية مجلد ٢ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٦٢) نفسه .
(٦٣) نفسه .
(٦٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ص ١١٢ .
(٦٥) الهوسابير فى ١٩٩٢/٢/١٢ .
(٦٦) الجوائب عدد ١٨٦٩/٣/٢٢ رقم ٣٨٢ كان كبار كل جنس وملة يلتقون فى الحفلات الخاصة بطوائفهم . والاحصاء الوارد مأخوذ من (الجوائب) فى ١٨٦٨/٤/٢١ . وتؤكده احصائيات تعداد النفوس عام ١٨٧٠ .
(٦٧) محافظ الابحاث رقم ١٣٠ أوامر كريمة صادرة فى ١٢ محرم عام ١٢٨٠هـ/ دفتر رقم ١٩٠٢ (الأوامر الصادرة الى نظارة الامور الخصوصية) .
(٦٨) محكمة اسكندرية الشرعية ، دفتر سجل تقريرات رقم (١) وثيقة مؤرخة فى ١١ جماد أول عام ١٢٧٣هـ .
(٦٩) نفسه . سجل رقم (١) اشهادات وثيقة بتاريخ أول صفر عام ١٢٧٥هـ .
(٧٠) نفسه ، نفس السجل ، وثيقة بتاريخ غاية ربيع أول ١٢٧٥هـ .
(٧١) نفسه ، نفس السجل ، وثيقة بتاريخ ١٦ شوال ١٢٧٥هـ .
(٧٢) نفسه ، سجل رقم (٣) وثيقة بتارخ ٢٣ رمضان ١٢٧٩هـ .
(٧٣) نفسه . نفس السجل ، وثيقة بتاريخ ١٣ جماد أول ١٢٨١هـ .
(٧٤) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيا ... ص ١٠١ .
(٧٥) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : عصر حكاكيان (مذكرات نوبار باشا) ص ١٢١ .

(٧٦) لطيفة سالم (دكتورة) : القضاء المصرى الحديث ص ٧٦ تذكر « أنه تقرر أن تكون اللغات الرسمية المستخدمة أمام المحاكم العربية والفرنسية والايطالية وبعد الاحتلال البريطانى لمصر أدخلت اللغات الانجليزية عام ١٩٠٥ » ، واضافت « ان اللغة العربية أهملت تماماً حتى القضاة المصريون اعتمدوا على اللغة الفرنسية » ٠

(٧٧) نفسه ٠

(٧٨) جريدة الاتحاد المصرى عدد ١٩٠٤/٦/٥ ، قالت الجريدة بمناسبة الاحتفال الذى جرى برفع الغطاء عن تمثال نوبار باشا انه قد حضر هذا الاحتفال مصطفى فهمى باشا عن الجناب العالى وكثيرون من اعيان القطر والثغر والقى المحافظ ورئيس المحكمة المختلطة خطباً فى هذه المناسبة ٠ وهذه أول مرة يقام فيها تمثال لوزير مصرى » ٠

(٧٩) محكمة اسكندرية الشرعية رقم (١٢) وثيقة بتاريخ ٢١ ذى الحجة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م ٠

(٨٠) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : عصر حكاكيان ص ١٢٥ - ١٢٦ ٠

(٨١) الهوسابير ١٩٩٢/٢/١٢ ٠

(٨٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) مرجع سابق ص ١٢٩ ٠

(٨٣) فؤاد حسن حافظ : مرجع سابق ص ١٩١ ٠

(٨٤) نفسه ٠

(٨٥) الهوسابير فى ١٩٩٢/٢/١٣ ٠

(٨٦) على بركات : مرجع سابق ص ٢٠٢ وانظر ايضا محكمة الاسكندرية الشرعية رقم ١٨ وثيقة مؤرخة فى ١٨٨٨/١٢/١٨ « كان نوبار يمتلك دائرة واسعة فى البحيرة ، ويتولى ابنه بوغوص باشا (ادارة قومبانية رى البحيرة) وفى دائرة نوبار كان يعمل عدد الاجانب الاوربيين وعدد من الوطنيين من بينهم الخواجا يوسف كروبينى (وكيل قومانية رى البحيرة) ويعمل كاتب بنفس الدائرة ومحمد عوض سالم (مستخدم بقومبانية رى البحيرة) ٠ انظر محكمة اسكندرية رقم ١٨ فى ٣ أبريل ١٨٨٩ ٠

(٨٧) عزيز خانكى بك : مرجع سابق ص ٤٨ - ٤٩ ٠

(٨٨) وثائق مجلس الوزراء (الطوائف والجاليات الاجنبية) محفظة ١/أ (١٨٣١/١/٥ - ١٩٢٠/١١/١٣ عن الارمن والروم) .

(٨٩) نفســه .

(٩٠) نفســه .

(٩١) نفسه (صورة ما تحرر من بطريرك الارمن الكاثوليك بمصــر الى رئيس الحكومة فى ٢ يناير ١٨٨٣) .

(٩٢) نفسه . (صورة ما تحرر تحت رقم ٢٧٤ من مجلس النظــار لنظارة الداخلية بتاريخ ١٢ صفر ١٣٠٣/١٩ نوفمبر ١٨٨٥) .

(٩٣) نفسه (صورة المذكرة المعروضة من نظارة الحقانية الى مجلس النظار فى ١٨٨٩/٧/١٨) .

(٩٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعيــة رقــم (١٨) اشــهادات من ٢ يناير ١٨٨٩ الى ١١ مايو ١٨٨٩ (الحضور هم انطون ارتين الارمنى الازميرلى وهو من ذوات الاسكندرية والمقيم بخط باب شرق ، وخسرلى افندى سركيس بن كاورك الارمنى ، وهو كاتب بقومبانية رى البحيرة والمقيم بخط شارع ابراهيم ، وبوغــوص باشا ابن نوبار ، مدير قومبانية رى البحيرة والمقيم بجهة الرمل والوكيل المفوض عن والده) .

(٩٥) A. H. HouRani : Minorities in the Arab world, P.P. 49 — 5O Oxford llniv. Press, 1947 .

(٩٦) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم ١٨ وثيقة بتاريخ ٢٩ أبريل ١٨٨٩ .

(٩٧) نفســه رقم ٢٠ وثيقة بتاريخ ٩ ديسمبر ١٨٨٩ .

(٩٨) وثائق مجلس الوزراء (الطوائف والجاليات الاجنبية فى مصر) محفظة ١/أ فى ١٨٨٥/٨/٢ وجريدة الزمــان عــدد ٦٩١ فى ١٨٨٥/٨/١٩ .

(٩٩) الماوتلن : عبد الحميد ظل الله على الارض (أرمينيا) ص ١٣٤ ترجمة راسم رشدى القاهرة عام ١٩٥٠ .

(١٠٠) جريدة الوطن عدد ١٩٦٢ السنة الثالثة عشرة ١٨٩٠/٥/٢٢ .

(١٠١) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية ص ١٥٤٥ الجزء الثالث ، مكتبة الانجلو بالقاهرة عام ١٩٨٣ .

(١٠٢) وثائق مجلس الوزراء : الطوائف والجاليات الاجنبية فى مصر محفظة ١/١أ مذكرة من نظارة الحقانية الى مجلس النظار فى ٢٣ ربيع الثانى ١٣٠٥هـ/٧ يناير ١٨٨٨ ٠

(١٠٣) جريدة الزمان (جريدة يومية) بتاريخ ١٨٨٦/٣/٢٢ ٠

(١٠٤) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية رقم (٢٠) فى ١٢ نوفمبر ١٨٨٩ ، والماوتلن : مرجع سابق ص ١٤١ ٠

(١٠٥) جريدة الوطن عدد ١٠٦٤ السنة الرابعة عشرة فى ١٨٩١/١/٧ ٠

• • •

خاتمـــــة

لم يقم فى مصر فى القرن التاسع عشر على الرغم من تعـــدد الاقليـات العـرقية شرقيـة أو غربيـة بهـا ، مجتمـع على أســاس عرقى . كما لم تشعر أى أقليـة عرقية فى أى مكان بالأمان كما شعرت به الأقليات العرقية فى مصر ، ومع ذلك أن هـذه الأقليـات أصــاب سلوكها ما يصيب أى أقلية عرقية وسط أغلبية وطنية ، من ظهور رغبة عارمة فى الحصول على الثروة من أى طريق فلم يتورع أفـرادهـا عن سلوك كافة السبل مهما كانت من اجل الوصول الى هذه الغاية .

والواقع أن الأتراك قادوا الاقليات العرقية الأخرى الشركسية والأرمنية واتجه الجميع بولائهم الى استانبول مع تفاوت فى درجة الولاء بين اقلية واخرى . وولاؤهم لاستانبول كان من النوع الذى يربط بـــين اصحاب المصلحة الواحدة ولكنهم كونوا ولاء آخر الى الحاكم فى مصر لأنه كان محور الارتكاز بالنسبة لهم فظلوا يدورون حوله .

وقد ظلت هذه الاقليات العرقية تشعر انها بدون جذور محلية من الناحية الاجتماعية وانعكس ذلك على سلوكها الاجتماعى ، فأصاب أفرادها الشعور بالاستعلاء والكبرياء واكدوا فى كل مناسبة على هذا ، ولـم يكن ذلك غريباً . فقد كان ينتابهم القلق خشية الذوبان فى الاغلبية .

ولكن لوحظ ان هذه الامور جميعها تتراجع حين تصبح هنـــاك مصالح اقتصادية مشتركة ، فلا تجد اثرا للحزازات العرقية او الدينية او الطائفية او غيرها .

والحق ان تراجع هذه الحزازات قد خلق شكلاً آخـر من اشكال العلاقات بين هذه الاقليات اشبه بالعلاقات التى تربط بين طوائف اهل

الحرف بعضها وبعض توضيح ذلك انه كانت تقوم بين هذه الاقليـات فواصل ولكنها كانت من طبيعة الفواصل التى تقوم بين الصناع والزراع وأصحاب المهن الحـرة ٠

على كل حال لم يتزحزح الوضع الذى ظلت هذه الاقليات العرقية تنعم به من مكانة اجتماعية متميزة وتسلط على الأغلبية الا بعد أن زحف الأوربيون على مصر وزاحموا هذه الأقليات ثم بعد أن ظهرت عناصـر تدريجيا الى أن ذابت فى الأغلبية فى النهاية ٠

• • •

المصادر والمراجع

● ● ●

المصـــادر

(١) دار الوثائق القوميـة :

(١) دار الوثائـق القومية :

ـ وثائق ديوان الخديوى (١٨٠٥ ـ ١٨٧٤) وهى عبارة عن ثلاث عشرة محفظة وبهـا الوثائق التى تتناول شئون الأقليات التركية والشركسية وغيرها ٠

ـ وثائق ديوان المعية السنية عربى ـ مترجمة عن التركية ٠

ـ دفتر رقم ١١ ملخصات الأوامر العلية المستخرجـــة من الدفاتر ٠

ـ دفتر س ٢/١٣/١/ يوسف الحوابات والاوامر الصادرة ٠

ـ دفتر ٢٣ يومية الجوابات والاوامر الصادرة ٠

ـ محافظ أبحاث ـ مستخرجة من المعية التركى :

ـ محفظة رقم ١٣٥ ٠

ـ محفظة رقم ٤٢ ٠

ـ محفظة رقم ١٠٢ ٠

ـ محفظة رقم ١٣٠ (اقليات جزيرة طاشيوز) ٠

ـ محفظة رقم ١١٤ (البولونيون فى مصر) ٠

ـ محافظ الذوات ـ

عدة محافظ ، اعتمدنا علي المحفظة رقم (١) ٠

- محافظ بحـر بـرا

عدة محافظ ، اعتمدنا على المحفظة رقم ١٧ .

- سجلات تعداد النفوس عام ١٢٦٤هـ ، عام ١٢٨٥هـ .

اطلعنا على عشرات السجلات ، وفى هذه السجلات تدوين اسماء عناصر الاقليات العرقية فى مصر فى كافة احيائهـا ، ويعتبر أهم مصدر فى الدراسة .

- سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، خلال فترة الدراسـة .

وتتناوب الجوانب الآتية :

● الاحوال الإقتصادية لعناصر الاقليات العرقية ، واهمها وثائق المـال .

● الاحوال الإجتماعية ، واهمها وثائق الإحوال الشخصية لعناصر الاقليات .

- وثائق مجلس الوزراء (الطوائف والجاليات الاجنبيـة فى مصـر) :

محفظة ١/أ (١/٥ فى الفتـرة من ١٨٣٠ - ١٩٢٠)

ملف خاص بالأرمن والـروم .

(٢) دار المحفوظات العمومية

ملفات الموظفين ، وهى ٤٤٧٥ ملفا فى الفترة من ١٨٣٠ - ١٨٧٢ .

- ملفات الموظفين الاتراك : فى دولاب ٥ ، ٨ .

ارقام ملفات متعددة اهمها ٤٦ ، ٦٠ .

- ملفات الموظفين الشراكسة : فى دولاب ٥ ، ٦ .

ارقام ملفات متعددة ، أهمها ٣٧٧١ .

- ملفات الموظفين الارمن : ٥ ، ٨ ٠
ارقام ملفات متعددة ، أهمها ماخوذ من ملفات ربـــط المعاشات الملكية (مجلدان) فى الفترة من ١٨٨٣ - ١٨٨٦ ٠

ثالثـا : وثائق منشورة :

- المحفوظات الملكية المصرية ٠ بيان بوثائق الشام (مجلدان) قام بجمعهما دكتور اسد رستم ٠

- مطبوعات جمعية اصدقاء الثقافة الارمنية ، ارمينيا على مـر العصور مطبعة ماتوسيان ٠ القاهرة ١٩٤٤ ٠

- شرف خان البدليسى : شرفنامه مترجـم عن الفارسـية (وثائق) ترجمة محمد على عونى ٠ القاهرة ١٩٥٨ ٠

مذكرات منشورة :

- مذكرات أحمد عرابى : كشف الستار عن سـر الأسرار فى النهضـة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ٠ كتاب الهلال فى جزئين ٠ فى فبراير ومارس ١٩٥٣ ٠

- مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخـديوى عباس الثانى ٠ كتـاب الهلال العـدد ٣٥٦ أغسطس ١٩٨٠ ٠

- محمد عارف (تركى) : مذكراتى ٠ عبر البشر مترجمة عن التركية ٠

رسـائل جامعية غير منشورة :

- حلمى محروس اسماعيل : دراسات فى الحالة الاجتماعية فى مصر فى النصف من القرن التاسـع عشر ٠ (دكتوراه - آداب القـاهرة ١٩٧٧) ٠

- محمد صلاح الدين : حياة الأتراك الاجتماعية فى مصر (ماجستير آداب القاهرة ١٩٦٠) ٠

المراجـــــع

أولا : المراجع :

- احمد تيمور باشا : تراجم اعيان القرن الثالث عشر ٠ القاهرة ١٩٤٠ ٠
- احمد فتحى زغلول : المحاماه ٠ القاهرة ١٩٠٠ ٠
- احمد السعيد سليمان (دكتور) التيارات القومية والدينيـــة فى تركيا المعاصـرة القاهرة ١٩٦١ ٠
- احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل دار المعارف ٠ القاهرة ١٩٦٧ ٠
  - عصر حكاكيان (مصر النهضة) عام ١٩٩٠ ٠
- احمد الصاوى : الاقليات التاريخية فى الوطن العربى (السلسلة القومية ـ مركز الحضارة العربية ٠ القاهرة عام ١٩٨٩) ٠
- احمد فؤاد متولى (دكتور) : الالفاظ التركية فى اللهجات العربية وفى لغة الكتابة ٠ القاهرة ١٩٩١ ٠
- الياس الايوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشـــا من سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ٠ المجلد الاول ٠ دار الكتـــب المصـــرية ٠ القاهرة ١٩٢٣ ٠
- جمال الدين الشيال (دكتور) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى عصر محمد على ٠ القاهرة د٠ت
- جمال حمدان (دكتور) : استراتيجية الاستعمار والتحـــرير ٠ كتاب الهلال ٠ القاهرة ١٩٨٩ ٠
- حلمى شلبى (دكتور) : الموظفون فى مصر فى عصر محمد على (تاريخ المصريين) ، عدد ٣٠ ٠ القاهرة عام ١٩٨٩ ٠
- راسم رشدى : شركسى يتحدث عن قومه ٠ القاهرة عام ١٩٤٧ ٠
  - مصر والشراكسة ٠ القاهرة (د٠ت) ٠

- صبحى وحيده : فى اصول المسألة المصرية . مكتبة مدبولى القاهرة (د.ت).

- عبد الرحمن الرافعى : - عصر محمد على . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥١

- عصر اسماعيل . الجزء الاول . مكتبة النهضة . القاهرة عام ١٩٤٨ .

- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ج ٤ القاهرة ١٣٣٢هـ .

- عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها عدة أجزاء الجزء الأول والثالث مكتبة الانجلو بالقاهرة ١٩٨٣ .

- عبد السميع الهراوى : لغة الادارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر . الكتاب الأول : الصادر عن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . القاهرة عام ١٩٦٣ .

- على بركات (دكتور) : تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ واثره على الحركة السياسية . القاهرة ١٩٧٧ .

- على مبارك باشا : الخطط التوفيقية . الجزء الاول . مطبعة بولاق القاهرة (د.ت) .

- عمر طوسون : البعثات العلمية فى عصر محمد على . القاهرة (د.ت) .

- عزيز خانكى بك : التشريع والقضاء قبل المحاكم الاهلية . القاهرة (د.ت) .

- فؤاد حسن حافظ : تاريخ الشعب الارمنى . القاهرة ١٩٨٦ .

- لطيفة سالم (دكتورة) : القضاء المصرى الحديث (تاريخ المصريين) عدد ٤٧ القاهرة ١٩٩١ .

- محمد انيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ - ١٩١٤ الانجلو المصرية (د.ت) .

- محمد فؤاد شكرى (دكتور) ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : بناء دولة مصر على (السياسة الداخلية) القاهرة ١٩٤٨ .

- محمد شفيق غربال : محمد على الكبير · كتاب الهلال العدد ٤٣٠ اكتوبر ١٩٨٦ ·
- محمد رفعت : تاريخ مصر فى الازمنة الحديثة · القاهرة ١٩٢٤ ·
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية القاهرة ١٩١١ ·
- مروان المدور : الارمن عبر التاريخ · بيروت (د·ت) ·
- محمد امين حسونة : كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبدالناصر القاهرة ١٩٥٥ ·
- نبيل زكى : نوبار فى مصر كتاب اخبار اليوم · القاهرة ١٩٩١ ·
- ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول · القاهرة ١٩١١ ·

ثانياً : المراجع المترجمة :

- ادوارلين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ترجمة سهير دسوم - مكتبة مدبولى · القاهرة (د·ت) ·
- جليلى جليل (كردى) : انتفاضة الأكراد ١٨٨٠ (بيروت) مترجم عام ١٩٧٩ ·
- حقى درسن يلديز : التطور التاريخى للعلاقات التركية العربية · مترجم عن التركية · ضمن ابحاث ندوة دراسات الادب والتاريخ التركى المصرى - جامعة عين شمس عام ١٩٨٥ بالقاهرة مطبوعات دار الفكر العربى ·
- ارداشيس : فصول من تاريخ الارمن فى مصر (باللغة الارمنية) ·
- الدوتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض ترجمة راسم رشدى · القاهرة ١٩٥٠ ·
- آنى شابرى ولورانت شابرى : سياسة واقليات فى الشرق الادنى · ترجمة ذوقان قرقوط · القاهرة عام ١٩٩١
- جبرائيل بيير : - دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة · ترجمة وتقديم د · عبد الخالق فهمى الجمال · مكتبة جامعة عين شمس · الطبعة الأولى · القاهرة ١٩٧٩ ·
- **تاريخ ملكية الارض فى مصر الحديثة ١٨٠٠ - ١٩٥٠ ترجمة عطيات محمود · سلسلة الالف كتاب الثانى · الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨ ·**

- فيجـان : (كتاب مخطوط بدون عنوان مـودع بـدار الوثائق) مترجم عن اللغة الفرنسية ، ترجمة حمدان سلطان محافظ الابحاث رقم ١٤٣ .
- أ . ب . كلوت بك : لمحة عامة الى مصر الجزء الأول ، الجزء الثانى . ترجمة محمد مسعود . القاهرة (د.ت) .
- هاملتون جب ، هارولد بوون : المجتمع الاسلامى والغرب (جزءان) ترجمة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى . القاهرة دار المعارف ١٩٧١ .
- مورو بيرجر : البيروقراطية فى مصر . ترجمة د . محمد توفيق رمزى . القاهرة ١٩٥٩ .
- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة أمـين فـارس ومنير البعلبكى . بيروت ١٩٤٨ .
- يوسف عزت باشا (شركسى) : تاريخ القوقاز ترجمة عبد الحميد غالب بك . القاهرة عام ١٩٣٣ .
- الفيكونت دى كورسون : ثورة ارمينيا مترجم . القاهرة (د.ت).

الدوريـات :

- الجوائب اعوام ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، ١٩٧٠ .
- الاهـرام ١٩٣٦ .
- الاتحاد المصـرى ١٩٠٤ .
- الهوسابير (ارمنية) عام ١٩٩٢ .
- الوطن ١٨٩٠ ، ١٨٩١ .
- الزمان ١٨٨٥ .

كتب أجنبية :

— Dodwell, Henry : the Founder of Modern Egypt, Oxford, Press, 1938 .

— Hourani, A. H.; Minorities in the Arab world, Oxford Univ. Press, 1947 .

الفهـــــرس

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٣ / ٩١٤١



